

مكتبة ٧١٥

باتمان والفلسفة

الخوض في روح فارس الظلام



إعداد: مارك د. وايت وروبرت آرب
ترجمة: المجتبى الوائلي

مراجعة: رقية طارق

مكتبة | 716
سُر مَنْ قَرَأَ

باتمان والفلسفة
الخوض في روح فارس الظلام

مكتبة

t.me/t_pdf

٢٠٢١ ٧ ١٠

نابو

باتمان والفلسفة، ت: مجتبى الوائلي

الطبعة الأولى ٢٠١٩

حقوق النشر والترجمة والاقتباس محفوظة لمنشورات نابو في بغداد

Nabu Publishers

تلفون: ٩٦٤٧٨٠٤٤٢٣٦٢٩+

ص.ب: ٥٠٤٧ مكتب بريد الرشيد، بغداد، العراق

E-mail: info@nabupub.com

التوزيع خارج العراق: دار التنوير

لبنان - مصر - تونس

التصميم والإخراج الفني: وليد غالب

All Rights Reserved. This translation
published under license with the original
publisher John Wiley & Sons, Inc.

ISBN:978-614-472-090-5

باتمان والفلسفة

الخوض في روح فارس الظلام

محرر السلسلة: ويليام اروين
إعداد: مارك د. وايت وروبرت آرب

ترجمة: المجتبى الوائلي

مراجعة: رقية طارق

مكتبة | 716
سُرَّ مَنْ قَرَأَ

ساي
للنشر والتوزيع

الإهداء...

إلى ذكرى هيث ليدجر (1979 - 2008)

ملاحظة المترجم:

جميع الأسماء الرمزية للأبطال الخارقين تقريباً قد تمت ترجمتها كما هي دون تحويلها لما تعنيه في اللغة العربية، أي أنها قد عوملت كأسماء أعلام. مثلاً، تُرجم Batman إلى باتمان ولم يترجم إلى الرجل الوطواط، و Superman إلى سوبرمان ولم يترجم إلى الرجل الخارق. كذلك هي عناوين القصص المصورة والأفلام، أبقيتها كما هي باللغة الانكليزية.

كما واستعنت بترجمة الأستاذ القدير علي مصباح فيما يخص الإقتباسات المأخوذة من كتاب «هكذا تحدث زاردشت» لنيثشة.

شكر وتقدير

خطاب الأوسكار الذي لن يتسنى لجورج كلوني إلقاءه أبداً

نود أن نشكر فرقة العدالة (إيريك نيلسون، كوني سانتستيان، وبقية الأعضاء في ويلي) على ملاحظاتهم المفيدة والقيمة؛ المفوض غوردن ومركز شرطة مدينة غوثام (جيف دين وبلاكويل)، الذين بدأ هذا المشروع بإشرافهم؛ وتوماس واين (بيل إيروين) لدعمه اللا محدود والملمهم. (لا تخف أبداً، فيل لا يزال حياً _ من الذي كان ليشهد باتومان لو لم يكن موجوداً؟) يود مارك شكر جحافل الكتّاب والفنانين والمحررين الذين جعلوا من باتمان شخصية حيّة على مدى عقود. ويود روب شكر زوجته سوزان (حتى لو لم تكتب قصة واحدة عن باتمان في حياتها!)

المقدمة:

وضح لي هذا

نحن نعلم بما تفكر (وذلك لأننا أذكاء، إذ أننا فلاسفة) "باتمان والفلسفة"؟ هل أنت جاد؟ ولكن لماذا؟

حسناً، بما أنكم قد طرحتم تلك الأسئلة .. فذلك لأننا نعتقد بأن باتمان هو الشخصية الأكثر تعقيداً على الإطلاق بين تلك التي ظهرت في القصص المصورة. إذ بسبب تلك القصص التي ميزته خلال السبعين عاماً الأخيرة، وليس في القصص المصورة لوحدها بل وفي الرسوم المتحركة ومسلسلات الأكشن على التلفاز وفي الأفلام، قد وفرت لنا ثروة من المواد الفلسفية لمناقشتها. ولأن لدينا إمكانية، بالتعاون مع حوالي عشرين معجبا آخر، أن نجتمع شغفنا بهذه الشخصية مع حبنا للتفلسف، فقط لنشكل هذا الكتاب الذي هو بين يديك الآن. (لا ضرورة لشكرنا، فنحن فرحون بإنجازه).

إن أحد الأسباب التي جعلت من باتمان البطل الخارق المفضل لدى الكثير من الجماهير حول العالم هو لكونه إنساناً فقط، حتى رغم عدم شبهه بأي أحد منا. حيث كرّس حياته بأكملها للانتقام لوفاة والديه وجميع ضحايا

جريمة الآخرين من خلال المخاطرة بحياته لحماية مدينة غوثام وما هو أبعد منها. إذ أمضى سنواتٍ عديدة وضحى بكل شيء لأجل أن يدرب جسده وعقله ليصلا الى الكمال. هو فاحش الثراء، ورغم ذلك فقد عزل نفسه بعيداً عن جميع تلك الكماليات (باستثناء كبير خدَمِهِ) سعياً وراء هدف لن يحققه أبداً. وقام بصنع هذا الزي الذي يشبه وطواطاً عملاقاً.

لكن ما الذي يدفع شخصاً ما للذهاب الى هذا الحد؟ هل ما يفعله باتمان جيد، أو صائبٌ أو فاضل؟ وما الذي يقوله هوسه وتفانيه للـ “مهمة”، عمّن يكون؟ كيف يتعامل مع والديه وأصدقائه وأعدائه؟ وكيف هو الحال حين تكون باتمان؟ كل تلك هي أسئلة فلسفية صميمية، وعندما نقرأ قصص باتمان، فلا يمكننا الامتناع عن التفكير بهذه الأشياء (ومن ثم كتابة أفكارنا). إن العشرين فصلاً في هذا الكتاب تستكشف قضايا في الأخلاق، والهوية، والصداقة والسياسة، وأكثر من ذلك أيضاً، باستخدام أمثلة مستقاة من قصص باتمان الشهيرة مثل عودة فارس الظلام (The Dark Knight Returns)، وباتمان: السنة الأولى (Batman: Year One)، والأرض المحرمة (No Man’s Land)، وموت في العائلة (A Death in the Family)، والمزرعة القاتلة (The Killing Joke)، جنباً الى جنب مع العدد الهائل الآخر من الأفلام، والمسلسلات الكارتونية، ونعم، الرفاق القدماء من المسلسل التلفزيوني في الستينات مع آدم ويست Adam West وبيرت وارد Burt Ward. لذا سواء كنت تعلم أو لا تعلم عن الانبعاث الأخير لجيسون تود Jason Todd، أو سواء كنت تستطيع قراءة خطوط جاك نيكلسون Jack Nicholson من أول أفلام باتمان لتيتم بورتن Tim Burton، أو إذا كانت لديك مجرد ذكريات فقط عن لباس الهالوين الخاص بك قديماً، فستجد هنالك شيئاً لأجلك في هذا الكتاب، ضوءاً لامعاً سطع في سماء المدينة، إنها إشارة الوطواط، هيا لنبدأ!

هل فارس الظلام دوماً على حق؟

1

لماذا لم يقتل باتمان الجوكر؟

بقلم: مارك وايت

قابل الجوكر..

في العقود القليلة الماضية، حوّل الجوكر نفسه من مجرد مهرج مجرم الى قاتل شنيع ليس له منافس. إذ كانت أكثر أفعاله شناعة هو قتله لروبن الثاني، جيسون تود، ضارباً إياه بقضيب معدني بطريقة دموية قبل أن يفجّره. ثم قام بإطلاق النار على سارة إيسين Sarah Essen، زوجة المفوض جيم غوردن Jim Gordon الثانية، مردياً إياها قتيلة، أمام العشرات من الأطفال الرضع، والذين هدد بقتلهم ليجذب إيسين إليه. وقبلها بسنوات، قام بإطلاق النار على باربرا غوردون Barbra Gordon - ابنة جيم غوردون بالتبني والمرأة الوطواط Batgirl السابقة - برصاصة استقرت في عمودها الفقري،

ليصيبها بالشلل من خصرها وصولاً لأطرافها السفلية. ثم قام بتعذيب جيم بصور مفبركة لها تظهر فيها مستلقية على وجهها وهي عارية وغارقة بدمائها. ودعونا لا ننسى العدد اللانهائي من مواطني مدينة غوثام الاعتياديين، إذ أن الجوكر قد قام حتى بإبادة جميع أتباعه الخاصين في الفترة الأخيرة!¹

وفي كل مرة يهرب فيها الجوكر من مصحة أركام يقوم بارتكاب جرائم لثيمة - من النوع الذي يدعوهُ الفيلسوف جويل فاينبرغ Joel Feinberg (1926 - 2004) "مريضة! مريضة! مريضة!" أو "مريضة تكعيب!"² وبالطبع يعود باتمان ليمسك بالجوكر ويزجّه مرة أخرى في مصحة أركام.³ يعلم باتمان بأن الجوكر سيهرب، وأنه من المرجح أن يرتكب جريمة قتل مرة أخرى ما لم يمنعه الفارس المقنع والذي، كما يبدو، بأنها مهمة لا ينجح فيها دائماً.

لذا فما الذي يمنع باتمان من حل المسألة بقتل الجوكر؟ فكر فقط بجميع الأرواح التي سيستطيع إنقاذها بذلك! والأكثر من ذلك، فكر بكل تلك الأرواح التي كان سينقذها قبل سنوات من ذلك من بين أصدقاءه المقربين وأقربائه فقط. لقد فكر المفوض غوردن في قتل الجوكر بنفسه في عدّة مناسبات، وعادة ما يكون باتمان هو الشخص الذي يقوم بمنعه عن ذلك.⁴ وفي مشهد رائع خلال مسار القصة، كان باتمان أيضاً قريباً جداً من القضاء على الجوكر ولكن كان جيم هو الشخص الذي أوقفه. ثم سأل باتمان جيم: "كم عدد الأرواح الأخرى التي سنسمح له بتدميرها؟" ليجيبه جيم: "لا يهمني ذلك، لن أسمح له بأن يدمر حياتك أنت."⁵

لذا وبالرغم أن الفرصة قد أتحت كثيراً، لم يقم باتمان بقتل الجوكر أبداً، وهو الذي يعتبر بالتأكيد أخطر أعدائه. ولكن بالطبع، فباستثناء أولى قضاياه، كان باتمان يفرض القتل بشكل مطلق، وكان يصرح عادة بأنه إذا قام بالقتل، فلن يجعله ذلك أفضل من المجرمين الذين أقسم على قتلهم.

ولكن ألا يبدو ذلك أنانياً قليلاً؟ إذ يستطيع شخص ما أن يقول: ”هيا، إن الأمر ليس محصوراً بكم أيها الوطواط.“ أم هو كذلك؟ هل يجب أن يكون كذلك؟ عادة ما نعتقد بأن الشخص ملزم بأن يفعل أي شيء إذا كانت فائدته ستصب على أكبر قدر ممكن من الأشخاص، ولكن ماذا لو كان ذلك ”الشيء“ هو ارتكاب جريمة قتل؟ إذ ما هو الأكره أهمية، هل هو فعل الخير؟ أم فعل الخطأ؟ (يا إلهي، ألفريد، نحن بحاجة إلى الأسبرين هنا).

في هذا الفصل، سنهتم بأخلاقيات القتل لمنع القتل في المستقبل، وهي نفس المشكلة التي واجهها باتمان بالضبط عندما وازن بين مبادئه الأخلاقية الخاصة مقابل عدد لا يحصى من الأرواح التي كان يستطيع إنقاذها. في الواقع، فقد أثرت هذه المسألة في العديد من المرات، ومنذ وقت قريب جداً بين الشرير هاش Hush وجايسون تود (العائد من الموت) نفسه، وفي وقت سابق بين جين - بول فالي (Jean - Paul Valley) (سقوط ”الفارس“ باتمان Batman «Knightfall»)، ولم يكن لأي منهم تلك المبادئ الأخلاقية الصارمة التي امتلكها باتمان.⁶ وأنا بدوري سأتناول هذا الموضوع من خلال إضفاء بعض التجارب الفكرية الفلسفية الشهيرة التي ستسمح لنا بالخوض خلال أخلاقيات الموقف بتحليلها إلى عناصرها الأولية، تماماً كما يقوم باتمان بحل جريمة مخطط لها بذلك بالغ. (حسناً، ليس تماماً، ولكن عليك أن تدعني أحلم بذلك!).

هل يعتبر باتمان نفعياً؟ أم ملتزماً بالأخلاق الواجبة؟

(أو لا شيء مما سبق؟)

إن الحجة المؤيدة لقتل الجوكر واضحة إلى حد ما، حيث إذا ما قتل باتمان الجوكر فإنه سيمنعه من ارتكاب جميع الجرائم التي من الممكن أن يقوم بها

مستقبلاً. وهذا المنطق يعتبر نموذجاً للنفعية، وهو نظام من الأخلاقيات يتطلب منا تحقيق أقصى قدر من السعادة أو المصلحة العامة تنتج من خلال أفعالنا. 7 حيث أن إنقاذ العديد من الأشخاص مقابل التضحية بشخص واحد من شأنه أن يمثل زيادة صافية في الرفاهية أو المنفعة العامة، وعلى الرغم من أن الاختيار سيكون مأساوياً بالتأكيد، إلا أن النفعية تبقى مؤيدة بشكل عام. (إذ بإمكاننا إضفاء المزيد من الاعتبارات، كدافعية السعي إلى الانتقام من قبل عوائل ضحاياه، أو الحزن الذي يصيب بعض الناس عند مقتل شخص ما، ولكن دعونا لا نعقد الأمر حالياً).

إن الأبطال الخارقين، بصورة عامة، ليسوا نفعيين. إنهم يحبون بالتأكيد، أن يكونوا سعداء وبحال جيد، أن يكون حالهم في ذلك حال أي شخص طبيعي، ولكن هنالك بعض الأشياء التي لن يقوموا بفعلها حتى لو عنت تحقيقهم لذلك. والمجرمون يعرفون ذلك بالتأكيد ويوظفونه كأفضلية لصالحهم: فبعد كل شيء، لماذا برأيك يقوم المجرمون باحتجاز أناس أبرياء كرهائن؟ والأبطال الخارقون - مثل الشرطة في العالم الواقعي بالضبط - عادة ما يمتنعون عن المخاطرة بأرواح الأبرياء بهدف إلقاء القبض على الأشرار، حتى لو كان ذلك الأمر يعني منع أولئك الأشرار من قتل المزيد من الأبرياء مستقبلاً. وبشكل عام، فإن معظم الأبطال الخارقين لا يقدمون على القتل، حتى لو كان ذلك الأمر يعني إنقاذ مزيد من الأرواح.⁸

ولكن ما الذي يجعلهم يرفضون القتل في هذه الحالات؟ فالنفعي لن يفهم كلاماً كهذا. "إنك تُعرّض الكثير من الناس للموت لأنك ترفض قتل شخص واحد؟" هذا هو تقريباً بالضبط ما قاله كل من جايسون تود وهاش لباتمان مؤخراً. حيث قال هاش: "كم من الأرواح التي تعتقد بأنك قد فرطت فيها، وكم من العوائل قد دمرت، من خلال تركك للجوكر حياً؟ ولماذا؟ من أجل واجبك الأخلاقي؟ أو حس العدالة خاصتك؟"

ولكن جيسون تود قد قام بالإلتفاف عليه بصورة أكبر (بالطبع) قائلاً: "بروس، أنا أسامحك لعدم إنقاذي. ولكن لماذا.. لماذا بحق السماء ما يزال حياً؟ متجاهلاً ما فعله في الماضي.. متجاهلاً بكل غباء وعلى نحو أعمى كل تلك المقابر التي قام بملئها، والآلاف ممن عانوا بسببه، والأصدقاء الذين أصيبوا بالشلل، وكما أعتقد - وكما أعتقد متجاهلاً قتلي - هل سأكون آخر الأشخاص الذين تركتهم يعانون؟"⁹ ولكن معايير الاستجابة لدى باتمان كانت دائماً بأنه إذا ما قتل، فلن يجعله ذلك أفضل من المجرمين الذين يقوم بقتالهم، أو أنه سيقوم بتجاوز خط لن يستطيع العودة فيه أبداً، على الرغم من أنه صريح جداً بشأن رغبته القوية في قتل الجوكر.¹⁰

في الحين الذي سيؤيد فيه النفعيون بشكل عام قتل شخص لمنع قتل أشخاص أكثر، فإن متبعي المدرسة الأخلاقية التي تدعى بالمثالية (الواجبية) لن يفعلوا ذلك.¹¹ فالمثاليين (الواجبيين) يحكمون على أخلاقية فعل ما بالاعتماد على الخصائص الجوهرية للفعل ذاته، بغض النظر عن العواقب التي قد تنتج عن هذا الفعل. إذ بالنسبة للمثاليين (الواجبيين)، فإن النهايات لا تبرر الوسائل أبداً، ولكن بدلاً من ذلك فعلى الوسائل أن تكون مبررة وفقاً لأساساتها الموضوعية الخاصة. لذا فإن حقيقة أن القتل من شأنه أن يمنع المزيد من القتل مستقبلاً هو أمر غير ذي صلة، والأمر الوحيد ذو الصلة هو أن القتل فعل خاطئ في كل الأحوال. ولكن حتى بالنسبة لأكثر المثاليين (الواجبيين) تشدداً، توجد هنالك استثناءات - فعلى سبيل المثال، في خطر التعرض لمحاولة القتل - افلدفاع عن النفس سيكون مسموحاً به من قبل المثاليين (الواجبيين). لذا فإن القتل مسموح، ولكن فقط لأجل الأسباب الصحيحة؟ هل يمكن اعتبار قتل قاتل مهووس هو واحد من تلك الأسباب فقط؟ سنرى ذلك، ولكن علينا أولاً أخذ جولة في العربة.

توجه لعربة الوطواط، بروفيسور طومسون!

إن أحد العضلات الأخلاقية الكلاسيكية العديدة التي ناقشها الفلاسفة هي: «إشكالية العربة»، وقد تم تقديمها من قبل فليبا فوت Philippa Foot وفُصِّلَت من قبل جوديث غارفيس طومسون.¹² تخيل أن عربة تتقدم متسارعة خلال مسار ما. وإلى الأمام في هذا المسار هنالك خمسة أشخاص لم يسمعوا العربة قادمة ولن يستطيعوا الابتعاد عن الطريق. لسوء الحظ، لا يوجد وقت كافٍ لإيقاف العربة قبل أن تصطدم بهم وتقتلهم. والطريقة الوحيدة لتلافي قتل هؤلاء الخمسة هو بتغيير مسار هذه العربة إلى مسار آخر. ولكن لسوء الحظ، هنالك شخص ما يقف في ذلك المسار، وقريب جداً أيضاً من العربة بحيث لا يمكن إيقافها وإنقاذه. والآن تخيل وجود متفرج واقف قرب مقبض تغيير مسار العربة وبإمكانه أن يقوم بخيار: أن لا يفعل شيئاً، وهو ما سيؤدي إلى مقتل خمسة أشخاص على المسار الحالي، أو التصرف بتحويل العربة إلى المسار الآخر، والذي سيؤدي إلى مقتل شخص واحد.

لندعو الشخص المتحكم ببروس. هل ستسمح أخلاقيات بروس بتحويل العربة إلى المسار الثاني أم لا؟ ولو كانت كذلك، فهل يمكننا أيضاً أن نقول بأنه مطلوب منه القيام بذلك واقعاً؟ تقوم طومسون هنا باتخاذ الخيار الوسطي، خالصة إلى أن بروس مسموح له -ولكنه ليس مطالباً- بتحويل مسار العربة. إذ أن من شأن النفعي النموذجي أن يطالب بروس بتدوير القضيب المعدني لتغيير مسار العربة وإنقاذ أكبر عدد ممكن من الأشخاص، في الحين الذي ستكون فيه مشكلة الملتزم بالأخلاق الواجبة هو تصرف بروس والذي سيؤدي إلى زهق روح واحدة (بدلاً من السماح لخمسة بالموت بسبب عدم فعله لشيء). يبدو بأن جواب طومسون قد جمع بين مخاوف كل من النفعيين والملتزمين بأخلاق الواجب. مسموح لبروس (وربما مُشجّع أيضاً) بتغيير مسار القطار وقتل شخص واحد بدلاً من خمسة، ولكن

مسموح كذلك لبروس بأن تكون لديه إشكالية تمنعه من القيام بذلك بنفسه. إحدى الطرق للتفرقة بين منهج النفعية والأخلاق الواجبة هي من خلال النظر الى أنواع القواعد التي تصف كلاً منهما. حيث يتم قياس نتائج النفعية بقواعد محايدة طبيعياً، كتحقيق ”الانتفاع الأكبر“، والنفعيون لا يعيرون اهتماماً لمن سيتبع القاعدة. إذ أن على الجميع أن يتصرفوا لأجل تحقيق الانتفاع الأكبر، ولا يوجد أي سبب أو عذر لأي شخص ليقول: ”أنا لا أستطيع القيام بذلك“. أما على النقيض من ذلك، تتعامل الأخلاق الواجبة مع الوسيلة نفسها بقواعد محددة، إذ عندما يقول الملتزمون بأخلاق الواجب: ”لا تقتل“ فإنهم يعنون بأن عليك ”أنت“ أن ”لا تقتل“ حتى لو كانت هنالك أسباب أخرى تجعل من ذلك الفعل فكرة جيدة. هذه مجرد طريقة مختلفة للمقارنة بين تركيز النفعي على النتائج الجيدة وتركيز الملتزم بأخلاق الواجب على الوسيلة الصحيحة للحصول على النتائج. ففي الحين الذي يبدو فيه تدوير قضيب مسار العربدة لقتل شخص بدلاً من خمسة جيداً، فهو قد لا يكون صحيحاً (بسبب ما على ذلك الشخص المحدد فعله).¹³

سيحب هاش هذه القصة

تحب طومسون مقارنة موقف العربدة بقصة تتضمن جراحاً مع خمسة مرضى، كل منهم يموت بسبب فشل عضوي مختلف وبالإمكان أن يتم إنقاذهم جميعاً من خلال عملية زرع للأعضاء. وبما أنه لا توجد أعضاء متوفرة بالأساليب الطبيعية، تراود الجراح فكرة تخدير أحد زملائه (من الذين هم بصحة جيدة) واستئصال أعضائه لاستخدامها في عملية الزرع.¹⁴ وبفعل ذلك، فإنه سيقوم بقتل زميله، ولكنه بذلك سينقذ مرضاه الخمسة. مع الاستثناء المحتمل لضهادات وجنون الدكتور هاش خاصتنا، فإن

القليل من الأشخاص سيؤيدون هذه الخطة المتطرفة (إذ كان سيرفضها الدكتور توماس واين Dr. Thomas Wayne، على روجه السلام، بكل تأكيد). أعتقد بأنك تستطيع رؤية ما أهدف للوصول إليه في هذا الموضوع (فمحبو باتمان شديدو الذكاء في النهاية)، ”ما هو الفرق بين المتحكم في كل من قضية العربية وقضية زرع الأعضاء الخاصة بالجراح؟“ ففي كلا الحالتين، بإمكان شخص ما أن يقف مكتوف الأيدي في كلا القضيتين، تاركاً خمسة أشخاص للموت، أو القيام بفعل من شأنه أن يقتل شخصاً واحداً مقابل إنقاذ خمسة أشخاص آخرين. إن طومسون، والعديد من الفلاسفة من بعدها، كافحوا للإجابة على هذه الأسئلة، دون أن يجدوا جواباً قاطعاً. فالعديد من الأشخاص سيوافقون على أن تدوير مقبض تغيير سير العربية له ما يبرره، وسيتفقون أيضاً على أن أفعال الجراح ليس لها ما يبررها، ولكننا نجد صعوبة شديدة في تحديد أسباب شعورنا حول كلا الأمرين، وصعوبة الأمر تشمل الفلاسفة أيضاً!.

الأسباب العشرة الأهم حول أن الباتمويل ليست بعربة . . .

كيف يمكن مقارنة وضع باتمان مع قصة العربية (أو قصة زراعة الأعضاء)؟ وما هي العوامل ذات الصلة بباتمان والجوكر والتي نراها مفقودة في كلا المعضلتين الفلسفتين الكلاسيكيتين؟ وما الذي يقوله رفض باتمان ”للقيام بفعل“ عنه؟.

أحد الفروق الواضحة بين قضيتي طومسون من جهة وقضية باتمان والجوكر من جهة أخرى، هو أنه في قضايا طومسون فإن الأشخاص الخمسة الذين سيموتون إذا لم يتغير مسار العربية، والشخص الذي سيقتل إذا ما تمّ تغيير المسار، يتم افتراض تساويهم من الناحية الأخلاقية. بعبارة أخرى، لا يوجد هنالك أي فرق أخلاقي بين أولئك الأشخاص من حيث الكيفية التي

ينبغي أن يُعاملوا فيها، وماهية حقوقهم، وهكذا دواليك. فجميع الأشخاص على المسارين في قضية العربة هم "بريئون" أخلاقياً، كما هو الحال مع المرضى وزميل الجراح في قضية زرع الأعضاء.

ولكن هل يشكّل ذلك فارقاً؟ تقدم طومسن العديد من التعديلات لتقترح بأن هنالك فارقاً. إذ ماذا لو كان الأشخاص الخمسة على الطريق الرئيسي قد انهاروا هناك في حالة من الثمالة في وقت مبكر من صباح ذلك اليوم، والشخص الموجود على المسار الآخر هو عامل صيانة سكك الحديد لذلك المسار؟ حيث لعامل الصيانة الحق في أن يكون هناك، على العكس من أولئك السكارى الخمسة. هل سيجعلنا ذلك أكثر ارتياحاً مع عملية تدوير مقبض تغيير المسار؟ وماذا لو كان المرضى الخمسة الذين هم بحاجة لعملية زرع أعضاء قد وصلوا الى حالتهم اليائسة بسبب إهمالهم لصحتهم، بينما كان زميل الطبيب مراعيّاً لصحته؟ في كلا الحالتين سيمكننا القول بأن الأشخاص الخمسة هم في محتهم بسبب خياراتهم (السيئة) الخاصة، وعليهم تحمّل مسؤولية عواقبها كاملة. وعلاوة على ذلك، فإن أرواحهم يجب أن لا تُنقذ على حساب الشخص الآخر والذي تحمّل مسؤولية نفسه وحياته جيداً في كلا الحالتين.

ولكن قضية الجوكر تمثّل العكس تماماً: حيث أنه يمثل الشخص الموجود على المسار الثاني للعربة أو على طاولة العمليات، وضحاياه (الأبرياء المفترضون) هم الأشخاص الخمسة الآخرون. لذا وباتباع المنطق أعلاه، سيكون لدينا قرينة تؤيد قتل الجوكر. فبعد كل ذلك، لماذا على ضحاياه أن يضحوا بأنفسهم ليقى هو على قيد الحياة، خصوصاً وهو يعيش حياته لأجل قتل الأبرياء؟

هذه القضية تختلف عن القضايا الفلسفية الأصلية، بطريقة أخرى تنطوي على اختلافات أخلاقية بين الطرفين. إذ على النقيض من قضايا

العربة وزرع الأعضاء، فإن الجوكر في الواقع يعرّض الآخرين للخطر. حيث بالنسبة لحالة العربة، سيكون الأمر كما لو كان الجوكر هو الشخص الذي ربط الأشخاص الخمسة على المسار الرئيسي، ثم وقف على المسار الآخر ليرى ما سيفعله باتمان! (نحن نتحدث عن لعبة شخص جبان!) إذ لو كنّا ميالين لقتل شخص من أجل إنقاذ خمسة، فإن ميلنا ذاك سيُعزز أكثر حتى من خلال معرفة أن أولئك الخمسة يتعرضون للخطر بسبب ذلك الشخص الواحد!

ويمكننا أن نقول بأن الشخص الواحد على المسار البديل لديه الحق في أن لا يتعرض للقتل، حتى لو كان لغرض إنقاذ خمسة أشخاص. وفي الحين الذي سيكون نبلاً منه أن يضحي، فإن أغلب الفلاسفة (بغض النظر عن النفعيين) سيرفضون تحميله مثل هذه المسؤولية. ويكون هذا الأمر أكثر وضوحاً في عملية زرع الأعضاء. حيث بإمكان الجراح التأكد بسؤال زميله فيما لو كان مستعداً لأن يتخلى عن أعضائه (وحياته) من أجل إنقاذ المرضى الخمسة، ولكن من الصعب علينا أن نقول له بأن عليه فعل ذلك. ومرة أخرى، فإن الاختلاف مع الجوكر هو بأنه يعرض الآخرين للخطر، وسيكون من غير المعقول - بعبارة أخرى، ليس من المعقول مع شخص مثل الجوكر - أن يقول: "بالطبع سأقوم بقتل أولئك الأشخاص، ولكنني لن أتعرض للقتل لأجل إنقاذهم!".

وتقديراً لدور الجوكر في صناعة هذا الموقف فإن ذلك يسلط الضوء على المسؤولية التي يواجهها باتمان. فإذا ما قلنا لصاحب القناع الجلدي، كما فعل الجميع، "إذا لم تقم بقتل الجوكر، فإن دماء جميع ضحاياه في المستقبل ستلطخ يديك." فبإمكانه أن يجيب على ذلك بشكل جيد للغاية قائلاً، "لا، فالقتل الذي ارتكبه الجوكر هو مسؤوليته ومسؤوليته لوحده. أما أنا فساكون مسؤولاً عن القتل فقط إذا ما قمت أنا به." ¹⁵ وهذه هي طريقة أخرى للنظر

الى القواعد التي يكون الحكم فيها مركزياً ومستقلاً بالنسبة للشخص ذاته والتي ناقشناها سابقاً: فالمتحكم في مثال العربية بإمكانه القول بكل سهولة: "أنا لم أتسبب في جعل هذه العربية تُعرض حياة أولئك الخمسة للخطر، ولكنني سأتسبب بموت شخص فيما لو قمت بتغيير مسارها".¹⁶

"أنا بحاجة الى محام! أوه، هذا صحيح، لقد قمت بقتله أيضاً!"

ما فعله الجراح في قضية زرع الأعضاء غير شرعي البتة. ومع ذلك فيما لو دُور المتحكم مقبض تغيير مسار العربية عارفاً بأنها ستسبب بمقتل شخص واحد لإنقاذ خمسة آخرين، فشرعية فعلته هذه غير واضحة تماماً. بالطبع، فإن الجوانب الشرعية في قضية باتمان/ الجوكر تبدو أكثر بساطة. ولكن دعونا نفترض (في الوقت الحالي) بأن لباتمان نفس الحقوق الشرعية والقانونية التي لضابط شرطة. فتحت أي الظروف سيسمح لضابط الشرطة بقتل الجوكر (بغض النظر عن حالات الدفاع عن النفس)؟ سيكون ذلك عندما يوشك الجوكر على قتل شخص ما، حينها سيكون لضابط الشرطة مسوغ قانوني لإطلاق النار عليه وقتله (فيما لو كان إيقافه مستحيلاً والطريقة الوحيدة هي بقتله). لذا لو قديم باتمان أثناء محاولة الجوكر لقتل شخص بريء ما، والطريقة الوحيدة لإنقاذ ذلك الشخص هي بقتل الجوكر، فسيكون لباتمان مسوغ لفعل ذلك. (على الرغم من علمي بأن باتمان سيستطيع إيجاد طريقة أخرى لإنقاذ الضحية دون الاضطرار لقتل الجوكر).

لنجعل القضية الآن أكثر صرامة قليلاً ولنقل بأن باتمان قد وجد الجوكر بعد قتله لشخص ما مباشرة. لن يستطع باتمان (أو ضابط الشرطة) فعل أي شيء لإنقاذ الضحية، ولكنه لو قتل الجوكر، فسيقوم بإنقاذ أشخاص مجهولين آخرين ربما سيقتلهم الجوكر لاحقاً، ربما؟

حسناً، لنكن منصفين الآن، فنحن لا نعلم إذا ما كان الجوكر سيقتل أشخاصاً آخرين مستقبلاً. يقول الجوكر: «هذه هي المرة الأخيرة التي سأفعل بها ذلك، باتي Batty، أنا أعدك!» بالتأكيد فأن الجوكر قد أدعى سابقاً بأنه سيتوب عن قتله للآخرين؛ ربما ستكون هذه المرة حقيقية. أو ربما سيموت الجوكر بمسببات طبيعية غداً، فلن يستطيع القتل بعدها أبداً. الحقيقة هي أننا لا يمكننا أن نكون متأكدين من انه سيرتكب جرائم قتل مرة أخرى، لذا فلا يمكننا التأكد أبداً بأننا سننقذ أرواحاً من خلال سلبه روحه.

ونظراً لهذه الحقيقة، فنحن كما لو كنا قد غيرنا مثال العربة ليصبح بهذا الشكل: هناك ضباب كثيف يحجب الرؤية عن الطريق الرئيسي، ولكننا نستطيع رؤية الشخص الوحيد الواقف على المسار الثاني. نحن لا نعلم فيما لو كان هناك أي شخص في خطر على المسار الرئيسي، ولكننا نعلم أن في بعض الأحيان يتواجد أشخاص هناك. ما الذي سنفعله حينها؟ أو، بتعديل حالة زرع الأعضاء، لا يمتلك الجراح أي مرضى بحاجة الى نقل أعضاء في الوقت الحالي، ولكنه يخمن بأن غداً سيكون هناك بعض منهم، في الوقت الذي سيكون فيه زميله السليم في إجازة من العمل. هل لا يزال عليه أن يضحي بزميله اليوم؟

أنا أعتقد بأن لا أحد فينا سيكون مرتاحاً، بكلا الحالتين، لاختيار قتل شخص واحد من أجل تلافي احتمالية مقتل الآخرين. فأن تحاسب الجوكر على مسؤوليته في مقتل أولئك الأشخاص هو شيء، وهذا قد يؤدي به الى أن يحكم بالإعدام (إذا لم يتم الدفاع عنه باعتباره مجنوناً)، وتخميننا بأنه سيقوم بقتل أناس آخرين في المستقبل هو شيء آخر تماماً. يتبع الجوكر نمطاً متوقعاً بالفعل، وهذا أمر مسلم به، وربما سيقوم حتى بالتصريح بأنه سيقتل أشخاصاً أكثر في المستقبل. فماذا لو كان لدينا جميع الأسباب - كما هو الحال مع باتمان - لتصديقه؟ هل بإمكاننا التعامل معه قبل قتله للمزيد؟

تم وصف معاقبة الناس قبل ارتكابهم للجرائم من قبل الفلاسفة بالعقاب المسبق، وهذا المفهوم قد أصبح شائعاً بفضل القصة القصيرة لفيليب ك. ديك Philip K. Dick عام 1956 "تقرير الأقلية" والذي تحول الى فيلم حديث من إخراج ستيفن سبيلبيرغ Steven Spielberg وبطولة توم كروز.¹⁷

ولأن قتل باتمان للجوكر لن يكون عقاباً بشكل حرفي، طالما أنه لا يمتلك مثل هذه الصلاحية لتنفيذ حكم كهذا، فلا يزال بوسعنا أن نتأمل فيما لو كان العقاب المسبق مقبولا أخلاقياً أم لا، وخصوصاً في هذه المسألة. قد يقول بعض أنه لو كان الجوكر قد عزم على القتل مرة أخرى، وأعطى تصريحات واضحة في هذا الشأن، فلن تكون هنالك صعوبة أخلاقية بخصوص معاقبته (ومع ذلك، فقد تكون هنالك مشكلة إستعلامية أو معرفية، إذ لماذا يعترف بجريمته المستقبلية لو كان يعلم بأنه قد يُقتل قبل أن تُتاح له فرصة لارتكابها؟)، ولكن آخرون قد يقولون حتى لو قال بأنه سيقُتل مجدداً، فإنه لا يزال يمتلك الفرصة لتغيير رأيه هذا، وهو تقليل من احترام تلك القابلية على اتخاذ الخيارات الأخلاقية لذا لا يمكننا أن نعاقب الناس مسبقاً.¹⁸ وقد يضغط العقاب المسبق على زر الرعب داخل كل واحد منا، ولكن في عصر يمكن أن يموت فيه العديد من الأشخاص بسهولة على أيدي القليل من الأشخاص، فربما نؤشك على مواجهة هذه الإشكالية في المستقبل القريب.¹⁹

إذاً فالقضية قد أغلقت - صحيح؟

لذا الآن، نحن جميعاً مقتنعون بأن باتمان قد كان محقاً في عدم قتله للجوكر.

ماذا؟ لا، نحن لسنا كذلك؟

حسناً، بالطبع لستم كذلك. أنظر لها بهذا الشكل - أنا أعتبر نفسي ملتزم بالأخلاق الواجبة بشكل متشدد، ولكن حتى مع ذلك فعلياً أن أعترف بأنه ربما كان على باتمان أن يقتل الجوكر. (أتمنى أن لا يقرأ أحد من زملائي في المجتمع الكانطي لأمرىكا الشمالية هذا - لأنني سأعرض للضرب - وأعمل في مخبز للمعجنات لعام كامل!) فعلى الرغم من أننا جميعاً، أقصد معتنقي الأخلاق الواجبة، نقول بأن الصواب دائماً يأتي قبل الخير، فإن قدراً كبيراً من الخير كان ليحدث لو تم إنهاء حياة الجوكر قبل سنوات. قارن هذه الإشكالية مع النقاشات الأخيرة التي تخص التعذيب، إذ حتى أولئك الذين يعارضون بكل حماسة اللجوء إلى التعذيب تحت أي ظرف من الظروف ستكون لديهم بعض التحفظات عندما يتعلق الأمر بتعرض أرواح الآلاف أو الملايين للخطر.

لحسن الحظ، فإن الأدب - وبقولي الأدب فأنا أعني «القصص المصورة» يوفر لنا طريقة لمناقشة إشكاليات مثل هذه من دون الحاجة لاختبارها. حيث ليس علينا أن نحتال على الناس لندفعهم إلى الوقوف في مسار عربة، ولا أن نمتلك باتمان والجوكر في الحياة الواقعية. حيث أن هذه هي ما عليه التجارب الفكرية، حيث أنها تسمح لنا باللعب ضمن سيناريوهات خيالية حول ما على البطل فعله من عدم فعله. ولسوء الحظ بالنسبة لباتمان، فإن الجوكر ليس خيالياً بالنسبة له، وأنا متأكد بأنه سيبقى يعاني بسبب هذه الإشكالية لعدة سنوات أخرى.

1- قتل جيسون تود في Death in The Family 1988، وقتلت الملازم إيسين في No Man's Land المجلد الخامس 2001، وأصيبت باربرا غوردن بعار ناربي في The Killing Joke 1988، أما أكثر أتباع الجوكر فقد قتلوا في Batman العدد #663 في أبريل 2007.

2- "الشر" في كتاب جويل فاينبيرغ، مشاكل في جذور القانون (Oxford: Oxford Univ. Press 2003)، الصفحات 125-192.

3- الجوكر هو مثال للدفاع عن المتهم بحجة الجنون، لذا فهو لا يتلقى عقوبة الإعدام أبداً.

4- بعد مقتل الملازم إيسين في No Man's Land على سبيل المثال.

5- العدد #614 من Batman في يوليو 2003، ضمن المجلد الثاني من Hush 2003. لم أتمكن للأسف من توفير مكان لإقتباس حوار باتمان الذاتي في هذا الفصل حول هذه المسألة كما أحب، ولكنها كتابة رائعة يستحق جيف لويب الثناء عليها.

6- راجع Hush في العدد #74 المعنون Gotham Knight في أبريل 2006، وجيسون تود في Batman العدد #650 أبريل 2006، وجين بول فالي في Robin العدد #7 يوليو 2006.

7- يمكن تتبع النفعية وصولاً لكتاب جيرمي بينثام مبادئ الأخلاقيات والتشريعات (1781; Prometheus Books edition; 1988 Buffalo NY).

8- يُعد إعدام وندرومن الأخير لماكس لورد في قصة Sacrifice، لإنهاء سيطرته النفسية على سوبرمان، إستثناء هاماً وقد تمت معالجة الأمر بنفس الطريقة في قصص لاحقة. (لاحظ Wonder Woman العدد #219 سبتمبر 2005، والمجموع أيضاً في Superman: Sacrifice 2006).

9- راجع الملاحظة 6 من المصادر.

10- في مشهد مع جيسون تود، يقول مفسراً: "كل ما أردته دائماً هو قتله، أريده ميتاً - ربما أكثر من أي شيء أردته أبداً." في The Man Who Laughed 2005، حيث

يحمل الجوكر معلقاً إياه فوق خزان مدينة غوثام المسموم، ”هذه المياه مليئة بسم كافي لقتل الآلاف. يبدو من السهل تركه يسقط فيه فقط. الكثيرون قد فقدوا حياتهم بسببه. . . لكنني لا أستطيع فعل ذلك.“

11- أكثر أخلاقي الواجب شهرة هو إيمانويل كانط، والذي كان عمله الرئيسي هو كتاب أسس غيببات الأخلاق (1785; Hackett Publishing Indianapolis IN: 1993 Company).

12- للاطلاع على معالجة فوت الاصلية، راجع مقالاتها ”مشكلة الإجهاض وعقيدة التأثير المزدوج“ في كتابها ”الفضائل والردائل“ (Oxford: Clarendon Press) (2002) الصفحات 19-32. وبالنسبة لنسخة ثومبسون، لاحظ ”مشكلة العربية“، أعيد طبعها في كتاب ”الحقوق، التعويضات، والمخاطر“ الذي حرره وليام بارنت (Cambridge: Harvard Univ. Press) (1986) الصفحات 94-116؛ وكذلك الفصل السابع من ”مملكة الحقوق“ (Cambridge: Harvard Univ. Press) (1990).

13- للحصول على معاملة ممتازة لأجل وكيل مقرب نسبياً، راجع كتاب سامويل شيفلر ”رفض التبعية“، النسخة المنقحة (Oxford: Oxford Univ. Press) (1990).

14- دون الاهتمام بالصعوبات الهائلة لكون أحد زملائه سيكون مانحاً لخمسة مرضى!
15- في العدد #614 من Batman يفكر، ”لا أستطيع، لن أستطيع إلقاء المسؤولية على الجوكر.“ لكنه يضيف بعدها، ”إلا أنه كان ينبغي أن أقتله منذ زمن بعيد.“ أخيراً، وبعد التفكير في أن الجوكر قد يقتل شخصاً مقرباً منه مرة أخرى، ”سيموت الليلة بيديّ هاتين.“ ليسرح بخياله بعدد من السيناريوهات الممكنة لقتله. ليجعلك تتساءل ما الذي كان سيحصل لولا وجود جيم هناك لمنعه. . .

16- هذا يستحضر أيضاً التمييز الأخلاقي المثير للجدل بين التسبب في الوفاة من خلال اتخاذ موقف فاعل والتسبب في الوفاة من خلال عدم اتخاذ موقف فاعل. يعتبر مجرد السماح بالموت أسهل من التسبب المباشر في الموت، ضع في اعتبارك خيار نايتوينغ بعدم منع تارانتولا من قتل عدوه اللدود بلوكباستر، الذي صادف أيضاً أنه وعد بقتل المزيد من الأشخاص في المستقبل (Nightwing العدد #93، يوليو 2004). ومن المثير

للاهتمام أن ديك قام بالفعل بقتل الجوكر في أحد المناسبات، على الرغم من أن باتمان قد أعاد إحياءه لاحقاً (Joker: Last Laugh العدد # 6، يناير 2002).

17 - يمكنك العثور على القصة القصيرة في مجموعة فيليب ك. ديك "تقرير الأقلية" (2002 New York: Citadel). إن توم كروز، المعروف بشكل أساسي بكونه متزوجاً من الممثلة كاتي هولمز من Batman Begins في حال عدم معرفتك به (لم يفعل شيئاً آخر يستحق الذكر، على حد علمي).

18 - يجادل كريستوفر نيو من أجل المكافأة في "الوقت والعقاب"، التحليل 52، الرقم. 1 (1992): الصفحات 35 - 40، ويجادل ساؤول سميلانسكي ضده (نيو) في "حان الوقت والعقاب"، تحليل 54، الرقم. 1 (1994): الصفحات 50 - 53. ثم إستجابة جديدة لسميلانسكي في "أوقات العقاب: الرد على سميلانسكي"، تحليل 55 الرقم. 1 (1995): الصفحات 60 - 62.

19 - واجهت وندرو من هذا السؤال بالفعل فيما يتعلق بأكس لورد، الذي وعد بإجباره سوبرمان على القتل، وتوصلت إلى استنتاج معاكس. (يبدو أنها كانت قد قرأت أوراق نيو). ولكن من المفارقات أنها هي التي منعت باتمان من قتل أليكس لوثر (الذي كاد أن يقتل نايتوينغ) في العدد #7 من Infinite Crisis (يونيو 2006). وما يثير السخرية أكثر، من الذي قتل أليكس في نهاية المطاف في نهاية نفس القضية؟ إنه الجوكر.

هل كان من الصائب صنع روبن؟

بقلم: جيمس دي جيوفانا

ما الذي ينبغي على باتمان فعله؟

باتمان وروبين، فارس الظلام the Dark Knight والفتى الأعجوبة the Boy Wonder، ذلك الثنائي الفعّال، من الذي يمكن أن يبدو طبيعياً أكثر من ذلك؟ ولكن بغض النظر عن مدى ظهوره المألوف والمناسب للحبكة، فإنك قد تتساءل: هل هو قرار صائب حقاً بالنسبة لباتمان أن يدرّب طفلاً صغيراً ليصبح روبن لغرض إرساله لقتال مجرمين خطرين؟ ولأجل الإجابة على هذا السؤال، علينا أن نتنقل الى فلسفة الأخلاق، وهو فرع الفلسفة الذي يهتم بأسئلة مثل "ماذا عليّ أن أفعل؟ وكيف عليّ أن أعيش حياتي؟ وأي نوع من الأشخاص عليّ أن أكون؟".

لننقل، على سبيل المثال، بأنك تمتلك فكراً متفوقاً، وبراعة غير مسبوقة في فنون الدفاع عن النفس، وذاكرة مؤرقة تعيد عليك مشاهد مقتل والديك من قبل المجرمين. ربما حينها ستجيب عن تلك الأسئلة الأخلاقية بهذه الطريقة: "ربما عليّ أن أرثدي قناعاً وعباءة وأتخفى في ظلمة الليل لأجل

إيقاف المجرمين مانعاً إياهم من مزاولتهم أعمالهم الشنيعة بالقوة“، أو ربما ستجيب عن هذه الأسئلة بـ: ”عليّ أن أحصل على بعض العلاج النفسي. ينبغي أن أصبح شخصاً أقلّ هوساً وأكثر إنسانية. ينبغي أن أكون مربياً حنوناً“، (ولكن بعدها سيكتب أناس أقل بكثير قصصاً مصورة عنك).

ماذا عن هذا: أفترض بأنك وجدت طفلاً يتيماً يعيش في الشوارع، وأردت مساعدته. فما الذي عليك فعله؟ يبدو بأن الإجابة الأخلاقية على ذلك تتضمن تحويله إلى الخدمات الاجتماعية، وإيجاد منزل له، وإيجاد من يتبناه ويرعاه. ولكن ماذا عن إعطائه لباساً معيناً، وتدريبه على محاربة الجريمة، وتعريضه للخطر بحجة صقل وتحسين مهاراته وشخصيته؟ هذا هو بالضبط ما فعله باتمان مع روبن في مناسبتين ومع شخصيتين مختلفتين (وهما ديك غريسون Dick Grayson وجيسون تود Jason Todd)!. إن من الصعب التخيل بأن هذا القرار مقبول أخلاقياً بنفس قدر تحويله إلى إدارة المدينة، وما يتبعها. ومع ذلك، ومن خلال تتبع التاريخ، فإن العديد من الناس قد اتخذوا مساراً مشابهاً في تربية الأطفال. فالإسبارطين القدماء، وملوك أوروبا في العصور الوسطى، ومحاربو غينيا الجديدة، جميعهم قد عرضوا الأطفال الصغار إلى خطر مميت بحجة تحويلهم إلى بالغين أقوياء. في الحين الذي قام فيه ملوك أوروبا في القرون الوسطى بإلباس الأطفال عباءات ورموزاً فقط، ولكن لا يزال هنالك شيء يختلف عما حدث مع باتمان عما هو موجود في سلوك جميع أولئك الناس.¹

هل بإمكاننا تبرير هذا النوع من طرق تربية الأطفال؟ وهل بإمكاننا أن نعذر ميل باتمان لأخذ الأطفال والدفع بهم أمام العديد من المجرمين الذين يرتدون ملابس شبيهة بالمهرجين؟ تشكّل هذه القضايا جوهر المسائل الأخلاقية التي تتعلق بالتربية والتعليم المناسبتين لروبين، وهي تشكّل أيضاً أساس هذا الفصل.

يمكن تعريف الأخلاقيات بمحاولة العيش من خلال مجموعة من القواعد والواجبات، حيث أن من الضروري إتباع بعض هذه القواعد أو السير وفقاً لبعض تلك الواجبات بغض النظر عن العواقب، وذلك لأن الواجب بحد ذاته هو الأكثر أهمية بكل بساطة. نحن ندعو هذه الأخلاق بالواجبة deontological، وهذا المصطلح مشتق من الأصل اليوناني deon، ومعناه "الواجب duty". وأهم أخلاقيي الواجب هو إيمانويل كانط (1724 - 1804)، والذي أيد بشكل شهير بأن أهم الواجبات يجب أن تكون عالمية ومطلقة. وعبرة "مطلقة" تعني "من دون إستثناءات"، بعبارة أخرى، لا أستطيع اختيار واجب ومن ثم أفكر بعدها في حالات لا يمكن تطبيقه عليها، أو اختيار عدم تطبيقه في بعض الحالات المعينة. لذا، وعلى سبيل المثال، يقول كانط بأن هنالك واجبا أخلاقيا بعدم قول الأكاذيب. لنفترض بأن باتمان قد تم إمساكه من قبل الجوكر، وأراد الجوكر معرفة مكان روبن. بالتأكيد فإن بإمكان باتمان أن يرفض الإفصاح، أو أن يلتف على السؤال، ولكنه لا يستطيع الكذب على الجوكر والقول بأن روبن في موقع ما حيث يصنع باتمان فخاً للجوكر إلا إذا كان روبن هناك بالفعل، لأن ذلك من شأنه أن ينتهك واجب عدم قول الأكاذيب.²

وعبرة "عالمية" تعني بأن القاعدة يمكن تطبيقها على الجميع، بعبارة أخرى، علينا أن نسأل عن أي تصرف مقدّم، مثل: "ماذا لو فعل الجميع هذا؟" أو كما يقول كانط: "تصرف فقط وفقاً لهذا المبدأ (القاعدة التي ينبغي عليّ إتباعها) حيث يمكنك، في الوقت نفسه أن تخلق منه قانوناً عالمياً"³، حيث يجادل كانط بأنه إذا لم يستطيع مبدأك أن يكون "عالمياً" بهذه الطريقة، فهو ليس بأخلاقي، لأن كل شخص عليه أن يكون قادراً على العيش بنفس القواعد الأخلاقية التي تتخذها لنفسك، ولا يستطيع أي شخص مهما كان

أن يصنع استثناءات لنفسه.

لذا فلنأخذ جيسون تود (روبن الثاني) إنموذجاً، والذي قرر باتمان تدريبه بعد أن أكتشف بأنه كان يحاول سرقة عجلات سيارته.⁴ إذ لو أردنا أن نصبح ملتزمين بأخلاق الواجب الكانطية، فعلينا أن نسأل دائماً: "هل هذا يتفق مع القاعدة التي هي قاطعة (أي ليس لها أي استثناءات) وعالمية (أي تنطبق على الجميع)؟" من الممكن أن يكون مبدأ باتمان شيئاً كالتالي: "إذا رأيت يتيماً يحاول سرقة عجلات سيارتك، فعليك أن تضعه في زي متألق باللون الأحمر والأصفر وإرساله ليقاتل الرجل البطريق". ولكن من الصعب أن يكون هذا عالمياً، حيث كان كانط ليجادل بأن من غير الأخلاقي القيام بذلك.

ولكن نادراً ما تكون المبادئ بتلك الدقة، فبعد كل شيء، إذا أتبع الجميع مبدأ "كُن فيلسوفاً"، فإن العالم سيترنح باكياً بالتأكيد، ولكن سيبقى أن ترى تحول المرء إلى فيلسوف كأمر غير أخلاقي صعباً للغاية. ولكن مبدأ "كُن أي شيء يجعلك سعيداً" أو "أستفد من مواهبك" من شأنه أن يكون أكثر عمومية وأسهل كثيراً لكي يكون عالمياً. ربما نستطيع إعادة صياغة المبدأ الخاص بجيسون تود ليقراً بالشكل التالي: "أفعل ما تستطيع لمساعدة الأيتام"، هذا الشيء عالمي بالطبع، وهو يتناسب مع واجب كانط العام في مساعدة الآخرين. وبالطبع، إن مساعدة الأيتام لا تتضمن بالضرورة "إرسال الأيتام لقتال المجرمين المضطربين عقلياً بأزياء تناسب الهالوين". إذ في الحقيقة، إن من المرجح لنا أن نعتقد بأنه يجب أن تكون هنالك قاعدة عالمية لحماية الأطفال من التعرض إلى الأذى أثناء مساعدتهم. وبهذا المعنى، فإن واجب حماية الأطفال يضع قيوداً حول ما الذي عليك أن تفعله لمساعدتهم. وإذا قبلنا بهذا، فإن باتمان ليس بالكانطي الجيد، في ما يخص هذا الشأن على الأقل، لأنه قد عرض روبن للأذى.

بالإمكان تعريف الأخلاق باعتبارها عملية معرفة أي من أفعالنا بإمكانها أن تُنتج الناتج الأفضل، ومن ثم إتباع ذلك النهج من الأفعال. وتسمى هذه بالأخلاق العواقبية consequentialist ethics، لأنها تُعنى بعواقب أفعالنا بشكل أكبر من عنايتها بالصواب الأخلاقي المتأصل بالفعل ذاته.

فالنفعيون كجيريمي بينثام Jeremy Bentham (1748 – 1832) وجون ستيوارت ميل John Stuart Mill (1806 – 1873) يجادلون بأن الفعل سيكون أخلاقياً إذا ما كانت نتائجه ستؤدي الى أكبر قدر من المنفعة، أو الربح، أو تحقيق السعادة لأكثر قدر من الأشخاص.⁵ ففي معارضة لموقف متبعي أخلاق الواجب القائلين بـ “حماية الأطفال” أو على الأقل “عدم تعريض الأطفال لأذى جسيم”، فإن المنظور النفعي بالإمكان أن يستخدم من قبل باتمان لتبرير وضع روبن في الخطر إذا كان ذلك سيعزز من المنفعة العامة لمدينة غوثام. إذ لو كان تدريب الأطفال كروبين سيؤدي إلى خير أكبر لسكان غوثام يفوق تكاليف تكريس الوقت لأجلهم، وأكياس اللكم الخاصة بتدريبهم، وإصاباتهم، إذا فالنفعيين سيجدون فيه ما يبرره.

ولكن ماذا عن شخصيات روبن نفسها؟ فبعد كل شيء فقد تم قتل جيسون تود بتفجير الشهير من قبل الجوكر. أليست هنالك تضحيات باهظة الثمن يتم دفعها، حتى لو كان المقابل منها مساعدة الكثير من سكان غوثام؟ يبدو بأن النفعيين ذوي سمعة سيئة بتبريرهم معاملة الأشخاص كوسيلة لتحقيق أكبر قدر من المنفعة للأغلبية، حتى لو عنى إيذاء أولئك الأشخاص المستخدمين في تلك العملية. فعلى سبيل المثال، إذا كانت العواقب الكبيرة لإنقاذ مجموعة ما من شخص شرير تتطلب التضحية بشخص أو اثنين أو حتى مائة شخص خلال العملية، لذا، وعلى أسس نفعية، فإن ذلك سيبدو

صحيحاً أخلاقياً. وبذلك فنحن نستطيع الافتراض بأن باتمان ربما يتفق بأن وضع تابع يافع له أمام الخطر هو مبرر بالنظر لما يدره ذلك الأمر من منفعة بالنسبة للمجتمع.⁶ ولكننا نعلم بأن باتمان لن يضحي أبداً بحياة أي عابر سبيل بريء من أجل القبض على مجرم. لذا فهو يطبق هذا المنطق فقط على الأشخاص الذين يدرهم بنفسه، والذين تطوعوا أيضاً للقيام بهذا العمل. (ولكن مرة أخرى أيضاً، ماذا لو لم يريد الطفل ذلك؟) إذ لطالما أن تدريب أطفال كروبن بالإمكان أن يتم تفسيره بتفكير نفعي بالنسبة لباتمان، فإن هذا التفكير لن يذهب الى مكان بعيد.

الشخصية ومكافحة الجريمة

هل هناك طريقة أخرى لفهم قرار باتمان الأخلاقي، وعملية صنع هذا القرار؟ إن قراره في صناعة شخصيات روبن من أجل مكافحة الجريمة من الممكن أن ينبع من أخلاق فاضلة، والتي تؤكد على الصفات الشخصية العامة، وتدعى بالفضائل أو الامتيازات، بدلاً من الحكم على أفعال محددة (كما تفعل كل من النفعية والأخلاق الواجبة). فالأخلاق الفاضلة تأخذ الاختلافات أيضاً بنظر الاعتبار، مثل الاختلافات في الشخصية، والقواعد المختلفة التي يتصرف على أساسها الناس، والثقافات المختلفة حيث يعيشون. وفي الوقت الذي يسعى فيه باتمان للحفاظ على المبادئ الأخلاقية المجردة والتي يعتقد بأنها دوماً على حق، يبدو كذلك بأنه يفهم بأن اختلاف نوعيات الشخصيات تتطلب أنواعاً مختلفة من ردود الفعل. فليس من الضروري أن يكون كل شخص باتمان أو روبن. إذ أن نوعية الشخصية المحددة التي ستصبح بطلاً خارقاً لا تناسب الجميع، والمجتمع يتطلب أدواراً مختلفة لكل واحد منا.

قد يكون من الممكن تبرير منهج باتمان في العمل لأنه قد غرس في روبن شخصية محددة والتي، مع أنها لا تناسب الجميع، إلا أنها لا تزال مهمة

وضرورية في علاقتها مع الثقافة بصورتها الأوسع.⁷ وبعبارة أخرى، فإن لروبن دور يلعبه من شأنه أن يجعل العالم مكاناً أفضل، وربما يكون باتمان يحول جيسون تود الى شخص أفضل بتدريبه كروبن، حتى لو لم تكن حقيقة عالمية حول أن الرجال الذين يلبسون كالوطايط عليهم أن يحولوا الأيتام سارقي إطارات السيارات الى أسلحة حية تقاتل لأجل العدالة.

كان أفلاطون (428 - 348 ق.م) أول الفلاسفة الغربيين الذين كتبوا حول منهج أخلاقيات الفضيلة.⁸ وكان يؤمن بأن معايير أخلاقية مختلفة تنطبق على أشخاص مختلفين اعتماداً على أدوارهم في المجتمع. ومع ذلك، فإن القواعد الأخلاقية العالمية تنطبق على الجميع، لذا ففي جوانب محددة كان الجميع متساوياً أخلاقياً، بينما في المطالب الأخلاقية المحددة بالأدوار الاجتماعية المختلفة، فإن الواجبات الأخلاقية المطروحة تصبح متفاوتة.

غير أن ضوء أخلاقيات الفضيلة خفت وكاد أن يتلاشى في بداية العصر الحديث. ولكن في القرن العشرين، فإن فلاسفة، ومن ضمنهم مايكل سلوت Michael Slote، مارثا نوسبوم Martha Nussbaum، وألسدير ماكنتاير Alasdair MacIntyre، كانوا قد جادلوا بأن هنالك مشاكل في أخلاقيات النفعية وأخلاقيات الواجب تم تحجيمها من قبل أخلاق الفضيلة.⁹ فبإمكان النفعيين والملتزمين بأخلاق الواجب النقاش حول العمل الصحيح، ولكن يبدو بأنهم غير قادرين على القول كيف يمكن لشخص أن يكون قادراً على اتخاذ القرار الصحيح. ويطلق أحياناً على نظريات النفعيين والملتزمين بأخلاق الواجب بأخلاقيات "الفعل" أو "القاعدة"، حيث أنهم يتعاملون مع الأفعال الفردية والقواعد العالمية التي تنطبق عليها. وما لا يتعاملون معه، بشكل عام، هو التدريب اللازم لخلق نوع من شخصية من شأنها أن تمتلك نزعة التصرف بأخلاقية. تبدو أخلاق الواجب والنفعية بأنها تلمح إلى أن الفهم البسيط للنظرية الأخلاقية ينبغي أن يكون كافياً، أي شخص

يعلم أكثر، أو من المرجح أنه يعلم أكثر، سيتصرف بصورة أفضل. ولكن من الواضح أن بإمكاننا أن نعلم عن شيء بأنه خاطئ ولكننا سنستمر بممارسته، وذلك بسبب ضعف إرادتنا، مثلاً.

وعلاوة على ذلك، يبدو من الواضح بأن بعض الأشياء التي نعتقد بأنها جيدة هي ليست جيدة بالضرورة بالنسبة للجميع وفي كل الظروف. فعلى سبيل المثال، بإمكان ضباط الشرطة اعتقال الناس، ومصادرة المركبات، واستخدام قوة ممتدة في مواقف محددة. ولكننا لا نريد من المواطنين الاعتياديين أن يتصرفوا على هذا النحو. لذا فإن شيئاً ما حول الدور المحدد لضباط الشرطة يتطلب بعض القواعد الأخلاقية، حتى لو كان على كل الأدوار الاجتماعية في النهاية أن تلتزم ببعض القواعد الشاملة. فمن المهم أن يخضع ضباط الشرطة الى التدريب ليعلموا المزيد عن دورهم، وفقط بعد أن يتم تدريبهم بشكل صحيح، كما يأمل المرء، وينمّون الشخصية الملائمة، سيمكنهم حينها التصرف كضباط شرطة. وهذا هو السبب الذي جعل مؤسسي أخلاق الفضيلة، وأقصد كل من أفلاطون وأرسطو (384 - 322 ق.م)، أن يشددوا على بناء الشخصية، ويشيروا الى أهمية تدريب شخص ما ليصبح أخلاقياً، بدلاً من تفسير كيف يكون أخلاقياً ببساطة.

في كتاب "ما بعد الفضيلة After Virtue" يجادل آلان ماكنتاير بأن الشخصية يتم خلقها طوال مسيرة حياتنا من خلال الطريقة التي نتصرف بها. ويتفق ماكنتاير مع أفلاطون، الذي يعتقد بأننا نتصرف أولاً بسلوك أخلاقي، ومن ثم نتعلم بعدها الأخلاق. فباختصار، نحن لا نفسر الأخلاق للطفل، نحن ببساطة نقول "لا" فقط. وفقط عندما يتقدم الناس بالعمر وقد استوعبوا بالفعل السلوك الفاضل ويكونون عندها قادرين على فهم الأسباب المجردة للتصرف بشكل فاضل أو أخلاقي. في ذلك الوقت فقط، سينغمس في التفكير الفلسفي حول السلوك الأخلاقي والقيام بالتجارب

الفكرية الأخلاقية التي يعتبرها كل من العواقبيين والمليتزمين بأخلاق الواجب من صميم الأخلاق، والمقصود بها هو استنتاج القواعد العامة والتفكير بشكل فاعل حول النتائج.

في البداية، فإننا نتعلم الأخلاق من خلال التعرض الى التوبيخ عندما نسيئ التصرف، ونكافئ عندما نتصرف على نحو صحيح. وإذا ما أردنا أن نغرس فضائل معينة، كالشجاعة، فعلى أن نخبر الشخص الذي ننوي تنمية تلك الفضيلة فيه. فالشجاعة تأتي من مواجهة الخطر. لذا فإذا كان على الطفل أن يصبح شجاعاً، فلا بد من أن يواجه بعض المخاطر. فإذا رأينا بأن للطفل ميل طبيعي للشجاعة، فسيصبح مرشحاً جيداً للعب دور جندي أو ضابط شرطة في المستقبل. حينها نقوم نحن بمضاعفة تدريبه ليكون شجاعاً، مضيفين فضائل أخرى، مثل الرفق والاعتدال، لننقله ببطء حتى يتحول إلى الشخصية المطلوبة.

ولكن من دون الخبرة في السلوك الأخلاقي، والتجربة العامة للعالم، فهذا النوع من الفكر من المرجح أن يكون مضللاً، ومن دون الشخصية الأخلاقية التي تقوم بحمل تلك الأفكار الأخلاقية إلينا، فمن المحتمل أن يكون كل ذلك غير ذي فاعلية. فمن دون خلفية وتدريب على السلوك الجيد، فلا يمكن لأي قدر من المعرفة المجردة عن السلوك الجيد أن تكفي. حيث لا يهم كم التنظير الذي نتجه، فمن دون خلفية سلوكية، فإن ميلنا إلى التصرف بأنانية وبلا فضيلة سيتغلب على معرفتنا حول الطرق الأفضل لصياغة الذات.

هل بإمكان باتمان أن يدرب روبن على الفضيلة؟

حين يأخذ باتمان روبن تحت جناحيه، فهو لا يكتفي بشرح أخلاقيات الأبطال الخارقين له؛ فباتمان يدرب روبن ويعلمه، وعلمه من خلال الممارسة

والخبرة طُرُقَ البطل الخارق. ولكن لا تزال لدينا تساؤلات حول الصواب الأخلاقي لهذا: إذ قد يدرب أحد ما، على سبيل المثال، طفلاً ليصبح سارقاً، مانحاً إياه "فضائل" المجرم. حيث تتطلب الأخلاق الفاضلة بأن نقرر نوع التدريبات التي سنستخدمها، لماهية الشخصية الأخلاقية التي نريد خلقها. ومن أجل ذلك فعلينا، بشكل أشبه بالعواقبيين والملتزمين بأخلاق الواجب، اللجوء للقواعد العامة، وبشكل أشبه بالعواقبيين على وجه الخصوص، سنتساءل "أي نوع من الأشخاص نريد مستقبلاً أن يصبح الصبي اليافع الذي ندرّبه؟".

وعلى الرغم من أن الأخلاق الفاضلة تتطلب التدريب، فلا يمكن لأي شخص أن يحصل على التدريب المناسب لكل دور؛ فإذا ما أبدى شخص ما ميلاً طبيعياً لبعض الفضائل، فسيكون بالإمكان تدريبه عليها. ولكن لو أفترق شخص ما بشدة إلى بعض الفضائل، فسيكون من المستحيل تقريباً تدريب شخص مثل هذا ليأخذ دوراً يتطلب منه توفر تلك الفضائل. خذ جيسون تود كمثال؛ لجيسون فضيلة الشجاعة، ولكنه يمتلك أيضاً رذائل القسوة والتهور. وكانت تعتريه الفرحة بضرب الأشرار بعنف وقد أتخذ العديد من القرارات الطائشة والتي وضعت وباتمان في خطر. من حيث تدريب جيسون الأخلاقي، يبدو باتمان بأنه قد فشل في أمرين: فقد فشل في منحه فضيلة الاعتدال، وأيضاً في تغيير طابع شخصيته الميالة لجزئه اليافع.

لقد واجه باتمان عدداً من الصعوبات في تدريبه لجيسون تود. فأولاً، إن شخصية تود قد تشكّلت بالفعل من خلال ماضيه الإجرامي. وثانياً، كان تركيز باتمان منصباً دائماً على تدريبه على القتال والشجاعة وسرعة البديهة. ببساطة، لم يكن مستعداً لتدريب روبن على اللطف والاعتدال في الشجاعة. وربما كنتيجة لتلك الإخفاقات، سارع جيسون للدخول في معركة مع الجوكر وقتل خلالها، لتلازم تلك المأساة باتمان منذ ذلك الحين (حتى بعد القيام الأخير لجيسون).

في بعض الأحيان يفشل الأبطال:

ولكن كيف كان بالإمكان إنقاذ روبن؟ ففي النهاية، قد تتوه منا الشخصية الأخلاقية مهما كانت نوايانا أو نوايا معلمينا جيدة. ومع ذلك فالفضيلة تستحق السعي لأجلها دائماً؛ فلو لم يكن باتمان قد اتخذ قراراً فاضلاً بتدريبه المكثف لنفسه، لم يكن ليصبح باتمان أبداً.¹⁰ في حين أن قواعد الملتزمين بأخلاق الواجب والعواقبيين تركز على النتائج التي بإمكانها أن تساعدنا على اتخاذ خيارات أخلاقية، فإنهم يجعلونها تبدو كما لو كانت الأخلاقية تعني ببساطة مسألة اتخاذ خيارات صحيحة ببساطة. في بعض الأحيان، يعترف معتنقي الأخلاق الفاضلة، بأن أفضل النوايا غير قادرة على الوصول لنتائج أخلاقية جيدة بسبب القيود العديدة خلال تطور الشخصية. وكما أكتشف جيسون تود، فالفشل أحياناً لا يعدو كونه حقيقة من حقائق الحياة الأخلاقية. وربما كان جيسون تود ببساطة غير مناسب لدور البطل الخارق، ويفتقر إلى النزعة أو الميل الطبيعي لذلك، (حيث أصبح بعد قيامه من الموت ما هو مضاد للبطل بدرجة أكبر بالفعل، مختاراً أن يقوم بقتل المجرمين). وفي تلك الحالة، كان لزاماً على باتمان أن يضعه في دور آخر، وقد حدث ذلك بالفعل، حيث توقف في نهاية المطاف عن تدريب جيسون كبطل خارق في وقت متأخر من مسيرته (ولكن كان الوقت متأخراً جداً حينها لذلك). وربما كان جيسون تود ببساطة بحاجة إلى نوع آخر من التدريب لم يكن باستطاعة باتمان أن يوفره له.

سنستطيع الآن العودة إلى السؤال الذي طرحناه في بداية هذا الفصل وهو، هل كان قرار باتمان بتدريب روبن جائزاً أخلاقياً؟ أياً كان المنظور الأخلاقي الذي ستستند عليه للإجابة، فما يبدو واضحاً هو، في سياق هذه المسألة، أن باتمان ملتزم رديء بأخلاق الواجب، وعواقبي جيد، وبلا ريب، فهو نوعاً ما يعتبر من أخلاقيي الفضيلة. ومن دون أن نضطر لنكون أعظم المحققين (أو الفلاسفة) في العالم، سيكون علينا ترك هذا الأمر عند هذا الحد!

- 1- راجع كتاب باربرا غرينليف "الأطفال خلال العصور: تاريخ الطفولة" (New York: McGraw - Hill, 1978).
- 2- راجع كتاب كانط "أسس غيبيات الأخلاق" (1785)، مترجم إلى الإنكليزية من قبل جيمس و. إيلنغتون (Indianapolis: Hackett Publishing Co, 1993). يقدم كانط نفس هذا المثال تقريباً في مقالته "حول الحق المزعوم للكذب من المخاوف الإنسانية" (1799). حيث يقول بأنك لا يمكنك الكذب على قاتل يسألك عن موقع ضحيته المستهدفة (والتي تختبئ في منزلك). (هذه المقالة موجودة ضمن كتاب أسس غيبيات الأخلاق).
- 3- كانط، أسس غيبيات الأخلاق، الصفحة 421.
- 4- سنركز على جيسون بسبب كونه لص سابق (على الأقل في الفترة التي تبعت سلسلة Crisis on Infinite Earths)، وبسبب نهايته المأساوي في A Death in the Family (1988).
- 5- جيرمي بينثام، "مبادئ الأخلاق والتشريع" (Buffalo NY: Prometheus Books, 1988)؛ جون ستيوارت ميل، "النفعية" (1863) (Indianapolis: Hackett Publishing Company, 2002).
- 6- للاطلاع على حجج النفعية التي تدافع عن استخدام الأشخاص كوسائل لغايات مختلفة، راجع كتاب بيتر سينغر "الأخلاق العملية" (Cambridge: Cambridge Univ. Press, 1993). يجادل كانط بشدة ضد هذا الموقف، مطالباً بعدم استخدام الأشخاص مطلقاً كوسيلة لتحقيق غاية، دون اعتبار لغاياتهم (أسس غيبيات الأخلاق، الصفحة 429).
- 7- أحد شخصيات القرن العشرين الرائدة لأخلاق الفضيلة هو ألسدير ماكتاير، والذي، في مجلده الرئيسي "ما بعد الفضيلة" (Notre Dame IN: Notre Dame Press, 1984)، عرّف "الشخصية" بأنها اندماج الدور مع الهوية الذاتية (الصفحة 28). بعبارة أخرى، في الشخصية لدينا ما يفعله شخص آخر، والتي يمكن أن تكون وظيفته أو مهنته أو واجبه، متبوعة بميوله ورغباته ومواقفه الأساسية مجتمعةً لتجعله كلياً. يلاحظ

ماكتاير أن الكلمة اليونانية التي تشكل أساس "الأخلاق" والكلمة اللاتينية التي تشكل أساس "الفضيلة"، تُترجم تقريبًا بـ "التعلق بالشخصية" (الصفحة 38).

8- راجع كتاب الجمهورية لأفلاطون، ترجمة ج. غراب (Indianapolis: Hackett 1992). غالبًا ما يتم اعتبار كتابات الفيلسوف الصيني كونفوشيوس (551 - 479 قبل الميلاد)، التي سبقت كتابات أفلاطون، ضمن عالم أخلاقيات الفضيلة. كتب هوميروس (القرن السابع قبل الميلاد) أيضًا أعمالًا أسهمت في التقاليد أخلاق الفضيلة، ولكن بصفته شاعرًا، وليس بشكل كتابات فلسفية مدافعة عن مكانة أخلاقيات الفضيلة.

9- كتاب ما بعد الفضيلة لماكتاير هو محاولة مستمرة لنقد أخلاقيات العالم الحديث. أما كتاب مارثا نوسباوم "هشاشة الخير" (Cambridge: Cambridge Univ. Press 1986) فهو أقل انفعالية ويحاول تحديد كيف يمكن أن تبدو أخلاق الفضيلة التي نحترم هشاشة الإنسان. أما كتاب مايكل سلوت "من الأخلاق إلى الفضيلة" (1992 Oxford: Oxford Univ. Press) فيحاول إعادة تلخيص وتبرير الحركة مرة أخرى نحو التفكير في الفضائل في الفكر الأخلاقي للقرن العشرين.

10- راجع الفصل الذي كتبه كل من أنانث وديكسون في هذا الكتاب لمعرفة المزيد عن أخلاقيات القرار لتصبح باتمان.

مكتبة
t.me/t_pdf

كراهية باتمان الفاضلة

بقلم: ستيفن كيرسبندر

باتمان يكره..

لنواجه ذلك؛ يكره باتمان المجرمين. ففي عودة فارس الظلام *The Dark Knight Returns* (1986)، على سبيل المثال، كان في موقع يسمح له بقتل متحول قوي وضخم، وهو عضو في عصابة من الشباب القتلة والذين يشكلون تهديداً على مدينة غوثام. ولكن بدلاً من قتله فقط، قرر باتمان قتال ذلك الضخم من أجل إزالة أي شك في نفسه حول ما إذا كان يستطيع هزيمته. وعلى الرغم من كسره لأنف ذلك الضخم، فقد خسر باتمان المعركة. وبعد تعافيه من جراحه، أصبر باتمان على قتاله مرة أخرى. هذه المرة، قام باتمان بتحطيمه، متجاهلاً ضميره. في هذه القضية (وقضايا أخرى)، يبدو بأن ارتياحاً فورياً يصيب باتمان جراء الهيمنة على الأشرار وتحطيمهم، على الرغم من عدم ظهور مظاهر المتعة الصريحة أثناء ذلك.

ما الذي يمكنه أن يفسر هذا الموقف؟ حسناً، إن باتمان يعاني من كوابيس وذكريات معذبة وهو يراقب والديه يقتلان دون حول ولا قوة منه (مثلاً، في

فلم العدالة العمياء Blind Justice عام 1992). وأيضاً، بغض النظر عن كبير خدمه، ألفريد، فهو يعيش حياة منعزلة. على الرغم من عمله بشكل جيد مع المفوض غوردن، وروبن بشخصياته المتعددة، والمرأة القطة، وآخرين، ولكنه يبدو أنه يتجنب الانخراط في أي نشاط لا يتعلق بالتركيز على مكافحة الجريمة. وعلى الرغم من المغازلات والمداعبات المؤقتة مع المرأة القطة خصوصاً (أحياناً مرتديان بدليتهما وأحياناً أخرى دون تنكر)، فهو لم يؤسس حياةً معها. تفسر كراهية باتمان للأشرار جزئياً السبب الذي يدفعه للمخاطرة بفرصة في إنشاء علاقات عاطفية مع العديد من النساء الجميلات في حياته. فعلى سبيل المثال، لم تؤدِّ علاقاته بجولي ماديسون Julie Madison، فيكي فال Vicki Vale، وفيسبر فيرشلد Vesper Fairchild جميعها إلى الزواج أو إنجاب الأطفال، أو الاستقرار حتى. وكنتيجة لذلك، يبدو بأن حياته، رغم قيمتها للآخرين، لكنها حزينة وتغلب عليها الوحدة.

الرديلة والكراهية

بالحكم على ما إذا كان الشخص جيداً أم سيئاً، فبإمكاننا أن نستخدم أفكار الفضيلة والرديلة، والتي تشكل جزءاً أساسياً من الفلسفة الأخلاقية المعروفة بأخلاقيات الفضيلة. تهتم أخلاق الفضيلة بأي نوع من الأشخاص على الفرد أن يكونه، وهي تختلف عن مدارس الأخلاق الأخرى والتي تركز على كيف على الشخص أن يتصرف (أخلاق الواجب مثلاً) وكيف يتم تقييم النتائج المترتبة على أي تصرف (النفعية مثلاً).

طرح الفيلسوف أرسطو (384-322 ق.م) النسخة الأكثر شهرة من الأخلاق الفاضلة. 1 برأيه، فإن الأخلاق الفاضلة هي الصفات الشخصية الأنسب للفرد لكي تجعله صالحاً، وبالتالي السماح له باتخاذ القرارات الصائبة. فكر بأي فضيلة كنقطة تتوسط بين النهايتين المتطرفتين لأفعالنا ولردود

أفعالنا. على سبيل المثال، في الحالة التي يكون فيها شخص على وشك أن يُجند من أجل القتال في حرب ما، فالشخص الذي يمتلك فضيلة الشجاعة لن يذهب وهو هائج (التطرف نحو الكثير) أو يهرب مثل الجبناء (التطرف نحو القليل)، ولكنه بدلاً عن هذا وذاك، سيقف بحزم ويقاوم (الوسط بين النقيضين). هنالك الكثير من الفضائل الأخرى، ومن ضمنها الحكمة والعدل وضبط النفس والود والرحمة والكرم والصبر على سبيل المثال لا الحصر. يميل الأشخاص الفاضلون إلى فعل الأشياء بطريقة عقلانية ومناسبة وصحيحة والتي تجعلهم يزدهرون وفي الوقت نفسه يكونون قد قاموا بما هو مطلوب أخلاقياً.

لقد تم انتقاد أخلاق الفضيلة لجملة من الأسباب. فأولاً، يستطيع شخص ما أن يجادل بكونها - أي أخلاق الفضيلة - مبدأ، أو موقفاً دائرياً وذلك لكونها تعرف "الفضيلة" بأنها الميل لفعل الأشياء الجيدة بينما في الوقت ذاته يتم تعريف "الأشياء الجيدة" بكونها الأفعال التي يميل الفاضلون لفعلها! ثانياً، تم انتقاد أخلاق الفضيلة بكونها غير عملية لأنها لا تقدم أي إرشادات عندما تتصارع فضيلتان أو أكثر. فعلى سبيل المثال، للعدالة والرحمة الميل لتتصارع مع بعضهما البعض على أساس منتظم عندما يحاول الناس اتخاذ قرارات أخلاقية حول عقوبة مناسبة لجريمة ما. فالقاضي الذي يدرس إعطاء عقوبة طويلة بالسجن إلى تائب بنوايا غامضة لا يمكن أن يكون عادلاً ورحيماً في ذات الوقت، وبذلك فإن أخلاق الفضيلة لا تجربنا سوى القليل عما علينا أن نفعل (إنه لغز!).

ومع ذلك، من غير الواضح إن كانت أي من تلك الانتقادات قد نجحت. فالفضيلة لا تحتاج لتعريفها بأنها الميل إلى فعل الأشياء الجيدة؛ ولكن بدلاً عن ذلك، فبالإمكان تعريف الفضيلة بأنها محبة ما هو جيد وكرهية ما هو سيء. وحتى لو كانت الفضيلة غير مفيدة في توجيه أفعالنا، فإنها تبقى

مفيدة في قضايا أخرى. فهي مفيدة مثلاً في مساعدة شخص لتقرر معرفة ما لو كانت هي الشخص الذي تطمح في أن تكونه أم لا. وعلى الرغم من هذه الاختلافات في الرأي، فإن أخلاق الفضيلة تصطف جنباً إلى جنب مع كل من أخلاق الواجب والنفعية كواحدة من النظم الأخلاقية الرئيسية والتي قام الفلاسفة باستخدامها لتقييم وتسويغ اتخاذ القرارات الأخلاقية، وهي أيضاً النظام الذي سنقوم باستخدامه لتحليل كراهية باتمان.²

هل باتمان فاضل، أم أنه يفعل أشياء فاضلة؟

هنالك نظريتان شائعتان حول ما الذي يجعل الشخص فاضلاً (أو شريراً). وفقاً لأرسطو، فالأشخاص هم مبدئياً فاضلون. حيث يعتبر الشخص فاضلاً عند ميله لفعل الشيء الصحيح، وذلك الفعل يكون فاضلاً فقط لو كان من نوعية الأشياء التي يقوم بها الشخص الفاضل. ولندعو هذه النظرية بـ "نظرية الأشخاص الفاضلين".

فعلى سبيل المثال، إذا مال المفوض غوردن لفعل الشيء الصحيح - كأن يعامل زوجته وأطفاله بشكل جيد، أو يمنع الشرطة من استخدام القوة المفرطة، وهكذا دواليك - فسيكون إذاً فاضلاً. في نظرية الشخص الفاضل، تركز الفضيلة على سؤال كيف يميل الشخص للتصرف. فحتى عندما تكون لديه علاقة غرامية مع موظفة جذابة في فلم Batman: Year One (1987)، يشعر غوردن بالذنب ويعترف بذلك لزوجته، ويعود جزء من ذلك ربما إلى إصلاح زواجه وجزء آخر ليتمكن من الاستمرار في محاربة وحشية وفساد الشرطة. في هذه النظرية، فإن تصرفات غوردن ستعتبر فاضلة فيما لو كانت من النوع الذي يقوم به أشخاص فاضلون في مكانة غوردن. في الحقيقة، تشير نظرية الشخص الفاضل عدداً من المخاوف. وأحدها هو أننا نعتقد بشكل طبيعي بأن ما يجعل شخصاً ما فاضلاً هو ما يفكر فيه،

لا ما يفعله أو يميل لفعله. فعلى سبيل المثال، نحن نعتقد بأن فتاة مشلولة ما بإمكانها أن تكون فاضلة أو شريرة حتى لو لم تكن لديها القدرة على التأثير على الآخرين بأفعالها. لذا فإن هذه النظرية خاطئة لكونها تركز على ما يفعله الناس أو يميلون لفعله، بدلاً عما يدور في أدمغتهم.

الشيء المقلق الآخر هو أن أفعالاً معينة بإمكانها أن تكون فاضلة أو شريرة بغض النظر عما يقوم باتخاذها. فعلى سبيل المثال، أنظر الى كارمين "الروماني" فالكوني Carmine "The Roman" Falcone، هو رئيس مافيا ومصدر للعنف والفساد والموت، والذي قام كل من باتمان والمرأة القطة بالتحقيق في أمره في فلم الهالوين الطويل The Long Halloween (1988). في نقطة ما، قام كارمين بوضع مكافأة مقدارها مليون دولار لكل من يأتي برأس باتمان والمرأة القطة، وهو الأمر الذي أدى في نهاية المطاف الى موت فالكوني ودمار إمبراطوريته. ولكن إضافة الى تلك الأعمال السيئة، أحب فالكوني ابنه بحق (حامل لشهادة ماجستير في إدارة الأعمال من جامعة هارفرد وباحث في رودس)، وحبه لولده كان مثالياً حتى لو كان فالكوني نفسه غير فاضل. بإمكان الأشخاص السيئين امتلاك أفكار جيدة وفعل أشياء لطيفة، ونحن بحاجة لأن تكون نظريتنا في الفضيلة والرذيلة انعكاساً لذلك.

تقترح نظرية ثانية للفضيلة بأن أفكار وأفعال الشخص هي فاضلة (أو شريرة) أساساً، بدلاً من أن يكون الشخص نفسه كذلك، إذ يكون فاضلاً إلى الحد الذي تكون فيه أفكاره وأفعاله فاضلة فقط. وسندعو هذه النظرية بـ "نظرية الأفكار والأفعال الفاضلة." ومع هذه النظرية، تكون الفكرة فاضلة عندما ينخرط الشخص في حب ما هو جيد (على سبيل المثال، أن يمتلك سكان غوثام حياة سعيدة وصحية وممتعة) وكرهية ما هو شرير (على سبيل المثال، يعاني سكان غوثام بسبب الجوكر أو المتحدث من البطن Ventriloquist). يجب الشخص شيئاً عندما يسعده حدوثه، أو يتمنى حدوثه، أو يفعل ما

يستطيع فعله ليجعله يحدث، ويكره شيئاً عندما يكون لديه نفس الموقف تجاه ذلك الشيء لكي لا يحدث. وبالمثل، تكون أفكار الشخص شريرة عندما يكره ما هو جيد ويجب ما هو سيء. ووفقاً لهذه النظرية، فإن الشخص يكون شريراً عندما تكون لديه الكثير من الأفكار الشريرة، أو لديه أفكار شريرة أكثر بكثير من تلك الفاضلة.

إن نظرية الأفكار والأفعال الفاضلة جذابة. فهي تمنحنا القدرة على الحكم على فكرة أو تصرف ما من دون الحاجة إلى التعرف على هوية صاحبها. فعلى سبيل المثال، في فلم Batman: Year One، يمسك قواد ببائعة هوى تعمل عنده كاستجابة لسوء تصرفها وعدم كفاءتها في حيل الإغواء. فيما عدا دوافعه، فنحن لسنا بحاجة لمعرفة أي شيء آخر لنعرف بأن تصرفه - قيادتها لهذا العمل وجرّها بالقوة - شرير. باتمان (المتنكر بهيئة شخص متمرس محبوب حي الضوء الأحمر) استجاب، بالطبع، من خلال إثارة القواد ومن ثم من خلال ضربة بالكوع وركلة مدمرة على الرأس. يوحى هذا الاستفزاز بأن باتمان كان يبحث عن عذر لأذية القواد، بدلاً من مجرد محاولة حماية الفتاة الشابة. إذ كان عنفه ناتجاً من كراهيته للشر.

إن نظرية الأفكار والأفعال الفاضلة، بشكل يختلف عن نظرية الشخص الفاضل، توضح بأن الناس الفاضلون يميلون للتفكير والتصرف بطرق معينة لأنهم يحبون الأشياء الجيدة ويكرهون الأشياء السيئة. ووفقاً لهذه النظرية، فإن الأشخاص يكونون فاضلين بالاعتماد على عدد الأفكار الفاضلة التي يمتلكونها، وربما على نسبة الأفكار الفاضلة إلى تلك الشريرة. وهذا يتفق مع الكيفية التي نفكر فيها في الناس غالباً، أليس كذلك؟ حيث غالباً ما نفكر حول ما إذا كان شخص ما فاضلاً أو لا بالاعتماد على ما يدور برأسه، بالاعتماد، بصفة خاصة، على ما إذا كان يحب الأشياء الجيدة ويكره تلك السيئة.

يكره باتمان المجرمين ويجب رؤيتهم يعانون، وهذا قد يشير الى أنه شرير. فعلى سبيل المثال، عندما ضرب القواد بكوعه، كان كثير القلق حول استمتاعه بذلك الفعل. ولكن هل باتمان هو شرير بالفعل؟ أو ربما قد تكون هذه الكراهية شيئاً فاضلاً؟

إن مسألة ما إذا كان باتمان فاضلاً هي مسألة شائكة، وذلك لأن ليس جميع الأشخاص جيدين ولا أن كل ألم هو سيء. على سبيل المثال، غالباً ما نعتقد بأن من الجيد أن يعاني الأشرار. حيث نعتقد بأن من الجيد أن يحصل الناس على ما يستحقون، والأشرار يستحقون الألم (أو المعاناة). ولأن الأشخاص الفاضلين يحبون الأمور الجيدة، فإنهم سيحبون رؤية الشخص السيء وهو يعاني، باستطاعة الشخص الفاضل في الحقيقة أن يرغب للشخص السيء أن يعاني، ويكون سعيداً عند رؤيته وهو يعاني. وأن تريد لشخص ما أن يعاني أو تُسرَّ لمعاناة ذلك الشخص هو شيء شبيه بكراهيته تماماً، وهذا يعني أن بإمكان الأشخاص الفاضلين الكراهية. وينطبق هذا الأمر على باتمان أيضاً.

مبدأ ”مجرد حلوليات، أو استحقاق الشخص لما يعانيه“ يستطيع تفسير اعتقادنا حول سبب كون معاناة باتمان سيئة، في الحين الذي تكون فيه معاناة شرطي قذر ووحشي غير ذلك. المحقق فلاس Flass في فلم Batman: Year One هو غرين بيريه (قبعة خضراء: غطاء الرأس الرسمي للمغاوير البريطانيين في الحرب العالمية الثانية. وما يزال يلبسها أفراد مشاة البحرية الملكية بفخر بعد اجتياز دورة تدريب الكوماندوس وأي عضو في الجيش البريطاني يجتاز كل دورات الكوماندو متعددة الأسلحة «الترجم») سابق والذي كان يستخدم تدريبه وحجمه للتعامل بوحشية ضد الرجال الذين لا يفعلون شيئاً سوى التسكع في الشوارع والتقاطعات. وقد قام فلاس برفقة عدد من الضباط الآخرين في الواقع بضرب جيمس غوردن لعدم تقاضيه

الرشوة أو لعدم تسامحه مع الشرطة الفاسدين. في النهاية قام غوردن بإعطاء فلاس هراوة لجعل القتال بينهما أقوى وليبرحه ضرباً في النهاية، ولم يتوقف حتى كادت حالة فلاس تتطلب إرساله للمستشفى. قام بعدها بترك فلاس عارياً ومربوطاً، وهذا ما أوصل الى فلاس وبقيّة الضباط الفاسدين رسالة واضحة.

ومثل باتمان، يبدو بأن غوردن مقاتل رائع، ولكن على العكس من باتمان، فلا يبدو غوردن مستمتعاً بنشر العدالة مستخدماً الخشونة أو ضرب الناس لإرسال الرسائل. ربما نتصور بأن باتمان سيستمتع بضرب وإهانة فلاس. حيث أن كراهيته فاضلة، ولكن شخصيته المظلمة هذه تقف في تناقض حاد مع شخص كالقديس فرانسيس الأسيزي والأشخاص الخارقين مثل سبايدرمان وسوبرمان، والذين هم فاضلون أيضاً ولكنهم ليسوا غارقين في الكراهية.

إن الاستجابة الحاسمة، هي أن تتحجج بأن الشخص الفاضل الحقيقي لا يكره بقية البشر الآخرين. فالكراهية شيء سيء، فهي موقف سلبي بطبيعتها، وبالتالي من الأفضل تجنبها. وإذا كان هذا حقيقي، فبالإمكان استخلاص نتيجتين. ربما يُظنُّ بأن باتمان ليس فاضلاً بسبب كراهيته لبعض الأشخاص، أو على الأقل هو فاضل بأقل مما يستطيع أن يكون. وبشكل بديل آخر، بإمكاننا أن نستنتج أن باتمان، لكونه فاضلاً، لا يكره الناس حقاً. إذ ربما هو يرى فقط المجرمين بالطريقة التي يرى فيها الجندي المحاربين على الطرف الآخر كخصوم عليه تعطيهم أو قتلهم، ولكن ليس كأشخاص يستحقون الاحترار أو عدم الاحترام.

أود أن أجادل، مع ذلك، أن مثل هذه الانتقادات هي خاطئة (على الرغم من أني لا أكره نقادي اقتراحاتهم تلك!). فالكراهية (وهي وجود موقف سلبي تجاه شيء ما) هي موقف مناسب تجاه الأشخاص الذين يسببون ضرراً ومعاناة للآخرين. أمّا المواقف الأخرى، والتي تكون إما إيجابية أو غير مبالية، فهي

ليست بالمناسبة: على الأناس الأخيار أن لا يشعروا بالحب تجاه الأشرار الذين يضربون، أو يسممون، أو يقتلون الآخرين عمداً. ولا ينبغي للإنسان أن يظهر بشكل غير مبالٍ، ببساطة، تجاه الأشرار حيث لن يهتمهم إذا ما قاموا بتصرفات شريرة. فالمواقف والمشاعر السلبية كالكرهية والإشمئزاز أو الإزدراء هي الطرق الصحيحة أخلاقياً للرد على المخالفات، وبالتالي فهي جميعها فاضلة.

والتشبيه بالجنود هو خاطئ أيضاً لأنه لا يمثل موقف باتمان الحقيقي تجاه المجرمين. حيث أنه يظهر القليل من التقدير للمجرمين ولا يعرب عن أسفه أو ندمه أبداً عند إحباطه لخططهم، وحتى عند معاملتهم بالكثير من العنف بشكل خطير. فالمجرمون، بشكل يختلف عن الجنود الذين يقاتلون لأجل أوطانهم، لا يستحقون الاحترام أو الإعجاب، بل مخططون استحقوا الكراهية والاحتقار. لذلك، فأنا أنوي المجادلة حول أن باتمان قد كره أولئك المجرمين فعلاً. وبما أن هذا هو الموقف المناسب الوحيد لإمتلاكه ضد أشخاص مثل هؤلاء، فهو فاضل بسبب كراهيته تلك.

كراهية باتمان ليست من مصلحته

حتى لو تقبلنا بأن كراهية باتمان للأشرار هي فاضلة، فإنها ما تزال ليس من مصلحته. حيث أن كراهية باتمان قد قادت له ليكون شديد التركيز على محاربة الجريمة لدرجة تمنعه من الانغماس في غيرها من الأمور التي تجعل من حياة الشخص عادية وجديرة بالاهتمام، كالعائلة والأصدقاء والهوايات. فعلى سبيل المثال، إن حقيقة كون باتمان يمتلك الكثير من الأعداء عديمي الرحمة يجعل من ارتباطه بامرأة أمر غير حكيم. تأمل ما حدث لجيم غوردن في فلم Batman: Year One عندما قام فلاس ورفاقه بضربه بمضارب البيسبول، وأختطفوا زوجته، ورموا وليده من فوق الجسر، وفضحوا علاقته الغرامية، وهذا لا يعتبر شيئاً قياساً بما على بروس واين أن يتوقعه لعائلته وأصدقائه فيها

لو كُشفت هويته للجوكر ذي الوجهين والبقية. وعلى الرغم من أن في مصلحة مواطني غوثام أن يستهلك باتمان نفسه في كراهية ومحاربة الجريمة، فإن ذلك ليس بالأمر الصحي بالنسبة لسلامته العقلية والعاطفية.

هنالك شيء غير لائق حول إمتلاك حياة تدور حول العنف والكراهية، حتى لو كانت موجهة الى أشخاص يستحقونها. وأفضل تفسير لهذا ربما يأتي من ملاحظة أن من غير الضروري أن تسير الحياة الفاضلة على ما يرام. وباتمان مثال ممتاز على ذلك. إذ لا يمكن للفضيلة وحدها ضمان أن حياتك ستكون ناجحة، لأنها لا تضمن نشوء العلاقات الهادفة، والمعتقدات الحقيقية، ولا تضمن السعادة، أي كل الأشياء التي تعتبر ضرورية لحياة الفرد لكي يزدهر. فالشخص الذي يستهلك حياته بالكراهية، حتى لو كانت تلك الكراهية فاضلة، من شأنه أن يحصل على حياة أقل سعادة، أو مفتقرة الى وجود حبيب وأصدقاء، وهذا يفسر لماذا تسير حياة باتمان بشكل غير جيد. حيث بمظهره الكئيب والعنيف، وب عزلته، يبدو باتمان كشخص مثل هذا تماماً.

إن كراهية باتمان تجعل من العالم مكاناً أفضل بكثير على الرغم من أنها تجعل حياته أسوء. حيث أن ألمه وعزلته يتضاءلان مقارنة بمحيط الموت والدمار الذي كان سيتنج لو أن باتمان لم يقم بإيقاف الخطط الشنيعة لأعدائه. على سبيل المثال، في فلم الهالوين الطويل The Long Halloween، خطط الجوكر لإيقاف قاتل متسلسل من خلال نشر غاز سام حول جميع من كان في ميدان غوثام في ليلة رأس السنة، كانت أسبابه بأن "جميع الاحتمالات" تشير إلى وجود القاتل ضمن الحشود هناك، وكان يبدو غير مبالٍ بكل الأضرار الجانبية الضخمة (لحسن الحظ، قام باتمان بإيقافه). مثال آخر حول مدى خطورة الجوكر يأتي من فلم The Dark Knight Returns بعد ادعائه بقتل 600 شخص بالفعل، قام بنشر غاز سام وقتل عدة مئات آخرين كانوا قد أتوا لمتابعة لقاء تلفزيوني معه في وقت متأخر من الليل. باتمان لا يوقف الجوكر في كل مرة،

ولكنه عندما يفعل، يقوم بإنقاذ الكثير من الأرواح، وبتوازن أكيد يصنع من العالم مكاناً أفضل للعيش، بغض النظر عن مدى تأثير ذلك على رفاهيته.

هل يستطيع باتمان عدم الكراهية؟ ليس من الواضح أنه يستطيع: حيث أن مشاهدة والديه وهما يقتلان قد أثرت كثيراً على موقفه تجاه الجريمة والمجرمين. في فلم The Dark Knight Returns، نحن نرى بأنه كصبي، كان بروس قد أصر على أن أي مجرم خلال وقت قراءة ما قبل النوم يجب أن يعتقل ويعاقب. في حلقة أخرى من تلك القصة، والتي قد تكون مجرد حلم، سقط بروس في حفرة حيث أدعى بأن خفاشاً عملاقاً فيها كان قد غرس فيه الكراهية والشراسة. من دون القدرة على السيطرة على كراهيته، لا يمكن إعتبار باتمان مسؤولاً عنها، لذا يمكننا أن نميز مسألة فيما لو كان باتمان فاضلاً أو فيما لو كان مسؤولاً عما يجعله فاضلاً، كراهيته للشر.

الافتقار إلى التوازن

هنالك قضية واحدة لم نقم بأخذها بعين الاعتبار وهي فيما لو كانت الحياة الناجحة تتطلب التوازن بين حب الخير وكراهية الشر. إذ يبدو بأن حياة الفرد تكون أكثر سعادة إذا ما أمتلك توازناً سليماً بين الحب والكراهية. وفي وجهة النظر هذه، فالشخص الذي يقضي الكثير من الوقت في حب الخير يبدو غافلاً عن كل المعاناة والألم والتي هي جزء من حياة كل شخص. وبشكل مماثل، فالشخص الذي يقضي الكثير من الوقت في كراهية الشر يبدو غير مبال بالعديد من الأشياء الجيدة والجميلة في الحياة. ونظراً للتركيز الهائل لباتمان على محاربة الجريمة، ربما يكون ملائماً ليندرج ضمن الفئة الأخيرة. وبالتالي، وبعيداً عن عزلته وأحلامه التي تعذبه، ربما تكون حياة باتمان محدودة بانتشار الكراهية في محيط حياته. ولكن من دون كراهيته، هل بإمكان باتمان أن يوجد؟ هل سيكون فارس الظلام ذاته؟ لا أعتقد ذلك.

- 1- راجع كتاب أرسطو "الأخلاق النيقوماخية" ترجمة ج. ويلدون (Amherst NY: Prometheus Books 1987)، الكتاب الثاني خصوصاً.
- 2- للحصول على مقدمة بسيطة عن أخلاقيات الفضيلة، وعلم الأخلاق، والنفعية، وغيرها من النظريات الأخلاقية، راجع كتاب سايمون بلاكيرن، الأخلاقيات: مقدمة قصيرة جداً (2003 Oxford: Oxford Univ. Press).
- 3- أقرأ المقابلة مع بات - تزو في الفصل 20 من هذا الكتاب للمزيد عن أهمية التوازن في حياة الفرد.

الباب الثاني

القانون، والعدالة، والنظام الاجتماعي:

أي مكان سيناسب باتمان؟

4

فلم Batman: No Man's Land:

النظام الاجتماعي في غوثام ونيو أورليانز

بقلم: بریت شاندلر باترسون

يتخذ المواطن الأمريكي العادي النظام الاجتماعي كأمر مفروغ منه. حيث نستيقظ كل يوم على افتراض أن مؤسساتنا - التعليم، الصحة، السياسة، وهلم جرا - ستدار بسلاسة، حتى لو لم تكن دائماً من ضمن اهتماماتنا. زرع الارهاب بعض الشكوك، ولكن بشكل عام، لا يزال معظم الأمريكيين يستمتعون بحياة سلمية نسبياً. وعلى الرغم من أن الولايات المتحدة، مع ذلك، ليست معفية من دمار الكوارث الطبيعية واسعة النطاق.

حيث جعل إعصار كاترينا هذه النقطة واضحة بشكل مؤلم. وأيضاً الزلازل والفيضانات والتسونامي والأعاصير والانهيارات الطينية وضربات النيازك، إذ لا تزال هنالك العديد من القوى في هذا الكون تقع خارج سيطرتنا، قوى نحن نخشاها، عندما يغزونا الخوف أثناء وبعد تلك الكوارث، ما الذي سيحدث للنظام الاجتماعي؟ هل سيلجأ البشر الى طبيعتهم العنيفة الأكثر بدائية في نضالهم للبقاء على قيد الحياة؟

هذا هو محور قصة No Man's Land "الأرض المحرمة" ربما اكثر قصص باتمان براعة، والتي تتبع تفكك النظام الاجتماعي خلال زلزال يضرب مدينة غوثام.¹ وعلى الرغم من أن هذه القصة الخيالية تسبق فيضانات نيو أورليانز بست سنوات، فإن التشابه الغريب بين القصة الخيالية وإنهيار كاترينا الأرضي في 29 آب عام 2005، قد أضاف وزناً لهذه القصة والتي كنا سنستبعدها على اعتبارها ميلودرامية ومبالغ فيها. يعرض فلم No Man's Land مجموعة واسعة من ردود الفعل على خسارة النظام الاجتماعي ويذكرنا بأن على الرغم من معرض الأشرار الملون، فإن عدو باتمان الحقيقي، وربما عدونا كذلك، هي الفوضى. وتستدعي القصة الى الأذهان الفلسفة السياسية لتوماس هوبز Thomas Hobbs (1588 - 1679)، والذي حاجج بأن البشر في حالتهم الطبيعية يميلون للحرب ولانعدام الثقة. حين تواجه بنية النظام الاجتماعي تحدي كوارث واسعة النطاق، فإن "الحالة الطبيعية" تلك، تكشف عن وجهها القبيح مرة أخرى، مجبرة مثلي ذلك النظام الاجتماعي على التدخل و القتال من اجل استعادة العقد الاجتماعي.

الطريق إلى الأرض المحرمة

إنهارت مدينة غوثام بين عشية وضحاها في كارثة قصة العام 1998، والتي دمر فيها زلزال تبلغ قوته 7.6 المدينة (والتي تم إضعافها من خلال

إنتشار فايروس مميت منذ وقت قريب في عام 1996 في قصة Contagion. المباني الوحيدة التي بقيت صامدة بعد الزلزال هي تلك المعززة من قبل مؤسسة واين. ومع ذلك، دُمرت عربة واين وذلك لأن هيكلها التاريخي لا يمكن أن يتم تعزيزه (أو أن كهف الوطواط السري لو اين ربما يكون قد تم إكتشافه). في الشهور التي تلت ذلك، كافح باتمان ورفاقه من أجل إنتشال أنفسهم من الحطام ومن ثم في تقييم حجم الضرر الكلي. في Aftershock و The Road to No Man's Land، هجرت نخبة غوثام المدينة بعد أن دُمرت البنى التحتية التي كانت تدعم صناعاتهم وتجارتهم. إذ إنهم لم يملكوا الإرادة أو الثروة الكافية لإعادة بنائها. في تلك الأثناء، عبرت حشود سكان غوثام عن ذعرها بطرق عديدة، مما ساهم في إنهار جسر أدى الى مقتل المئات. وعلى الرغم من أن المفوض جيم غوردون حاول أن يحفظ السلم، إلا أنه هو الآخر، وفيما بدى لاحقاً كلحظة ضعف منه، سعى عبثاً للعثور على وظيفة في مدينة أخرى.²

في "Mr. Wayne Goes to Washington"، يحاول بروس إقناع الحكومة الفيدرالية بمساعدة غوثام، متوسلاً بحياة السبعة الملايين شخص الذين يسكنونها، في الحين الذي يحاول فيه مكافحة الطرح السلبي لنيكولاس سكراتش Nicholas Scratch، وهو شخصية عامّة غامضة (الشرير) والذي يستهدف غوثام.³ ومع ذلك وبحركة خارجة عن التوقعات، يصدر الرئيس أمراً - متبوعاً بموافقة الكونغرس - بضرورة فصل مدينة غوثام عن بقية البلاد، وذلك لأن الأضرار التي لحقت بها فادحة ومكلفة. ثم تقوم الحكومة الفيدرالية بإعطاء مهلة زمنية من 48 ساعة لسكان غوثام من أجل إخلاء المدينة وبعد ذلك، وفي خطوة متطرفة، تفجر جميع الجسور وتحاصر المدينة بالكتل الخرسانية والعساكر. عند تلك النقطة، تصبح غوثام رسمياً "الأرض المحرمة".

في عالمنا، كان إعصار كاترينا والفيضانات اللاحقة له هي التي أدت الى خراب نيو أورليانز عام 2005. فحوالي 80% من المدينة كانت قد غرقت (أكثر المياه كانت قد أتت من بحيرة بونتشارترين) بعد فشل نظام السدود. الكثير من ذلك كان قد حدث في وقت متأخر من الليل، مفاجئاً أولئك الذين كانوا يرتاحون في منازلهم، والذين كانوا يعتقدون بأن السدود قد حمتهم من أسوأ ما في إعصار كاترينا. وعلى الرغم من أن الحكومة الفيدرالية لم تذهب بعيداً بإجراءاتها كما تم تصويرها في القصة المصورة، إلا أن تأخيراً كان قد أستمّر لعدة أيام قبل المباشرة بحملة إنقاذ واسعة النطاق في المنطقة المنكوبة، وكان هنالك عدد من السياسيين الذين أعربوا عن رغبتهم في التخلي عن المدينة التي تحيطها المستنقعات.⁴ ولأن نيو أورليانز - على العكس من غوئام - قد حُذرت مسبقاً من الكارثة الوشيكة، فقد كانت هناك بعض التدابير الطارئة قد تم تحضيرها بالفعل، مما أدى الى جعل الآلاف من السكان يبحثون عن ملجأ في نيو أورليانز سوبردوم ومركز المؤتمرات. لم يكن إنهيار النظام الاجتماعي خطيراً كما كان في قصة غوئام الخيالية، إلا أن فوضى عارمة ترتبت على ذلك.

النجاة فوق العدالة: الأشرار، العصابات، ودولة الطبيعة لهوبز

في الوقت الذي تم فيه إعلان أن هذه الأرض هي أرض محرمة، كان عدد كبير من السكان غير قادر على المغادرة، أو قد اختار عدم المغادرة. حيث وجدوا أنفسهم بعدها في بيئة خالية من التكنولوجيا، دون كهرباء، دون تدفئة أو تكييف، دون بانزين ودون نقل، دون محلات بقالة أو متاجر حتى. إرتدّت مدينة غوئام الى الحالة البدائية، حيث ينبش الناس في بقايا ما كانت عليه مدينة غوئام في يوم ما. إن قصة (بلا قانون ونظام جديد No Law and a New Order) (في NML1) [يقصد بها اختصار لـ No

Man's Land تقوم بتقديمنا إلى الأرض غير الصالحة للحياة، حيث يظهر لنا مجموعة من الأطفال يتقاتلون فيما بينهم على طعام تم رميه في المدينة من قبل مصور مروج للأخبار المثيرة كان يهدف للحصول على صور لأناس يتقاتلون. بعد عدة صفحات فقط يقوم سكارفيس بإطلاق النار على صبي من أجل رزمة من الكعك. وبعد وقت قصير نعلم بأن هنالك نظام مقايضة محكم قد تم تطويره، حيث تتاجر الناس بأموالها التي لم تعد ذات قيمة لها (كالأجهزة الإلكترونية المترفة) مقابل الضروريات الأساسية (مصايح يدوية تعمل بالبطاريات، والفواكه الطازجة).

نعلم كذلك بأن الناس قد بدأوا بالتجمع على شكل عصابات لحماية أنفسهم ولتوفير نظام ما في توزيع السلع. والعلامات - الرسم بالسبراى رمز عصاباتك في مكان شديد الوضوح - قد أصبحت ضرورية لمعرفة فيما لو كنت في منطقة ودية نسبياً أو في جزء شديد العدائية من المدينة. في الأيام الأولى من أزمة غوثام، كان أغلب أعداء الوطواط من الأشرار، ومن ضمنهم ذو الوجهين والبطريق والقناع الأسود والجوكر، كل منهم قد قام بتثبيت حدود اقليمية له من الفوضى، محتفلين بغياب النظام الاجتماعي والذي سجنهم في مصحة أركام. وخلال هذه الفترة، كان باتمان، الذي يمر بأزمته الشخصية كبروس واين، غائباً عن المدينة، مما أضاف يأساً عاماً بين السكان.

كان الوضع مماثلًا لـ "دولة الطبيعة" التي وصفها توماس هوبز في فلسفته السياسية. حيث رسم هوبز في اللفيثان (1651) صورة مظلمة للحالة الطبيعية للإنسانية، مدعياً بأننا خارج المجتمع نصبح متوحشين وفي حالة حرب مع بعضنا الآخر.⁵ ورغم ذلك فقد نضجت نظريته من خلال تجربته الشخصية في العيش في منفاه في فرنسا خلال الحرب الأهلية الإنجليزية في أربعينات القرن السابع عشر، شاهداً على إنهيار النظام الاجتماعي لبلاده. نادى هوبز بأهمية السلطة المركزية والتي من شأنها تحفيز بقية السكان. ومن

وجهة نظره، فإن حياة الإنسان هي عبارة عن منافسة لأجل الحصول على السلطة؛ حيث أن الحياة عبارة عن صراع حول عدد محدود من الموارد المادية. إذ أننا محفزون بفعل الخوف من الموت والخوف من قوى الآخرين، بغض النظر عن مقدار النضج الفكري الذي ندعيه. حيث يحفزنا الخوف لنبحث عن السلام؛ فنحن نوافق على إبرام عقد اجتماعي بدافع الرغبة في الحفاظ على حياتنا في نظام اجتماعي، ونوافق على نظام للعدالة من أجل الحفاظ على ذلك النظام. وتحافظ قوة السيادة - "اللفيathan" - على ذلك النظام وتحمي أولئك الرعايا الذين خضعوا طواعية لذلك الحكم. إن الخوف من الوقوع مرة أخرى في "دولة الطبيعة" يحافظ على بقاء الرعايا متماشياً مع ذلك الحكم. وعلى الرغم من أن بعض الفلاسفة قد تحدوا إمكانية وجود "دولة الطبيعة" هذه أساساً، إلا أن هوبز يرد على ذلك بأنه متى ما غرقت بلاد في حرب أهلية، فإنها تترد لتلك الحالة. فالعديد من الروايات في القرن العشرين، بدءاً من رواية جوزيف كونراد Joseph Conrad قلب الظلام Heart of Darkness (1899 / 1902) ووصولاً إلى رواية وليام غولدنج William Golding سيد الذباب Lord of the Flies (1954)، والمسلسل التلفزيوني الحالي ضياع Lost، كلها كانت قد اقترحت بأن الانتقال من "الحضارة" إلى العزلة الكاملة في الطبيعة بإمكانها إرجاع الطبيعة الوحشية للبشر للظهور مرة أخرى.⁶ وبالتأكيد، فإن الكوارث الطبيعية واسعة النطاق لديها ذات القدرة.

وفي الأيام التي تلت فيضات نيو أورليانز عام 2005 مباشرة، تناقلت وسائل الإعلام عمليات نهب، وعمليات قتل وإغتصاب محتملة، وصراع بين العديد من العصابات التي كونها أشخاص مستخدمين أسلحة. إن التوترات في المدينة حول العنصرية والفقر والمخدرات كانت قد أندلعت في الحين الذي كان فيه السكان في حالة من الهلع، ومع وجود جثث ملقاة في

شوارع المدينة. وعندما بدأت قوات الحرس الوطني بإجلاء الناس وإستعادة النظام، أكتشفوا بأن عددا من الشائعات لم يكن لها أساس من الصحة؛ حيث كانت وسائل الإعلام تزيد من الإثارة والمبالغة عن مدى إنتشار النشاطات الإجرامية، ولا سيما في مراكز اللجوء. لذا فلم تكن نيو أورليانز كمدينة غوثام بالضبط، لكن كانت هنالك فترات طويلة من إنعدام الثقة، وبالطبع فقد كان بالإمكان زيادة النشاط الإجرامي بسهولة بعيداً عن تلك الحشود. إذ قام بعض ضباط الشرطة بالتخلي عن المدينة بالفعل ثم عوقبوا لاحقاً. وقد أنتظر حوالي خمسة وعشرين ألف شخص لأكثر من خمسة أيام حتى يتم إنقاذهم في ملعب السوبردوم؛ حيث قامت قوات الحرس الوطني بإبعاد الناس عن الملاجئ في الأيام اللاحقة، وأخرجت الفنادق الناس الى الشوارع، وأغلق شريف مقاطعة جيفرسون جسر نيو أورليانز الأكبر بوجه اللاجئين، مؤكداً بأنه لن يسمح للضواحي أن تسقط في نفس الفوضى. وجادل الكثيرون بأن العنصرية الكامنة قد أثرت على التعامل مع الآلاف من الذين لم يستطيعوا أو يريدوا ترك المدينة.⁷ ومن الجدير بالذكر أن أحد أول المنشآت التي تم ترميمها في الأسبوع الأول كان السجن المؤقت. حيث بدت "دولة الطبيعة" لهوبز حية وبصحة جيدة.

ويليام بيتي William Petit ضد جيم غوردن:

العنف في السعي لتحقيق العدالة

أحد أكثر المواضيع إثارة للتفكير في خطى سير قصة No Man's Land هو الصراع بين جيم غوردن وزميله ضابط الشرطة ويليام بيتي، كاشفة عن وجهتي نظر مختلفتين حول كيفية مقاومة حالة الفوضى السائدة. بدأ كل من غوردن وبيتتي على الجانب نفسه؛ حيث أن كلاهما كان يسعى لإستعادة غوثام وإعادة بناء الثقة الإجتماعية في قوة الشرطة. ولكن مع تطور حبكة

القصة، يظهر لنا الفرق الجذري بين بيتي وغوردن. حيث نرى بأنهم يمثلون تكتيكات مختلفة في إعادة ترسيخ السلطة السيادية على الفوضى. في اللفيثان يصف توماس هوبز طريقتين مختلفتين بإمكان السيادة أن تأتي من خلالها الى مركز القوة، إذ باستطاعة الناس أن يوافقوا على السلطة (وهذه هي السلطة "الأبوية") أو أن يستولي الحاكم على السلطة (وهي السلطة "الإستبدادية").⁸ يمثل غوردن، بطريقة معينة، السلطة الأبوية، ساعياً للحفاظ على معايير العدالة في تحركه مرة أخرى لاستعادة السيطرة على النظام الاجتماعي، بينما يمثل بيتي السلطة الإستبدادية حيث يسعى للاستيلاء على السلطة من خلال التهيب والقوة.

في "No Law and No Order"، يعتقد جيم غوردن بأنه ينحدر الى إلباس أخلاقي من خلال إشعال حرب بين العصابات المتنافسة في محاولة لإضعافها، ولكن بيتي يدفعه الى ما أبعد من ذلك حتى، داعياً للقتل من أجل تعزيز الحرب، ويجد فرصته في إنقاذ غوردن من كمين محكم. ثم ينشأ صراع آخر هام في غضون أسبوع: حين تنجح خطة غوردن وتستولي الـ GCPD (مركز شرطة مدينة غوثام "المرجم") على أراضي العصابات، يتساءل الشرطة أين سيحبسون السجناء. فيقرر غوردن أن يطلق سراحهم، إلا أن بيتي يصر على تهيبهم لكي لا يعودوا لاحقاً وبأعداد أكبر. لذا يقوم بإعدام عضو في أحد العصابات قبل أن يستطيع غوردن إيقافه. يسعى غوردن بعدها فوراً لتأديب بيتي، ولكن بأحاسسه بأنه هو أيضاً قد تنازل عن مبادئه، لا يقدم على أي جواب للتحدي اللفظي الذي يطلقه بيتي ضده قائلاً: "أخبرني أنني مخطأ." ومن تلك النقطة فصاعداً، يصبح بيتي مهووساً بالعنف، مدعياً بأن الطريقة الوحيدة للتعامل مع مجرمي غوثام هي بالقضاء عليهم.

إن هدف غوردن الرئيسي، الى جانب الحفاظ على سلامة عائلته، كان إعادة ترسيخ القانون الاجتماعي على المدينة. في "Bread and Circuses"

(في 2 No Man's Land)، يستخلص غوردن من الدرس الميكيفيلي بأنه يجب أن يُشاهد وهو يطبق القانون من أجل خلق ثقة اجتماعية مرة أخرى.⁹ ومع ذلك، فإن أكبر تسويات جيم غوردن، هي العمل مع ذي الوجهين بلعبة سلطة فاز عبرها بالمزيد من الأراضي لمصلحة GCPD، ولكنها عادت عليهم بالأذية في نهاية المطاف.

بقي غوردن وبيتي معاً خلال هذا، ولكن في "Fruit of The Earth" (في 3 No Man's Land)، يصل الصراع بينهما الى نقطة تحول. عند الوصول الى سيناريو "رهينة" حيث تهدد عصابة ضابط شرطة، يحاول غوردن التفاوض، إلا أن بيتي يطلق النار على الجاني ببساطة. وبعد أن يؤنبه غوردن، يذهب بيتي في طريق منفصل، مدعياً بأن غوردن ليس قوياً كفاية لمواجهة تحديات No Man's Land. وتتواجه الصيادة The Huntress (إحدى بطلات غوثام) في وقت لاحق مع بيتي، والذي يجادل حول أن تكتيكاتهم يجب أن تتغير وذلك لأنهم جنود داخل معركة. يحوم بيتي على حواف الحبكة، على الرغم من دعوته المتكررة إلى استخدام القوة المميتة ضد التمساح القاتل Killer Croc، ذي الوجهين (والذي يحدث أن يتم سجنه)، والجوكر. وفي لقاء الذروة مع الجوكر في "End Game" (في 5 No Man's Land) يظهر بيتي في النهاية محطماً ومجنوناً؛ ففي مسعاه لقتل الجوكر، ينتهي به الأمر إلى قتل العديد من رجاله (والذين جعلهم الجوكر يرتدون ملابس مهرجين كأتباعه).

في "Jurisprudence" (في 4 No Man's Land)، يتعرض غوردن حرقاً الى المحاكمة عندما يقوم ذو الوجهين (المدعي المحلي العام السابق هارفي دينت) باختطافه و"مقاضاته" لمخالفته القوانين الدستورية التي أقسم على حمايتها. ومع ذلك وبسبب تعاطفه مع هارفي دينت، وبمساعدة الضابط رينيه مونتانا Renee Montoya، ينجو غوردن. ثم وفي النهاية، وفي

لحظة مفاجئة وحاسمة، بعد أن يقوم الجوكر بقتل زوجته، يواجه غوردن المهرج الموهوس، برفقة باتمان الذي يتوسل غوردن كي لا يضحي بمبادئه (5 No Man's Land). لم يقم غوردن بقتل الجوكر، ولكنه يقوم بإصابته بطلق ناري في ركبته قبل أن يؤخذ الجوكر الى الحجز، مبنياً بقايا تأثير No Man's Land في اللعبة. وفي الأيام التي تتبع ذلك، في حداده على زوجته، يتساءل جيم غوردن إذا ما كانت الجهود والانتصارات التي حققوها تستحق ما قدم من تضحيات.

الشهادة على الإنسانين المناوئين للعنف

لحسن الحظ، هنالك أيضاً القليل من الإنسانين محبي السلام في وسط القصة. وأثنان من هذه الأمثلة البارزة هما: الأب كريستيان Christian، وهو كاهن كاثوليكي مسؤول عن أحد الكنائس، والدكتورة ليزلي ثومكنز Leslie Thompkins، وهي طبيبة تحاول الحفاظ على تماسك مستشفى مؤقت من أجل عشرات الجرحى في المدينة (وأحد أقدم أصدقاء بروس ومقربيه). تم حكاية قصصهم الموازية في "No" (Fear Of Faith) (1 Man's Land) وفي "NML" (4 Spiritual Currency). في بداية تلك القصص، حوّل الأب كريستيان ما تبقى من كنيسة إلى مركز للاجئين، ساعياً لتوفير الطعام والماء والمأوى ومستوى معين من الأمان لأولئك الذين سيقون معه. هو أيضاً كان قد رفض التحالف مع أي أحد، بما في ذلك الـ GCPD، والتي كانت تستخدم القوة المفرطة في مسعاها لاستعادة المدينة. وكان يقوم أيضاً بتوسيع عمل جمعياته الخيرية لتشمل مساعدة أحد أشرار غوثام، وهو الفزاعة، على الرغم من تحذيرات الصيادة له. ليقوم الفزاعة بعدها بتخريب إمدادات الغذاء، مما يجبر كريستيان على التفاوض مع شرير آخر هو البطريق، والذي كان تاجراً كبيراً قد أزهده عمله أكثر وسط الفوضى.

يعطي البطريق لكريستيان الإمدادات الغذائية التي يحتاجها مقابل السماح له بتخزين أسلحته في الطابق السفلي للكنيسة. ولشعوره بأنه محاصر، يوافق كريستيان على هذا العرض، وهو القرار الذي سيتج عنه صراع على السلطة في وقت لاحق أمام الكنيسة، حيث يتم إنقاذ مجموعة الأب كريستيان على ما يبدو من خلال تدخل الـ GCPD، والصيداء، وباتمان. وفي نهاية الصراع، يقوم الأب كريستيان وشركاؤه برمي الأسلحة في ميناء غوثام، كرفض صارم للسماح لأي شخص بوضع يده عليها مرة أخرى.

وفي القصة الثانية، ترى الدكتورة ليزلي ثومبكنز عيادتها كمكان للاجئين، حتى بالنسبة لقاتل سيء السمعة كاللورد فيكتور زاس Mr. Zsasz وعصابته. يحاول كل من الصيداء وباتمان وبيني تحدي قرار الدكتور ثومبكنز، لكنها تجادلهم بأن إلتزاماتها تتعلق بالعلاج والسلامة. وتخبرها الصيداء بأن من السهل عليها اتخاذ مثل هذا الموقف طالما أن باتمان موجود هنا لحمايتها، وفي الحقيقة، لاحقاً في القصة، يستيقظ زاس عندما لا يكون باتمان موجوداً. تواجه الدكتورة ثومبكنز احتمالية الموت في الأثناء التي تحاول فيها مناشدة بعض الرحمة الموجودة فيه معلنة بأنها لن تقاومه بالعنف. ثم يقبض التماسح كروك، والذي كان يسعى في أثر زاس لقتله صديقاً له، على زاس قبل أن يستطيع أذية الدكتورة، ثم يصل باتمان في النهاية ليخيف التماسح دافعاً إياه للهرب ويأخذ زاس إلى سجن البوابة السوداء Blackgate. ولتوبيخها له في وقت سابق بسبب تكتيكاته، أعتذر لها باتمان الآن عن العنف الذي أستخدمه. ثم أخبرته ثومبكنز أنه إذا ما كان يريد العمل من أجل السلام في المدينة، فإنها ستساعده على العمل من أجل إحلال السلام في قلبه.

كلا تلك القصتين تتناقض إلى حد كبير مع العنف المفرط، والمنافسة، والكرهية المعبر عنها في نشاطات العصابات ومناورات القوة للعديد من هاربي مصحة أركام. وعلى الرغم من أن الآخرين مثل باتمان وجيم

غوردن يساعدون في حماية أولئك الأفراد، فإن كل من كريستيان واثومبكنز مستعدين لمواجهة عواقب إنسانيتهم وسلميتهم، إلى حد التضحية بأنفسهم في سبيل الآخرين. في الليفانان (الكتاب الثالث)، يجادل توماس هوبز بأن على المنظمات الدينية أن تكون خاضعة للسلطة السيادية وذلك لمنع إنقسام ولائاتها، وبالتالي الحفاظ على السلام. وينبغي على السلطات الكنسية الاعتراف بسيادة الحكم، وإلا فإنها ستؤدي إلى تقويض النظام الاجتماعي المستقر المفروض من قبل صاحب السيادة.

سيختلف اللاهوتيون المسيحيون اليوم، وتبعاً لتعاليم هـ. ريتشارد نيبور H. Richard Niebuhr، جون هاوارد يودر John Howard Yoder، وستاني هورفاس Stanley Hauerwas، رغم كل شيء، بقوة مع هذه التبعية. فقد جادل هؤلاء اللاهوتيون المسيحيون لصالح الطابع الاجتماعي المميز للكنيسة؛ معتقدات وممارسات المجتمع المسيحي وتميزها عن المجتمعات الأخرى. حيث ينبغي أن يكون الالتزام بالرب هو مركز النشاط الذي يوجه قيم جميع الجوانب الأخرى لحياة لشخص. إذ بإمكان المسيحيين خدمة سيادة دنيوية، ولكن ولائهم الأساسي يبقى للرب من خلال المجتمعات الكنسية. ويعتقد هؤلاء اللاهوتيون أن على العكس من منظور الربوبية "إبعاد الإله" لتوماس هوبز، فإن الرب يعمل في العالم من خلال النظام الجديد الذي يُقدم في سياسة الكنيسة.¹⁰

إن للأب كريستيان علاقة احترام مع كل من جيم غوردن وباتمان، ولكنه رفض أن يكون خاضعاً للنظام الاجتماعي الذي يسعون لإعادته بطرق عنيفة. وقد أدى قلقه على لاجئيهِ إلى تقديمه لتنازلات في مفاوضاته مع البطريق، ولكنه قد أعاد لاحقاً في القصة القيم الكنسية من خلال رميه للأسلحة في ميناء غوثام. وعلى الرغم من أن من غير الواضح إذا ما كانت الدكتورة ثومبكنز تعتبر نفسها مسيحية أم لا، لكنها وبصفتها من دعاة السلام

قاومت أيضاً لكي لا تصبح جزءاً من جهود جيم غوردن وباتمان لاستعادة المدينة من خلال وسائل قسرية، مؤنبة باتمان على تكتيكاته العنيفة. إن باتمان وغوردن (وآخرون) بحاجة لوجود أمثلة كالأب كريستيان والدكتورة ثومبكنز. إذ من دون أمثلة كهؤلاء من الممكن أن يدخلوا دوامة الجنون مثل ويليام بيتي.

وبالمثل، فعلى الرغم من أن أغلب الأخبار التي كانت تأتي من نيو أورليانز تركز على الفوضى، كانت هنالك قصص عن البطولة، وعن إنسانيين يقدمون المساعدات، قساوسة يحاولون توفير الأمل لرعاياهم وأطباء يحاولون إبقاء مرضاهم على قيد الحياة في ظل ظروف قاسية. فالعديد من عمال الإغاثة أنفسهم حوصروا في المدينة. المواطنون العاديون أيضاً أصبحوا أبطالاً لأنهم هبوا لتقديم المساعدة، صانعين ملاجئ مؤقتة، متقاسمين المياه والمواد الغذائية، وموفرين الراحة للمرضى وكبار السن، ثم تحولت بطولاتهم الى مصدر إلهام للآخرين.¹¹ العديد من المنظمات الإنسانية أيضاً كانت قد شقت طريقها الى نيو أورليانز في أعقاب الدمار الذي حل هناك. وعلى الرغم من أنهم قد عملوا بتعاون شديد الى جانب السلطات المدنية، فإن العديد من منظمات الإغاثة قد حُشدت من تلقاء نفسها. وقد كانت نيو أورليانز بحاجة الى إسهاماتهم المتميزة.

”هذه مدينتي“: باتمان وإستعادة النظام

وأخيراً في “Shellgame” (في NML 5) نشهد الأحداث المؤدية الى نهاية No Man’s Land، حين يدخل ليكس لوثر Lex Luthor المدينة بحركة سياسية بارعة، في محاولة للمطالبة بأرض العديد ممن لقوا حتفهم بسبب الزلزال وأولئك الذين تنقصهم الموارد لتحدي دعواه. بالنسبة للعامة، فهو يبدو بأنه سيجلب المال والاهتمام الوطني اللازم لسحب غوثام

من الحضيض ببساطة. لقد واجه باتمان لوثر مرتين - مرة بعد مضي وقت قليل من وصوله، ومرة أخرى بعد أحباطه لحيلة لوثر - وفي المرتين كان قد أكد بأن غوثام هي مدينته هو، لا مدينة لوثر.

في بداية No Man's Land، شككت العديد من الشخصيات بهذا التأكيد وذلك بسبب عدم القدرة على إيجاد باتمان في أي مكان، وخلال ظروف غامضة. وحين ظهر باتمان أخيراً، بعد أكثر من ثلاثة أشهر على عزل المدينة، وجد أنه بحاجة الى إعادة بناء الأسطورة التي أستخدمها لترهيب المجرمين، وبأن عليه ضبط تكتيكاته لتناسب مع البيئة الجديدة. ثم في نهاية المطاف، تعلم أن يعمل ضمن نظام العصابات، معترفاً بأن السكان يشعرون بالضياع من دون قائد يكون له الولاء (سيادي) والذي بإستطاعته حمايتهم والمساعدة في توزيع الموارد بينهم بالعدل. لقد أصبح باتمان رئيس عصابة من نوع ما، وإن كان من النوع الخير. وقام أيضاً بالسماح للعديد من نزلاء مصحة آركام، كالبطريق وايفي السامة Poison Ivy، بالمحافظة على أدوارهم في النظام الجديد شبيهة بالأدوار التي اختاروها لأنفسهم (خلال هروبهم من آركام)، طالما أنهم يساهمون في تحقيق الصالح العام للمدينة. كانت غوثام متضررة بعمق، وقد طرح باتمان خطة طويلة الأمد (على النقيض من محاولة إصلاح سوبرمان السريعة، والتي لم تنجح)،¹² والتي ضمت في نهاية المطاف العديد من شركائه وزملائه: أوراكل Oracle، الصيادة، المرأة الوطواط الجديدة (كاساندر كاين Cassandra Cain)، روبن، جناح الليل Nightwing، عزرائيل Azrael، ألفريد Alfred، والدكتور ثومبكنز، جنباً الى جنب مع جيم غوردن والـ GCPD. كان الطريق طويلاً لشفاء المدينة، ولإستعادة القانون والنظام اللذين كانا قائمين قبل حدوث الزلزال.

إن هدف باتمان النهائي هو إعادة ترسيخ النظام، وبالتالي، فمن المهم جداً أن يتصالح مع جيم غوردن، والذي أبعد نفسه سابقاً باتمان، شاعراً

بالخيانة بسبب غياب باتمان طيلة الأشهر الأولى. وعلاقة باتمان المستمرة مع جيم غوردن تؤكد بأنه ليس بمقتص منفرد ذو قانون خاص. ولكنه بدلاً من ذلك يسعى لإعلاء شأن العدالة الاجتماعية، وتحقيقاً لهذا فهو يعمل بشكل وثيق مع جيم غوردن ويعمل بأنسجام مع الـ GCPD أكثر من كونه على خلاف معهم. إنه يمتلك قانوناً وضعه لنفسه ضد القتل، وتوبيخه للصيداء حول طرقها العنيفة توازي توبيخ جيم غوردن لبيتي، (على الرغم من أن الصيداء تصلح نفسها في نهاية المطاف وتشهد وصول بيتي الى الجنون).

بوصفه محققاً، يقوم باتمان بكشف الجرائم التي تتعارض مع النظام الاجتماعي؛ وكرئيس عصابة، يسير في الشوارع خلال النهار مطالباً بالثناء لتوفير القواعد والنظام لأولئك المواطنين الضائعين في تلك البيئة العدائية. ساعد باتمان الناس على التعاون والعمل معاً لمشاركة الموارد بطريقة أكثر عدالة، بدلاً من الطرق الإنتهازية للبطريق، ومستر فريز Mr. Freez، وذي الوجهين، وآخرين. كان على باتمان في البداية أن يفكك منظومتهم القمعية من أجل أن يقيم نظاماً جديداً، والذي سيتوافق في نهاية المطاف مع عمل جيم غوردن والـ GCPD. كانت عملية استغرقت وقتاً طويلاً، وانطوت على انخراط عائلة الوطواط في العمل في الشوارع خلال الأشهر الطويلة لـ No Man's Land، وتطلبت المال وقوة الإرادة لليكس لوثر وبروس واين خلال نقطة التحول، حين تم ابطال قانون المؤسسة و الدولة. لقد كان الطريق لإعادة بناء غوثام طويلاً ووعراً، مع العديد من التضحيات المقدمة على طول الطريق.

وبعد عدة سنوات، في العالم الحقيقي، لا تزال نيو أورليانز في مرحلة إعادة البناء. ولا يزال العديد من الناس يعيشون في مساكن مؤقتة، وقطاعات واسعة من الأحياء الفقيرة مليئة بالمنازل المهجورة. وخلال مرور كل ذكرى سنوية، تجلب تلك الذكرى الانتباه الوطني ثانية إلى ذلك الدمار، إلا أن القصة تتلاشى لاحقاً في وسط الأخبار الأخرى. إن سكان نيو أورليانز يعلمون بأن عملية إعادة

البناء مستمرة؛ فلا يزال هنالك الكثير لفعله. إنهم لا يمتلكون باتماناً ذو خطة بارعة ليسحب بها المدينة من على حافة الهاوية، ولكنهم يمتلكون مساعدات حكومية، وقوات حرس وطني، وضباط شرطة، ومتطوعين من جميع الأصناف يأتون لنجدتهم. لا تزال هنالك العديد من النقاشات الساخنة حول ما إذا كان هنالك متابعة كافية؛ فالدمار كان كبيراً، والعديد من الناس لا يزالون يعانون.

الحجاب الخفيف

تركنا قصص غوثام الخربة ونيو أورليانز الغارقة مع رسالة مختلطة. إننا نتساءل كم نحن قريبون، بمجتمعاتنا المختلفة، من الغرق في الفوضى، ما الذي يتطلبه الأمر ليمزق ذلك الحجاب الخفيف للنظام؟ ولكن على الطرف الآخر، فإننا نرى قصصاً بطولية لأشخاص يساعد أحدهم الآخر للوقوف في مواجهة التحديات القاسية. إن الفوضى هي عدو باتمان الأعظم: فقد أحتفل مجرمو أركام المجانين بغوثام المشلولة، مدينة تحكمها الفوضى. ولم تكن حملة باتمان ضدهم فقط، ولكنها، بشكل أكثر أهمية، كانت ضد ما يمثلونه. وعلى الرغم من أننا غالباً ما نأخذ النظام الاجتماعي كأمر مفروغ منه، إلا أننا قد نمثل خوفنا متأصل الجذور حول ما إذا كنا سننجو إذا ما تقوض ذلك النظام في يوم ما. يبرز باتمان كحامٍ للنظام الاجتماعي، وإن كان عمله خارج الإطار القانوني مثيراً للجدل.

هذه الصورة كانت قد ترددت مراراً على أذهان القراء، سواء أكانوا قد عبروا عنها أم لا، منذ العام 1939، وهي صورة لا يزال باستطاعتها تشجيع أولئك الذين يدركونها اليوم ويقاثلون ضد استثناء الفوضى، كما نواصل مواجهة كوارث بحجم كاترينا Katrina. ولحسن الحظ فإنه سيكون لنا أبطالنا الخاصين في ساعة حدوث تلك المضاعفات، وهم أناس عاديون سيرتقون لمستوى تلك التحديات.

1- تم جمع معظم هذه القصة في خمسة مجلدات، No Man's Land المجلدات 1-5 (1999-2001)، وسيتم الإشارة إليها في النص على أنها NML1، NML2، وهكذا دواليك. بعض أجزاء القصة لم يتم طباعتها في هذه المجلدات، وبالإمكان إيجادها في الأعداد المرتبطة بسلسلة باتمان الصادرة من العام 1999 حتى 2000.

2- تشمل هذه القصص عدداً من الإصدارات بين عامي 1999 و2000. تقع Aftershock ضمن Batman الأعداد #555-559، و Detective Comics ضمن #722-726، و Shadow of the Bat ضمن #75-79، و Batman Chronicles ضمن #14. وتتضمن Road to No Man's Land، قصة Batman #560-562، و Detective Comics #727-729، و Shadow of the Bat #80-82.

3- أعداد Batman #560-562 (ديسمبر 1998، فبراير 1999).

4- آلان برايد "نيو أورليانز في مخاض كاترينا، وهلاكها"، WWLTV.com، الثاني من سبتمبر 2005.

5- توماس هوبز "الليفياثان" (طبعة نورتن ذات الهوامش) (New York: W. W. Norton)

(1996)، الكتاب الأول، الفصل 10-18.

6- أنظر بريت تشاندلر باترسون "حول العث والرجال: طرق الخلاص في جزيرة الفرص الثانية"، في كتاب الخسارة والفلسفة: للجزيرة أسبابها، تحرير شارون كاي (2007 Malden MA: Blackwell).

7- أنظر "التجريم في نيو أورليانز أثناء إعصار كاترينا" لسارة كوفمان، الحادي عشر من يونيو 2006، <http://www.understandingkatrina.ssrc.org>.

8- توماس هوبز "الليفياثان"، الكتاب الأول، الفصل 20.

9- نيكولا مكيافيلي، "الأمير" (2005 New York: Oxford Univ. Press) [1532]. أحد النقاشات الرئيسية لهذا العمل هو أن على الحاكم أن يكون على دراية

بسمعته الإجتماعية. فلا يكفي أن تكون فاضلاً فقط، بل على رعاياك أن يروك كذلك أيضاً.

10- راجع عمل ستانلي هورفاس "المملكة المسالمة" (Notre Dame IN: Univ. of Notre Dame Press 1983)؛ وعمل هـ. ريتشارد نيبور "معنى الوحي" (New York: Collier Books 1960 [1941])؛ وعمل جون هوارد يودر "سياسة المسيح" (Grand Rapids MI: William B. Eerdmans 1992) [1972].
تزيل فلسفة هوبز الله من السياسة الدنيوية بحيث يكون من السهل أن نرى لماذا رأى عدد من مؤيدي فكره ميلاً إلحادياً لها، على الرغم من أن هوبز نفسه نفى وجود مثل هذه العلاقة.

11- كريس كارول "الأمل في الجحيم: من ساحل الخليج وحتى أوغندا - بلوغ المساعدات الإنسانية"، ناشيونال جيوغرافيك، ديسمبر 2005، <http://www7.nationalgeographic.com/ngm/0512/feature1/index.html>.

12- أنظر "Visitor" في NML3.

إدارة غوثام

بقلم: توني سباناكوس

”هل باستطاعة أحد ما أن يخبرني ما نوع العالم الذي نعيش فيه، حيث يرتدي رجل ملابس وطواط ليحصل على كل الاهتمام الصحفي خاصتي؟ هذه المدينة بحاجة الى حقنة شرجية!“.

- الجوكر، من فلم باتمان عام 1989.

غوثام هي التي جعلتني أفعلها

إن هزيمة الأشرار المريعين، باستخدام أدوات مذهلة، وتركهم في حالة من الدوار بعد استيقاظهم هو أمر مثير للإعجاب. ولكن أكثر ما يثير الدهشة في أمر باتمان هو لماذا وكيف يأخذ لباسه الضيق ويشغل نفسه بمعضلات المساء في المقام الأول؟. إن قصة أصول باتمان قد تكررت حكايتها مرات عديدة وبطرق عديدة، ولكنها تركز دائماً على الطفل الذي شهد مقتل والديه وكبر ليصبح وطواطاً محارباً للجريمة.

أغلب التحليلات التي تناولت أفعال باتمان ودوافعه، ومن ضمنها فلم Batman Begins 2005، تركز على التأثير السايكولوجي لهذه الحادثة على بروس واين/ باتمان. في هذا الفصل سنتخذ نهجاً مختلفاً، ونطرح فكرة بأن غوثام، ولا سيما حكومتها، هي مصدر قلق باتمان. حيث قتل توماس Thomas ومارثا Martha واين لأن الدولة لم تكن قادرة على الحفاظ على القانون والنظام، وردة فعل بروس واين كانت بأن يصبح محارباً للجريمة بصفته باتمان، محاولاً تصحيح انعدام النظام في مدينته. وعلى الرغم من تطرفها، فإن ردة الفعل هذه لا تعتبر فريدة. كل الشخصيات الرئيسية تقريباً في فريق باتمان يقاومون الدولة إما بصفته ضعيفة جداً أو محدودة للغاية. إن لباتمان وجيم غوردن رؤية أكثر دقة للسلامة العامة وذلك ما يجعلهم يدعمون السلطة ولكنهم يرفضون سلطتها الكلية في مجال الأمن. وهذا يسلط الضوء على الطبيعة غير المستقرة للحكم السياسي، وهو يفسر أيضاً لماذا باتمان (وبالتالي غوردن) لديهم مثل إشكالية العلاقة هذه مع الولاية.

هل نحن بحاجة لأي أيقونات منطرفة، شرعية وعنيفة؟

«أسرع من رصاصة منطلقة، وأقوى من قاطرة، قادر على القفز الى قمم مباني شاهقة بقفزة واحدة...» كل تلك، بالإضافة الى قوى أخرى، كانت قد سمحت دائماً لسوبرمان بخدمة الصالح العام، والعدالة، والطريقة الأمريكية. إنه يتيم من كوكب آخر، وولائه للبلد الذي نشأ فيه غير مشروط. يساوي سوبرمان بين الصالح العام والطريقة الأمريكية كالجندي الصالح الذي تمذوب فيه قبل حوالي 70 عاماً. وبسبب حبه لبلده التي تبنته، يعترف سوبرمان بسلطة الدولة، والتي بدورها أذنت له بالتصرف بالنيابة عنها. وعندما قام سوبرمان بإنقاذ مدينة غوثام من خطر سقوط رأس نووي عليها في The Dark Knight Returns (1986؛ سادعوه من الآن فصاعداً

بالاختصار DKR)، فقد كان استخدامه للقوة مرخصاً وبالتالي "شرعياً" وذلك لكونه عميلاً لدى الدولة. غير أن جهود تقليص أنشطة الجريمة التي يقوم بها باتمان غير مرخصة أو مشروعة.

وقد أنتج هذا توتراً مشيراً للاهتمام، قام فرانك ميلر Frank Miller باستكشافه في DKR. السوبرمان الخاص بميلر هو بمثابة الفتى الذهبي الذي قرر اللعب مع البشر وحكومتهم بلطف. وقد كافح لفهم مزحة بروس واين "إننا بالطبع مجرمون.. ولطالما كنّا كذلك، إذ علينا أن نكون مجرمين". يعتبر سوبرمان بروس صديقاً، ولكنه كان يفهم النظام، والجريمة، والعالم بشكل مختلف جداً. وعلى الرغم من الصداقة التي تجمعهما، فلم تكن لسوبرمان أي شكوك حول الطرف الذي سيدعمه إذا ما تحتمت المواجهة بين باتمان والدولة. لقد قام أول الأمر بتحذير بروس بصراحة، قائلاً: "إن الأمر كالتالي، بروس عاجلاً أم آجلاً، سيوجه لي أحدهم أمراً بإلقاء القبض عليك، شخص يمتلك السلطة"، بعدها، وبصفته ممثلاً للحكومة، قام بقتل (أو هكذا كان يعتقد) باتمان.

عرّف عالم الاجتماع الألماني ماكس فيبر Max Weber (1864 - 1920) الدولة باعتبارها المؤسسة التي تحتكر استخدام الإكراه الشرعي في منطقة معينة، ومن خلال الشرطة والجيش، فإن الدولة -وفقاً فقط الدولة- من شأنها أن تفرض السلطة. واستخدام العنف من قبل الجهات غير المرتبطة بالدولة (كالإرهابيين والثوار والمجرمين وجهات الأمن الأهلية)، يحدث أحياناً، يكون مفهوماً في بعض الأحيان، ولكنها لا يمكن أن تكون مشروعة أبداً. إن معظم الأبطال الخارقين، حتى لو كان ذلك من دون قصد، يلعبون دوراً تخريبياً وذلك لأن القليل منهم فقط مرخص رسمياً أو مكلف من الدولة لاستخدام الإكراه من أجل حراسة النظام العام (باستثناء فترة الحرب العالمية الثانية والحرب الباردة، عندما قام أبطال

مثل كابتن أمريكا Captain America وجمعية العدل الأمريكية Justice Society of America بالعمل مع الحكومة الأمريكية لقتال النازيين، والسوفيت، والفضائيون القادمون من مجرات بعيدة، وعفاريت أخرى).¹ وباتمان، مع ذلك، يعتبر تخريبي بشكل خاص، خصوصاً بتجسده كـ"فارس ظلام" (في قصصه المبكرة، ومرة أخرى بعد 1986)، لأن مفهومه عن النظام والخير يتجاوز الدولة؛ حيث أن استخدامه للعنف هو إضافة لما للدولة، وليس بالتنسيق معها. وتحدي احتكار الدولة للاستخدام الشرعي للعنف يبدو جلياً في تصوير ميلر لباتمان على النقيض من سوبرمان والمفوض يندل Yindel.

إن عودة باتمان في DKR تتزامن مع ارتفاع معدلات جرائم العنف في مدينة غوثام (من قبيل الصدفة، أن قصة ميلر التي ظهرت لأول مرة في عام 1986 كجريمة كانت قد زخرفت نيويورك، كنموذج لغوثام). يتم تصوير العمدة فيه كشخص فارغ لا يهتم سوى بنيل أصوات الناخبين، وكسياسي ضعيف لا يمتلك أي مكانة في أنشطة باتمان حتى يتم فرضه عليه من قبل أحد مساعديه. وعندما يحين الوقت لاختياره خلفاً للمفوض المتقاعد غوردن، يقوم العمدة باختيار إيلين يندل Ellen Yindel. كان ليندل مسيرة مهنية ناجحة جداً في محاربة الجريمة في شيكاغو، ولكن شيكاغو ليست غوثام. حيث تعجز يندل عن فهم خفايا غوثام وعلاقتها بغوردن وباتمان. لقد كانت تدرك بشكل صحيح أنها قد ورثت وضعاً كانت تهيمن عليه فوضى ظاهرية. ولكن جهودها لفرض النظام كانت تعتمد على تفسير الوضع كـ"أبيض وأسود" بالنسبة للقانون والذي يرى باتمان كمقتص غير شرعي و، بحكم التعريف، كمجرم. ثم قامت بتبرير هذا الموقف قائلة: "على الرغم من تفشي وباء الجريمة في غوثام، فأنا أعتقد بأن ملاذنا الوحيد هو تطبيق القانون. أنا لن أشارك في أنشطة المقتصين غير الشرعيين. ولذلك، وبصفتي مفوض

الشرطة الخاصة بكم فأنا أصدر أمراً بإلقاء القبض على باتمان بتهمة التكسير والاعتحام، الاعتداء والضرب، وخلق خطر عام“.

ربما يتعرض محبو القصص المصورة للصدمة بسبب هذا، ولكنها استجابة منطقية للغاية، وخاصة وهي صادرة من ممثلة للدولة والتي تتفاخر بـ “القانون والنظام“. إن مشكلتنا، بصفتنا قراءً ومعجبين، هو أننا نعلم بأن القانون والنظام ليسا مرتبطين تماماً. ففي بعض الأحيان يكون هنالك القليل من النظام الذي لا يستطيع القانون تحقيقه بشكل جيد، وهذا هو بالضبط ما يجعلنا نحتاج باتمان في المقام الأول. ولكن يندل، على الأقل حتى نهاية DKR، كانت عمياء لكي ترى ذلك لأنها تفهم بأن الدولة هي المكان الوحيد للقانون والنظام. إذا كانت الدولة لوحدها هي التي تستطيع أن تفرض القانون بشكل شرعي، وأن تستخدم العنف في هذه العملية، فمنطقياً ستكون أي أعمال عنف أخرى غير شرعية وإجرامية، بغض النظر عما إذا كانت نواتجها لمصلحة الخير أم لا. وبعد كل ذلك، حتى لو كانت غوثام أكثر أمناً بفضل باتمان، فهي لم تعد “نظامية“ بعد الآن، منذ أن قبلت بشكل صريح فكرة أن فرد واحد بإمكانه استخدام العنف بصورة غير شرعية. وهذا سيفتح الباب أمام مقلدين بقدرات أقل ودوافع مشكوك فيها (كما يظهر ذلك DKR من خلال “أبناء باتمان sons of Batma“).

من زقاق للجريمة إلى مدينة الخطيئة: هوبز وغوثام

تعلم بروس واين اليافع عن الحاجة لوجود شخص ما لكي يفرض النظام في زقاق للجريمة، تحت إنارة شارع وحيدة، بين جثث والديه توماس ومارثا. وكبقيتنا، كان يفترض بأن الدولة ستحفظ النظام وتمنع العناصر الإجرامية عن إيذاء الأفراد وتقف بوجه سعيهم غير القانوني خلف مصالحهم الخاصة. ولكن السرقة التي تحولت إلى جريمة قتل مزدوجة غيرت كل شيء.

لقد ولد باتمان في مدينة فشلت فيها الدولة في أهم مسؤولياتها والمتمثلة في الحفاظ على سلامة العامة، حيث "العقد الاجتماعي" بين السكان والدولة هو الأكثر أهمية. إن الحياة في غوثام مخيفة، واهية ورخيصة؛ حيث الخطر يترصد في كل مكان. بالتأكيد، لا تستطيع أي حكومة أن تمنع جميع الجرائم، ولكن بروس يعلم بأن الحكومة لا تستطيع، لوحدها، أن تضمن النظام. في 1987 Batman: Year One، يعيد ميلر رواية أصول باتمان. إذ تبدأ القصة مع وصول المفوض غوردن الى غوثام بواسطة القطار وعودة بروس واين الى المدينة بالطائرة. كلاهما يعلمان بأنهما يدخلان مدينة ساقطة، حيث خسرت فيها الحكومة السيطرة لمصلحة الجريمة، وأصبح تحديهم الشخصي هو حل تلك المعضلة. وعلى مدار قصة Year One سيتعلم كل شخص كيف أن الجهود الشخصية تستلزم التعاون مع الآخرين، وفي بعض الأحيان في تجاهل، أو حتى تحدي الدولة.

من دون دولة لتفرض النظام، ستكون الحياة عبارة عن "عزلة، فقر، قذارة، وحشية وقصيرة": وهذا ما جادل فيه توماس هوبز (1588 - 1679) في الليفيثان، المنشور بعد حوالي عقد من الحرب الأهلية البريطانية.² إذ يتصور هوبز العالم الذي كان قائماً قبل وجود الحكومات، فيه كان للبشر حرية غير محدودة، ولكنهم منقادون لعواطفهم، وسرعان ما تتحول الحرية إلى انحراف، ودولة الطبيعة ستتحول الى حرب الكل ضد الكل. ثم لن يكون هنالك نظام ولا إمكانية للعدالة. وستصبح الأمور ظالمة لدرجة ستدفع الإنسان لأن يتخلى عن كل حرياته تقريباً لأجل سيادة بإمكانها وضع نظام وحمايته. وهذا، وفقاً لهوبز، هو أصل الحكومات.

تبدأ معظم قصص باتمان مع كون غوثام غير قابلة للحكم، حيث تكون مكاناً قد تحطم فيه المجتمع ليصل الى حالة فوضى هوبزية. تعطينا شخصيات مختلفة من سلسلة باتمان رؤية حول كيف لسقوط الدولة أن يقوض النظام

وكيف للأشخاص أن يستغلوا حدوث ذلك أو يعملون على تجاوزه. فعلى سبيل المثال، عندما وصل غوردن الى غوثام في Year One، تم استقباله من قبل المحقق فلاس Flass، وهو شرطي فاسد، والذي قام بأخذه للقاء المفوض غيليان لويب Gillian Loeb، والذي يدير سلك الشرطة كفتى ثانوية كبير بصفتها شبكة حماية لنخبة المدينة الأقوياء، وسياسيين، وتجار مخدرات أقوياء. عندما رفض غوردن أخذ رشوة من أحد القساوسة، قام فلاس وبرفقته بعض الضباط الآخرين بمباغتته وضربه. لاحقاً، يرد غوردن الجميل لفلاس ويعود الفضل لفلاس بتعليم غوردن ما يعنيه أن تكون شرطياً في مدينة غوثام.

عندما ظهر باتمان لأول مرة، نصب غوردن فخاخاً في محاولة القبض عليه، ولكن المفوض أخبره بأن لا داعي للقلق حول باتمان: فبعد كل شيء، هو يقوم بالحد من الجريمة في الشوارع، وذلك لا يخل بعمل لويب. فقط بعد مداهمة باتمان لعشاء خاص لنخب غوثام (ومن ضمنهم لويب) وتهديدهم، وضع لويب مهمة القبض على باتمان على رأس أولوياته. وبدلاً من ترسيخ النظام، كانت دولة لويب تشذ عن ذلك. كان التأثير واسعاً للدرجة الذي أثر على غوردن أيضاً. حيث قام على المستوى الشخصي بخيانة زوجته الحامل باربرا مع ضابط زميلة له، وهي الرقيب سارة إيسن Sergeant Sarah Essen. مهنيّاً، كان قد تضارب مع نظام لم يكن يستطيع فهمه، خصوصاً بعد أن رأى وتعلم أكثر عن باتمان. فأستلقى في سريره، أنقلب على جنبه وحقق الى مسدسه الذي في يده عندما كانت باربرا نائمة، وأستغرق يفكر:

”لا يجب عليّ التفكير . . . ليس بشأن باتمان. إنه مجرم، وأنا شرطي. الأمر بهذه البساطة، ولكن - لكن أنا أسكن مدينة حيث يستخدم فيها العمدة ومفوض الشرطة أفراد الشرطة كقتلة مأجورين . . . لقد أنقذ تلك المرأة العجوز وأنقذ تلك القطعة. حتى أنه دفع ثمن تلك البدلة. إن قطعة

المعدن التي في يدي تبدو أثقل من أي وقت مضى“.

مثل سوبرمان ويندل في DKR، يقوم لويب وأتباعه في Year One بفرض النظام على مدينة غوثام. ولكن على النقيض من سوبرمان ويندل، فأن نواياهم بالكاد تستحق الثناء، وكعملاء للدولة، فهم لم يفشلوا فقط بمنع استخدام الناس من غير الشرطة للعنف، ولكنهم قاموا فوق ذلك باستخدام العنف بطرق غير شرعية. والأهم من ذلك، وعلى الرغم من أن لديهم القدرة على فرض القانون وترسيخ النظام، وحماية أرواح السكان، فقد قاموا بالسماح بتفشي حالة من الفساد في مدينة غوثام لأنها تشكل غطاءً على نشاطاتهم غير الشرعية. بدلاً من أن تضع الدولة حداً لفوضى دولة الطبيعة، كما أمل هوبز، فقد كانت الدولة نفسها هي أحد المشاركين في حرب الكل ضد الكل.

قليل من الأمن

يقدم فشل الدولة في الحفاظ على أهم مسؤولياتها تفسيراً لأصول الحاصد The Reaper، وهو أحد الأشرار في Batman: Year Two (1988). من الواضح جداً بأن بداياته هي مرآة لبداية لباتمان: حيث تم الاعتداء على جودسون كاسبيان Judson Caspian وزوجته وإبنته قبل عدة سنوات أثناء عودتهم من الأوبرا، وقتلت زوجته خلال ذلك الاعتداء. فشل الدولة في توفير النظام قاد كاسبيان لأن يصبح الحاصد، ودخول إبنته راشيل Rachel الى الدير في نهاية المطاف. (سنقوم بالتركيز هنا على الحاصد، ولكن من المثير للاهتمام أنه وإبنته كلاهما كانا يبيحثان عن إستحضار النظام الى عالم الخطيئة والفجور، وكلاهما يفعلان ذلك بمعزل عن الحكومة). يبدأ الحاصد مسيرته المهنية بقتل أربعة سارقين، قائلاً للضحية الذي تعرض للسرقة ”لا شيء لتخافه. قل للعالم بأن الحاصد قد عاد . . . وسينقذ هذه المدينة برضاها، أو

من دونه“. المدينة الساقطة بحاجة إلى الإنقاذ، وبدلاً من الانخراط في عمل جماعي أو تعبئة سياسية، حمل كاسبيان السلاح ليبدأ حرب رجل واحد.

إن التشابهات والاختلافات بين باتمان والحاصد بدت جلية عندما ظهر باتمان بعدما كان الحاصد يطارد عاهرة: ”الباتمان، إيه؟ يقولون بأنك تواصل القتال الذي بدأته أنا. إذا كان الأمر كذلك، أثبتته الآن وتنحى جانبا“. يرفض باتمان ذلك لأن الحاصد يسعى لشن ”مذبحة جماعية“ في الحين الذي يسعى فيه هو لتحقيق العدالة. ثم يستهدف الحاصد ويبي غلونكا الكبير Big Willie Golonka، وهو عضو عصابة في الأمن الوقائي، والذي قام بقتله جنبا إلى جنب مع حرسه. حيث أن الدولة التي فشلت في حماية زوجته تقوم الآن بحماية عضو عصابة. وهذا الأمر غير معقول أو مقبول. الشرطة كعملاء للدولة ”يجب أن يُعلموا أن أولئك الذين يحمون الأشرار عن دراية... يجب أن يعانون نفس عقوبات أولئك الذين ارتكبوا تلك الشرور!“ الدولة، كما رأها الحاصد، قد قلبت العالم رأساً على عقب، ونسيت بأنها موجودة لتمنع نشوب حرب رجل ضد رجل. ووظيفته كانت إعادة النظام إلى العالم الهويزي (المترجم: نسبة إلى توماس هوبز، ودولة الطبيعة)، ولكنه فعل ذلك كليفيثيان مستقل. الليفيثيان الخاص بهوبز، من جانب آخر، يحل مشاكل دولة الطبيعة من خلال عقد إجتماعي جماعي، وليس من خلال استخدام القوة المفرطة بشكل فردي.

أحد أكثر أشرار باتمان إثارة للاهتمام هو هارفي دينيت Harvey Dent، والمعروف أيضاً بأسم ذي الوجهين. دينت هو مدعي عام المقاطعة الشغوف وغير القابل للإفساد والذي يدعم باتمان ويطارد مجرمي غوثام الكبار، حتى أولئك ذوي الروابط السياسية منهم (شاهد Year One على سبيل المثال). وعندما أُلقي عليه حمضٌ أثناء محاكمته لأحد زعيم العصابات، تشوه وجه دينت وأخذ هويته الجديدة المعروفة بذي الوجهين. إن الأمر ليس فقط أن

نصف وجهه بأنه مشوه الآن، ولكن ماهيته قد تغيرت أيضاً. هذه ليست مجرد قضية شبيهة بالدكتور جيكل Dr. Jekyll حيث يحاول فيها قمع هويته وتهئية الظروف الملائمة لظهور مستر هايد غير القابل للكبت. لم يتمكن هارفي دينت أن يخضع العالم للنظام بواسطة القانون. وفي الحقيقة، فأن كونه مدعياً عاماً قد عرّضه لأن يكون هدفاً وحوله جسدياً الى النصف وحش الذي هو عليه.

ولا يزال ذو الوجهين أحد شخصيات باتمان التي أستجابت لإنحطاط الدولة الفاشلة وانحذارها للدولة الهوبزية حيث حرب الكل ضد الكل. حيث في كل القضايا التي مرت، لم تُقابل غوثام الهوبزية بسلطة فعالة قوية. في قضية لويب، أختارت الدولة إتباع إجراءات ضارة، معلنة نفسها كدولة حرب. والحاصد كان إستجابة وحشية ومتطرفة لفرد بسبب فشل الأمن الجماعي التي تم التعاقد مع الدولة لتوفيره. هارفي دينت من ناحية أخرى كان صادقاً ولكنه لم يكن عميلاً فعّالاً للدولة في نهاية المطاف. إنه عجز الدولة عن التصرف، والمدرّك من الداخل، الذي حوله الى شخص يحاول إستعادة النظام من خلال ممارسة الجرائم.

أضداد باتمان: التمردات النيتشوية

تفترض مفاهيم ويبر Weber وهوبز عن الدولة بأنها مؤسسة شرعية تجلب الأمن، وبأنها "صالحة". ومع ذلك، يرى فريدريك نيتشه Friedrich Nietzsche (1844 - 1900) الدولة كتهديد للتعبير عن الذات ومجاهدة النفس. حيث تحاول الدولة بشكل ملح أن تغير سكانها وتجعلهم على صورتها. ففي كتاب هكذا تكلم زرادشت، يقول نيتشه على لسان الدولة: "لا يوجد شيء أعظم مني على الأرض: أنا هو الأصبع الذي يأمر به الله"³. تمثل الدولة النيتشوية "صناً جديداً". صنماً ليس أقل قمعاً من سابقه وهي

تقوم بتعريف الخير والشر، وتعلق "السيف ومئات الشهوات" فوق الإيمان. لا يرى شرير في باتمان ذلك بالوضوح الذي يراه أناركي Anarky، وهو مرافق مخدر بالفعل الفوضوي في Batman: Anarky 1999. هدف أناركي هو جلب الحرية للناس الذين أستعبدوا بالنظام الفاسد للسياسة والدين والرأسمالية. ومثل الحاصد، كان أناركي يظهر من خلال مكافحته لشخصيات غير معروفة مثل تاجر للمخدرات، أو شركة من النوع المسبب لتلوث البيئة، أو بنك كبير قام بتهديم وتطهير منطقة كانت مسكونة من قبل من لا مأوى لهم. وقد أشار ألفريد إلى أوجه الشبه بين أناركي وباتمان لبروس واين، والذي أجاب بسرعة "أعلم، أعلم... طرقي ليست دائماً قانونية أيضاً. ولكن هنالك اختلاف ألفريد... أنا أستخدم العنف عندما يكون ضرورياً جداً فقط، وليس كطريقة للعقاب... ليس في الآونة الأخيرة على كل حال!".

يمكن رؤية حاجة أناركي لتنظيم العالم من خلال رسالته المطولة لوالديه والتي شرح فيها شخصيته الحقيقية، تدرسه الفوضوية للجانحين الأحداث الآخرين، وحلمه في نهاية الرواية المصورة. في حلمه، يحاول أناركي "إزالة تأثير عمليات غسل الدماغ التي تعرض لها سكان غوثام، ليتمكنوا من رؤيتها على حقيقتها"، حيث يرى القياديون الإداريون مشهد العالم من زجاج سيارة الليموزين، في الحين الذي تنام فيه عائلات في صناديق من الورق المقوى - رجال أعمال فاسدون يزدهرون، في الحين الذي يتسول فيه رجال شرفاء في الحضيض - لتنفجر الجريمة. في الحين الذي يخاف فيه رجال محترمون من السير في الشوارع التي دفعوا ثمن ضرائبها. كل الحياة البشرية هناك من الأفضل الى الأسوء، من الملوك في حصونهم وصولاً إلى الحثالة في حضائرهم. الجميع يعتقدون بأن الأمر أن يكون هكذا. أنا سأريهم بأنه ليس عليه أن يكون هكذا". في حلمه، يخلق أناركي واقعاً مريراً حيث لا

توجد هنالك دولة لتنظم سير الأشياء، حيث يخفق السياسيون في "أختبار الطفيليات" ويعتقلون في أماكن معزولة لكونهم "أعداء الشعب"، وحيث الشعب - في غياب الدولة - يصبح قذراً ووحشياً. إن المغزى من القصة هو أن النظام الفوضوي الذي يحاول أناركي أن يفرضه هو أسوأ من ذلك الذي يريد تغييره. بحثه عن مبدأ تنظيم أقل قمعاً من فشل الدولة كان أسوأ.

وعلى النقيض من ذلك، لم تكن أهداف الجوكر سياسية، ولكنها مرتبطة أيضاً بالنظام. إذ يُصوّر عدو باتمان الأساسي في DKR كمهرج لعبوب والذي يظلل دوافعه لخرق النظام بأفعاله الإجرامية الخبيثة: الحاجة لتعطيل نظام ممل ومقيد. لا تفرض الدولة هذا النظام لأغراض سياسية بقدر ما تفرضه لأغراض إجتماعية، ويستجيب الجوكر من خلال محاولة تقويض أي نظام. في DKR، يؤدي الجوكر حيل بنطاق محدود في مصحة أركام حتى الوقت الذي يعلم فيه بأن باتمان قد تراجع عن تقاعده، حيث إن عودة باتمان تستدعي عودة الجوكر. باتمان ممل جداً، حيث أنه يفرض الكثير من النظام. على الجوكر أن يعود لغوثام لتقليل تأثير باتمان. ثنائية باتمان - المهووس بالنظام - والجوكر - الذي يحتاج لتحدي النظام - تروى بأفضل أشكالها عند تحدث الجوكر عن ضحاياه قائلاً لباتمان: "أنا لم أتوقف عن العدّ أبداً، ولكنك فعلت، وأنا أحبك لذلك".⁴

الثنائي دائم الفاعلية: باتمان وغوردن

يُفتتح Batman: Year Two بمقابلة تلفزيونية مع المفوض المعين حديثاً جيم غوردن:

المقدم: يبدو بأنك على علاقة جيدة مع أفراد شرطة غوثام، ولكن العديدين كانوا قد شككوا بعلاقتك مع ذاك الحارس المقنع، باتمان.

غوردن: علاقة قسـمي مع باتمان دقيقة.

المقدم: يشعر الكثير بأن باتمان ليس بأفضل من الخارج عن القانون صاحب الزي المميز الذي طاف بشوارع غوثام قبل عشرين عاماً مطلقاً على نفسه the Reaper الحاصـد.

غوردن: لقد تمت تلك المقارنة، ولكن للأسف، لم تكن عادلة تماماً.

المقدم: يقول البعض بأن رحيل الحاصـد المفاجئ هو ما تسبب بإنشاق الإضطراب الهائل الذي ولّد الجريمة وفساد الشرطة.

غوردن: لو أمكنني أن أنهي كلامي: أنا لا أستطيع التحدث بالنيابة عن قسم الشرطة الذي كان موجوداً قبل عشرين عاماً، ولكن باتمان يعمل بالتعاون مع الشرطة، وليس ضدها.

المقدم: وهل باتمان هذا وكيل مخول لاستخدام القوة؟

غوردن: لا، إنه يعمل بدقة من تلقاء نفسه. ولكنه عرض على خدماته. تعتبر هذه المحادثة صورة مصغرة لفهم باتمان وغوردن للنظام الذي يتجاوز الدولة. الدولة ليست المخول الوحيد الذي يمكنه استخدام العنف بصفة مشروعة (كما بين ويبر)، وهي تلعب دوراً بناءً في توفير النظام (ضد نيتشه). ولكن المجتمع يمتلك دوراً ليلعبه في توفير الأمن: وباتمان يرمز ويُلهم لفعل ذلك، وغوردن يعلم هذا.

وفي الوقت ذاته، لا تعتبر أفعال باتمان شرعية تماماً. إذ عندما ميّز بروس واين نفسه عن Anarchy أناركي، قال: "الحقيقة هي، لا يمكن السماح لأي رجل بأن ينصب نفسه كقاض، وهيئة للمحلفين وجلاد". وبالطبع، ورغم أنها بدت غالباً مكررة في مجلات القصص المصورة الأولى أو المسلسلات التلفزيونية المبكرة، فدائماً ما كان باتمان يضرب الأشرار ويقيدهم لكي تستطيع الشرطة القبض عليهم بعدها. حيث قام مرة بمحاصرة البطريق ودفعه الى

الإستسلام بشكل منتظم، وقام بسجن إيفي والجوكر وكثيرين غيرهم في مصحة آر كام، عالماً بأنهم سيخرجون قريباً من خلال بوابتها أحراراً. لباتمان القدرة على إعلان العدالة والمعاقبة، ولكنه يرفض فعل كلاهما. ولهذا يتحدث عن مكانة الدولة (والمجتمع) في إقامة النظام والعدالة.

في DKR (صعود فارس الظلام)، تظهر الدولة ضعيفة، مليئة بالمنظمات المحبة والراعية والمتخصصين الذين يدعون بأنهم يتحدثون لأجل المجتمع ولكنهم في الحقيقة أبعد ما يكونون عما يفكر به الناس. إذ طالب مجلس الأمهات العمدة بإلقاء القبض على باتمان لكونه "ذا تأثير سلبي على أطفال غوثام". والمنظمة المعنية بحماية المجرمين من العنف المفرط طالبت بحماية الضحايا من عنف باتمان. وكان عالم نفس قد دعى باتمان حتى بـ "الفاشية الإجتماعية" بسبب جهوده المبذولة في إعادة تنظيم المجتمع وفقاً لرؤيته الخاصة. بعد نقاش كبير لم يؤدي لاتخاذ أي قرار واضح بشأن خطورة المتحولين، صرح العمدة قائلاً: "هذا الوضع كله هو نتيجة لقلّة كفاءة المفوض غوردن، وبسبب الأعمال الإرهابية لباتمان. أرغب بالجلوس مع زعيم المتحولين... من أجل التفاوض على تسوية". بعد ثلاث صفحات فقط قُتل العمدة على يد زعيم المتحولين في زنزانه سجنه بعد أصرار العمدة على عدم مرافقة الشرطة كحماية معه. مات لأنه لم يفهم حقيقة غوثام.

ومع ذلك، فإن العمدة قد أصاب حين أشار لغوردن بأصابع الاتهام كمسبب أساسي في حرية باتمان في مسعاه لملاحقة الأنشطة الإجرامية. وعلى العكس من العمدة، فقد فهم غوردن غوثام وفهم باتمان أيضاً. في DKR، حاول أن يشرح ذلك ليندل، ولكنها لم تبدأ برؤية ذلك إلا بعدما أدركت حقيقة نوعية الجرائم السائدة في غوثام، وكيف أن باتمان يعتبر رداً ضرورياً عليها. إن إنسجام غوردن مع باتمان نادراً ما ينظر إليه كما هو حقاً، كانحراف خطير في تطبيق القانون وتقصير في أداء الواجب. تناول عدد قليل من

القصص المصورة هذا الأمر، ولم يتم تناوله بشكل مباشر مثلما فعل Dark Victory (2001)، حيث كانت وكالة مقاطعة شابة وجميلة وليبرالية ومضللة تدعى Janice Porter جانيس بورتير قد واجهت غوردن بشكل مباشر. مشيرة إلى مجرم كان باتمان قد ضربه وأذاه، وقالت لغوردن: "لقد قام باتمان بإيذائه. بأي طريقة ترى بأن حقوقه المدنية لم تنتهك؟ ومما أفهمه، لم تكن هناك فقط في ساعة اعتقاله، بل كنت قد وقفت بنفسك وسمحت لذلك بالحدوث".

دائماً ما ينتهك باتمان الحقوق المدنية للمجرمين، وذلك لأنه لا يمتلك الصلاحية للتصرف كممثل للقانون، وغوردن يعلم ذلك، ولكنه لا يضع الحقوق والقانون قبل العدالة والنظام. حيث أنك تحتاج الحقوق لتحصل على العدالة، ولكن وكما قالت لانا لانغ Lana Lang في دفاعها عن باتمان في DKR "نحن نعيش تحت ظلال الجريمة... مع فهمنا غير المعلن بأننا ضحايا الخوف والعنف والعجز الاجتماعي. ثم ظهر رجل ليخبرنا بأن القوة كانت، وما زالت، دائماً بين أيدينا. نحن تحت الحصار، وهو يرينا بأننا نستطيع المقاومة". طوال Dark Victory، كان غوردن دائماً تحت الضغط، لأن بورتير تحاول إبعاده عن التواصل الخاطئ مع باتمان. وهذا يقوض جانباً أساسياً من أسطورة باتمان، والتي تتطلب ذلك الرابط بين الرجل العادل داخل النظام القانوني والرجل العادل خارجه.

إن العلاقة الشخصية غير الرسمية بين غوردن وباتمان هي أمر ضروري. فباتمان لن يتوانى عن انزال العقاب بالمجرمين، ولا يمكن لغوردن أن يعتمد على الشرطة فقط لكبح جماح الأشرار وفرض النظام. إنها يقومان في هذه العملية بتنصيب والحفاظ على نظام غير مستقر يجعل القارئ يؤمن بأنه شرعي. نحن نعلم بأن باتمان هو الوحيد القادر على التعامل مع رجال بأزياء مخيفة والغاز معينة والتي لا يستطيع حلها سوى الشيوعي السابق

بطل الشطرنج صاحب الثلاث عشر ث سنة. في الوقت ذاته، نحن نعلم أن باتمان لا يمكنه إنفاذ العدالة بشكل تام، حتى في قضية جو تشيل Joe Chill، قاتل عائلته. ربما سنهتف لثأر باتمان بمبرر أخلاقي، ولكننا سنراجع بعدها ونريد منه أن يتراجع. وكما قال محرر شخصية باتمان دينيس أونيل Dennis O'Neil منذ وقت بعيد: "القتل ليس شيئاً.. يفعله باتمان".⁵

ولكن في الحين الذي يريح فيه هذا النظام القراء، ويسمح لنا بأن نعلم بأننا يمكننا النوم في الليل لوجود شخص يحرس الضعفاء في أزقة الجريمة، والتي تهدد الدولة بشكل كبير. تؤمن الدولة بأن عليها احتكار الاستخدام المشروع للعنف. وما يهدد الدولة أكثر حتى من الأشرار الذين تحاربهم، هو باتمان، وبدرجة أقل غوردن، لأن باتمان يتحدى الدولة على احتكار الاستخدام المشروع للعنف. وهذا هو السبب في محاولة إصطياده في كل من Year One، وDKR، وهذا ما دفع الدولة لتحدي أفعاله في Year Two وDark Victory. المثير للسخرية في علاقة باتمان مع الدولة هي بأنه كلما قلل من معدل الجريمة وساهم في فرض النظام العام، كلما تحدى الدولة أكثر، حيث من خلال ذلك يتوضح بأن استخدام الدولة للعنف هو أمر غير فعال. وذلك ما يجعل غوردن ضرورياً لأن يمنع باتمان من أن يصبح تهديداً كلياً. يثق باتمان بغوردن وسيسلمه المجرمين، في المقابل يقوم غوردن بتقديم إستثناء لباتمان من احتكار الدولة لاستخدام العنف.

التنظير لحكومة

ربما نتساءل، كمعجبين، الى أي مدى نحن قادرون على تخيل الفجوة بين النظام والقانون. لا يمكن لأي دولة الإدعاء بأن بإمكانها ضمان أن تكون خالية من الأخطاء طوال الوقت. إذ قام كل من باتمان وغوردن معاً بصنع عالم يتجاوز إحساسنا بالمنطق والعدالة، وعلى الرغم من أن جميع

الشخصيات تحاول أن تفرض نظاماً من نوع ما على غوثام، ولكن بقي كل من باتمان وغوردن أكثر من يفعل ذلك بصورة شرعية. وهذا ما يغطي على زعزعة الدولة، ويظهر كيف أن على المجتمع أن يشارك في الدفاع عن نفسه، ويشير الى مدى أهمية العلاقات الشخصية والثقة في تحديد الخط الفاصل بين الاستخدام العادل للعنف والتنفيذ السليم للقانون. وبالطبع، فمن الممكن التنظير للدولة، والعدالة، والعنف بدون مناقشة باتمان، ولكن كما قد يقول الجوكر: "لم العناء؟".⁶

1- لإستكشاف أكثر حداثه لهذه المشكله، راجع كيف أثر "قانون تسجيل البشر الخارقين" على مجتمع مارفل للأبطال الخارقين في التحول الحديث للأحداث في "Civil War" و "The Initiative". أنا ممتن لمارك وايت لإقتراحه هذا المصدر.

2- توماس هوبز، الليفيثان، ((1985 [1651] New York: Penguin Books .xiii

3- "نيتشه القابل للحمل" تحرير والتر كوفمان (New York: Penguin Press) (1976)، الصفحة 161.

4- لمعرفة المزيد عن نيتشه وفرانك ميلر، راجع كتاب بريغرين ديك "نيتشه ضد سوبرمان: دراسة لعمل فرانك ميلر"، المجلة الجنوب أفريقية للفلسفة 26، العدد 1، 2007، من الصفحة 98-106.

5- روبيرتاي. بيرسون وويليام أوريكيو "ملاحظات من كهف الوطواط: مقابلة مع دينيس أونيل" في كتاب قاموا بتحريره بعنوان "الحيات العديدة لباتمان: مقاربات نقدية لبطل خارق وإعلامه" (New York: Routledge 1991)، الصفحة 19. للمزيد عن رفض باتمان للقتل، أقرأ الفصل الخاص بهارك د. وايت في هذا الكتاب.

6- أود شكر روب آر ب، ومارك وايت، ومايكل سباناكوس، وفوتيني للإقتراحات التي قدموها لصقل هذا الفصل.

وحشية الجوكر: هل يجوز تحميل الأمير المهرج مسؤولية أخلاقية؟
 بقلم: كريستوفر روييتشود

أضحك، تضحك لك الدنيا- أو هل سيفعل ذلك؟

الجوكر لا يلعب كل أوراقه. وهذا الأمر ليس بجديد بالطبع، على الأقل ليس بالنسبة للجوكر. وكما كان ينشد في The Killing Joke (1988) لآلان مور "لا تكن ها..ها..هادئاً، كن مجنوناً". ومن تسميم الأسماك على ميناء غوثام، الى وجوه العديد من الضحايا ليرسم عليها إبتسامة دائمة بهدف جعلهم نسخة من نفسه¹، وصولاً لمحاولة إطلاق بعض الصواريخ داخل شموع في كعكة عيد ميلاد ضخمة في الطبقة العليا من سماء غوثام²، كانت مخططات الجوكر الجنونية تلك قد أكسبته زنزانة خاصة داخل مصحة أركام. وحيث لا يميز الجنون الجوكر بين أعداء باتمان الآخرين - إذ هنالك ذو الوجهين على سبيل المثال، والعديد من سلوكياته المجنونة، لكن تصرفاته شديدة الجنون كانت قد أكسبته تميزاً نسبياً ليكون المنافس الرئيسي لباتمان.

لو كان الامر محصوراً بالأسماك الضاحكة واحتفالات أعياد الميلاد المجنونة، فقد نستطيع ترك الجوكر لهواياته دون المزيد من التفكير فيما

يفعل. ولكن نظرًا لأننا كعشاق لمغامرات باتمان مدركون تمامًا لكمية الألم الذي يصاحب أفعاله، فإن أفعال الجوكر غالبًا ما تكون مروعة بقدر ما هي سخيفة. فبعد أعداد لا تحصى من الأرواح التي تم سلبها بواسطة غاز الضحك للجوكر، قام الجوكر بضرب جيسون تود، التجسيد الثاني لروبين، حد الموت مستخدمًا عتلة حديدية، وأمام والدته، ومن ثم تفجيره ليذهب به إلى نقطة اللاعودة، وهي الموت.³ كما وأطلق النار على باربرا غوردون، ابنة المفوض جيمس غوردون، ثم جردها من ملابسها وصوّرها. وعندما قبض الجوكر على المفوض غوردون، قام بتجريد المفوض من ملابسه، وإرساله في رحلة ترفيهية في مدينة الألعاب، حيث أجبره على رؤية صور ابنته عارية، ومصابة بعيار ناري جعلها مشلولة.⁴ وهذا، وفقًا للجوكر، تم فقط لإثبات نقطة أن كل ما يتطلبه الأمر هو يوم سيء واحد فقط ليصل الناس الطيبون بالعادة إلى حافة الجنون.

لذلك فالجوكر لم يقم بأفعال إجرامية فقط، ولكنه يقوم أيضاً بأشياء فظيعة لا يمكن تصورها، أشياء تصل لتكون أقصى درجات الاشمئزاز الأخلاقي. ولكن كم هو مقدار اللوم الأخلاقي الذي يقع عليه؟ ربما كان ردنا الأول هو "هل تمزحون معي؟ إنه شرير، مقيت، وهو يمثل أقصى درجات الإدانة الأخلاقية." ربما يكون هذا صحيح، ولكن يجب علينا أن نذكر أنفسنا بالحقيقة التي بدأنا بها: ألا وهي أن جوكر لا يلعب حقًا كل أوراقه. حيث هناك شعور قوي بيننا - ليس مشتركًا عالميًا، ولكنه شائعًا أيضًا - أن الأشخاص المجانين حقًا هم في كثير من الأحيان غير مسؤولين أخلاقيًا عما يفعلون، وبالتالي لا يستحقون اللوم الأخلاقي على أفعالهم السيئة. ربما إذن، لا يمكن اعتبار الجوكر مسؤول أخلاقيًا عن أفعاله.

ولكن لو كان هذا صحيحًا، فنحن بحاجة إلى أن نسأل لماذا. وهنا تدخل الفلسفة إلى الصورة. ففي ما يلي، سنتفحص بعض الأمور التي على

الفلسفة أن تقولها حول هذه المسألة، بالنظر خصوصاً للضوء الذي يمكن أن يلقي على العلاقة بين الشخص الذي يتصرف بحرية، من ناحية، والشخص المسئول أخلاقياً عن ما يفعله من ناحية أخرى. وسنركز على هذا الأمر لأنه يبدو من الصحيح القول إن الشخص مسئول أخلاقياً فقط عن تلك الأعمال التي يقوم بها بحرية. لذلك إذا أردنا أن نخلص إلى أن الجوكر غير مسئول أخلاقياً عن أفعاله، فسوف نحتاج إلى القول بأن حالته العقلية لا تسمح له بحرية القيام بالأمر الشريرة التي يفعلها. هيا بنا نذهب ونحقق حول ذلك الأمر!

طرد بعض الوطاويط من برج الحراسة

يجب أن توضح أي ممارسة فلسفية جيدة الافتراضات الأساسية ذات الصلة التي يتم إجراؤها، ويجب أن توضح الفروق الهامة التي ستساعد في استكشاف الموضوع قيد المناقشة. سنبدأ إذن بتبني الافتراض الأكثر وضوحاً في تحقيقنا، وهو أن الجوكر مجنون حقاً.

من المسلم به أن القضايا المحيطة بالجنون معقدة ومتعددة الأوجه، وغالباً ما تقع ضمن مجالات علم النفس والطب النفسي أكثر من كونها ضمن الفلسفة. وعلى الرغم من ذلك، قدم بعض الفلاسفة، مثل ميشيل فوكو (1926 - 1984)، مساهمات مثيرة للاهتمام للغاية في هذا المجال من خلال الكشف عن كيفية تهميش مجموعات من الأشخاص من خلال وصمهم بالجنون.⁵ بقدر ما يمكن اعتبار مناقشات فوكو ممتعة إلا أنها للأسف، دفعت بعض الناس إلى التساؤل عما إذا كان الجنون موجوداً بالفعل. نحن لن نذهب إلى هذا الحد، بل سنقر بوجود عدة أنواع من الاعتلالات العقلية التي تبرر بشكل صحيح تصنيف الأشخاص الذين يعانون منها كمجانين. وسوف

نفترض كذلك أن الجوكر يعاني من واحدة أو أكثر من هذه الإعتلالات العقلية، مما يسمح لنا بالإشارة إليه بدقة على أنه مجنون.

ولكن قبل الانتقال كلياً من هذا الموضوع، فمن الجدير الدفاع عن هذا الموقف ضد الاعتراضات التي تقول بأنه موقف متطرف أو لا أساس له. يمكننا أن نتفق على أننا غالباً ما نطلق على أشخاص بأنهم مجانين عندما نجد سلوكهم غريباً، دون أن يعني ذلك أنهم يعانون بالفعل من بعض الإعتلالات العقلية الخطيرة. وهذا ليس هو الحال مع الجوكر. فمن المؤكد بأنه غالباً ما يفعل أشياء غريبة، ولا شك في ذلك - دعونا نواجه الأمر - حيث أن رسم إبتسامة على شفاه جميع الأسماك في الميناء يعتبر عملاً غريباً، لكنه يعرض أيضاً بعض السمات المميزة لإضطرابات حقيقية. وأحد الأمثلة هي موقفه تجاه الناس: ببساطة، فهو غالباً ما يعاملهم كأشياء وليس كأشخاص. فلم تطرف عين الجوكر عند إطلاق النار على باربرا غوردون في عمودها الفقري وتجريدها من ملابسها. هو لم يكن يريد قتلها أو إغتصابها. ولكنه، ببساطة، كان قد قرر بأنه يريد أن يثبت نقطة ما، وكانت باربرا بالنسبة له شيئاً مفيداً لمساعدته في إيصال هذه النقطة، ليست أكثر أو أقل أهمية إليه من الرحلة المهينة لوالدها في مدينة الألعاب والذي إستخدمه لنفس الغرض.

وهذا سلوك مضطرب عقلي كلاسيكي.

يفتقر الجوكر كذلك الى الشعور السليم بحماية الذات. ففي فيلم Batman Superman (1998)، كانت هناك لحظة مميزة عندما يكون ليكس لوثر و الجوكر على متن الطائرة معاً، يحاولان يائسين الهروب من قبضة باتمان وسوبرمان. يُفتح صندوق، وتتدحرج منه متفجرات نحو ليكس و الجوكر موشكة على الانفجار. يصرخ لوثر في حالة من الفزع ويحاول الفرار. بينما يبدأ الجوكر بالضحك ببساطة دون أي اهتمام بحياته. إن لم تكن هذه الأمثلة كافية، فربما احسن ألفريد بينوورث وصف الوضع

في فيلم The Dark Knight لعام 2008 عندما يقول عن الجوكر: "بعض الرجال لا يبحثون عن أي شيء منطقي. فلا يمكن شراءهم أو تخويفهم أو التعامل معهم بمنطقية أو التفاوض معهم. بعض الرجال يريدون فقط مشاهدة العالم يحترق". إن من الواضح أن الجوكر مجنون.

نحتاج بعد ذلك لمناقشة اختلاف مهم سيساعدنا في تجنب الارتباك لاحقاً، وهو الفرق بين المسؤولية السببية والمسؤولية الأخلاقية. فعندما ننظر إلى المسؤولية السببية، نسأل ببساطة ما إذا كان تصرف الشخص هو سبب حدث معين. افترض أن الجوكر يسمم ضحية غافلة بغاز الضحك، مما يسفر عن مقتلها. هل سيكون الجوكر حينها مسؤولاً عن وفاتها؟ بالتأكيد، فمن الواضح أن تسميمها بالغاز - هذا الفعل - كان بوضوح جزءاً من سلسلة من الأحداث التي أدت إلى موتها. وتعلق المسؤولية الأخلاقية بالثناء الأخلاقي أو اللوم المرتبط بفعل ما. لنفترض، وبتبسيط شديد، أن الشخص مسؤول أخلاقياً عن أي فعل فقط إذا كان يعتبر هو ذاته موضوعاً ملائماً للثناء أو اللوم الأخلاقي على هذا الفعل.

الآن ومع معرفتنا بهذه الأفكار، قد نميل إلى الاستنتاج بأننا قد قمنا بالفعل بتقليص مواقفنا: إذ لو منحنا الجوكر المسؤولية السببية عن أشياء مثل تسميم الناس، فإن ذلك سيكون متبوعاً بكونه مسؤولاً أخلاقياً عن تلك الأفعال. لكن لا يمكن أن يتبع بذلك، ويمكننا أن نذكر حالات أقل إثارة للجدل لمعرفة السبب. لنفترض أن باتمان قاد سيارته بالتمويل متوجهاً إلى المدينة، والنيران المنطلقة من خلفها كانت قد أزعجت الوطواط في كهفه. تنطلق الوطواط في ظلمة الليل وتشتت سائناً على طريق ريفي مجاور، لينحرف ويقود سيارته نحو خندق ما. سيبدو صحيحاً أن باتمان مسؤول بشكل سلبي عن سقوط السائق في الخندق - حيث أن بدء تشغيل التمويل هو جزء من سلسلة الأحداث التي أدت إلى انحراف السائق - ولكن لا

يبدو صحيحاً الإدعاء بأن باتمان مسؤول أخلاقياً عن حادث السائق. حيث أنه ببساطة لم يكن يستطيع أن يتوقع بشكل معقول تسلسل الأحداث التي تلت ذلك. لذا فإن مسؤولية الشخص عن شيء ما لا تجعل ذلك الشخص مسؤولاً أخلاقياً عن ذلك بشكل تلقائي. وهذا يفتح الباب أمام إمكانية أن يكون الجوكر، رغم أنه مسؤول بشكل واضح من الناحية السببية عن أفعاله الشريرة، أن لا يكون دائماً مسؤولاً أخلاقياً عنها.

وضع بطاقة أخرى على الطاولة (لا تقلق، إنها ليست بطاقة الجوكر)

هناك افتراض مهم آخر للدفاع عنه، وهو أن الناس العاديين مثلنا يتصرفون في الواقع بحرية. المشكلة هي أنه إذا لم يكن هذا صحيحاً - أي إذا لم توجد هنالك لدى أحدنا إرادة حرة - بذلك لن يكون أحد مسؤولاً أخلاقياً عما يفعله. وإذا كانت هذه هي المسألة، فإنه من غير المجدي التركيز على هذه القضايا من حيث صلتها بالجوكر، نظراً لأنه في نفس المركب الذي يوجد فيه الجميع.

ربما سيكون من الطبيعي أن نفكر بالسؤال "ولكن ما الذي يدفعنا إلى الاعتقاد بأننا لا نتصرف بحرية مطلقة؟" من المؤكد أن مثل هذا الادعاء يتعارض مع طريقة تفكيرنا وشعورنا العادية! فالطريقة التي تبدو بها الأمور من الداخل عندما نقرر ما علينا فعله هو أننا نواجه خيارات مشروعة طوال الوقت وأن نختار بينها بحرية. لماذا نعتقد أن معتقداتنا ومشاعرنا غير صحيحة تماماً في هذه المسألة؟

الإجابة تكمن في الحتمية: الرأي القائل بأنه في أي لحظة من الزمن، تكون حالة العالم في ذلك الوقت ثابتة تماماً أو محتومة من قبل الحالات السابقة في العالم (جنباً لجنب مع قوانين الطبيعة التي تدير المشهد كله). وهذا الرأي

جذاب لأسباب عديدة، فأحدها أنه يبدو وكأنه يتوافق مع فهم علمي ناضج للعالم. فإذا كانت الحتمية صحيحة، فنحن لسنا أكثر من مجرد نتاج أحداث بدأت قبل وقت طويل من دخولنا إلى المشهد. وبمواجهة الخيارات الظاهرة، فقد حدد بالفعل مسار الطريق الذي سنتبعه. إن هذا لا يترك مساحة كبيرة للإرادة الحرة.

أحدى الطرق للرد على هذه المسألة المقلقة، بالطبع، هي رفض الحتمية. هذا هو النهج الذي يسلكه بعض الفلاسفة لحسن الحظ، وفي بعض الأحيان يبررون موقفهم على أسس علمية، من خلال الاستشهاد بالحقائق عن العشوائية التي تعتبر من أساسيات ميكانيكا الكم كسبب للاعتقاد بأن الماضي لا يحدد المستقبل بشكل كامل. أو في بعض الأحيان، يجادلون ببساطة بأن الحتمية تشجع على الشغب، وهذا مبرر كافٍ لرفضنا لها.

غير أن آخرين يجادلون بأن فكرة الحتمية لا تتوافق مع فكرة الإرادة الحرة. ولنفكر في مثال يستند إلى ورقة مشهورة كتبها الفيلسوف هاري فرانكفورت (مواليد 1929).⁶ إذ لنفترض أن الجوكر قد رصد مبلغاً ضخماً من المال لبناء آلة غريبة تتعقب تحركات باتمان، والأكثر إثارة من ذلك، تتبع أفكاره. وعلاوة على ذلك، فهي قادرة على "التحكم" في ما يفعله باتمان. يتمثل الهدف النهائي للجوكر في استخدام هذه الآلة لإجبار باتمان على القيام بأشياء فظيعة، ولكن في الوقت الحاضر، هو يريد فقط تطهير غوثام من جميع الأشرار الخارقين الآخرين. لذا لنفترض الآن أن الآلة تتعقب باتمان بينما يواجه إيفي السامة Poison Ivy، والوضع هو أن قطعة الوطواط المعدنية Batarang (السلاح المعدني الذي يستخدمه باتمان غالباً في رميه لتجريد أعدائه من أسلحتهم أو على رؤوسهم لإفقادهم الوعي) مرمية بشكل جيد كفاية لتساعد باتمان على القبض على إيفي.

هناك تبدأ الأمور تصبح مثيرة للاهتمام. إذا اختار باتمان إلقاء الباترينغ

- إذا اتخذ هذا القرار العقلي - فإن آلة جوكر لن توقفه عن طريق إرسال الأشعة العقلية المناسبة (أو أيّاً كان) لعرقلة مسار العمل (لأن الجوكر يريد إيفي أن تكون خارج حساباته). ولكن إذا اختار باتمان - لأي سبب كان - أن لا يرمي سلاحه، فإن الآلة تتدخل وترغمه على القيام بذلك. دعونا نفترض أن باتمان سيختار رمي سلاحه ومن ثم سيفعل ذلك. وكنا نعتقد عادة أنه عند قيامه بذلك، فإن باتمان كان ذا إرادة حرة - فقد اتخذ خياراً حراً وتصرف وفقاً لذلك - على الرغم من أنه لم يكن لديه أي خيار سوى المراهنة برمي سلاحه. وبعبارة أخرى، فإن ما فعله في هذه الحالة قد كان حتمياً بالفعل بتحديدده من قبل آلة الجوكر.

لذا، حتى إذا كانت الحتمية حقيقية، وما نفعله يتم تحديده من خلال الأحداث السابقة وقوانين الطبيعة، فلا يزال هناك مجال لممارسة الإرادة الحرة. وطالما أن هناك مجال لممارسة الإرادة الحرة، فهناك مجال للمسؤولية الأخلاقية. بالطبع، هناك الكثير مما يمكن قوله رداً على هذا المنطق. هذا مجرد أحد الأمور المقلقة: يبدو أن التقييم الأخلاقي سيواجه مشكلة معرفية معينة، وهي مشكلة تتعلق بما إذا كان بإمكاننا أن نعرف بشكل مطلق ما إذا كان اللوم أم الشئ هو ما يمكن أن نعزوه لشخص ما. ولمعرفة السبب، دعونا نلتزم بالمثال الموضح أعلاه. لكي نعرف بأن باتمان يستحق الشئ على تصرفاته، لأنه ببساطة لا يمكننا رؤية غير ما فعله، لأنه قد تم تقريره بالفعل؛ حيث أنه كان سيفعل ذلك بغض النظر عما إذا كان ينوي أم لا. حيث يجب أن ندخل داخل رأسه في ذلك الوقت، وأن نرى خياره. أما آلات الجوكر المجنونة والتي تدخل الى عقول الناس هي ليست أسهل الأشياء التي بالإمكان فعلها. لذا قد نشعر بالقلق من أن الإرادة الحرة والمسؤولية الأخلاقية التي تأتي معها لن يتم توفيرها إلا بتكلفة جعلنا من المستحيل عملياً أن ننسب الشئ أو اللوم على القائم بالفعل، وهذه التكلفة مرتفعة للغاية.

وهناك ردود على هذا القلق أيضاً، ولكن يجب أن تمضي قدماً. لنفترض إذن أننا نمتلك إرادة حرة وقادرين على ممارستها، سواء كانت تلك الممارسة متوافقة مع الحتمية أم لا. نحن ننتقل الآن إلى مسألة ما إذا كان هناك خطأ ما في الجوكر على وجه الخصوص والذي يمنعه من ممارسة الإرادة الحرة، وعلى هذا النحو، ما إذا كان هذا يعفيه من المسؤولية الأخلاقية عن أفعاله.

أخذ قرار بعد التفكير مطولاً: تلاشي الحرية

لقد تحدثنا بشكل فضفاض عن ممارسة إرادتنا الحرة فيما يتعلق بالاختيارات. لكن من الواضح أن هناك المزيد من المؤثرات المتدخلة في أداء سير الأحداث بحرية من ذلك. يعتقد العديد من الفلاسفة أن ممارسة الإرادة الحرة - والمسؤولية الأخلاقية التي تأتي منها - تنطوي بشكل حاسم على قدرة الشخص على التفكير في ما يحفزه ثم استخدام هذه القدرة في تغيير دوافعه، في بعض الأحيان على الأقل. والفكرة الأساسية التي تبناها هاري فرانكفورت بأشكال مختلفة هي أن أحد الأشياء التي تميزنا عن الحيوانات الأخرى هي قدرتنا على تشكيل الرغبات حول رغباتنا: الرغبات الثانوية. 'يمكننا أن نتخذ موقفاً من رغباتنا الأولية - الرغبات التي تدفع الحيوانات الأخرى بشكل مباشر إلى العمل والتصرف - وبهذا المعنى، فإننا لسنا مأخوذين برغباتنا كما كنا سابقاً. حيث تتكون إرادتنا الحرة من قدرتنا على تشكيل رغبات حول رغباتنا الأولية، والتفكير بشأنها ملياً وتقييمها، وتغيير دوافعنا وفقاً لذلك.

فعلى سبيل المثال، قد يجد باتمان نفسه مستنفذاً تماماً في إحدى الأمسيات بعد أن أمضى العديد من الليالي وهو يلاحق الجوكر، حيث يملك رغبة أولية قوية في البقاء في السرير والنوم بدلاً من مواصلة متابعة عدوه. لكن باتمان لديه الرغبة أيضاً في تحقيق العدالة لغوثام، وهذه أيضاً رغبة أولية (رغم أنها

أكثر تجريدية). ولنفترض أنك تقدر قيمة تحقيق العدالة بشدة، ولكن ليس بنفس قوة الرغبة الأولية في البقاء في السرير. ما يجعل باتمان حراً، كما سيعتقد كل شخص الآن، هو قدرته على إدراك هاتين الرغبتين في نفسه وتشكيل رغبة ثانوية والتي ترقى إلى حد ما برغبته في تحقيق العدالة أكثر من رغبته في البقاء في السرير.

هذا مخطط تقريبي عن كيفية عمل الإرادة الحرة وهو قابل للجدل. ولكنه كافٍ لمساعدتنا في تفسير سبب اعتقادنا بأن بعض الأشخاص "لا يتحكمون" في بعض المسائل، وهذا هو السبب في اعتقادنا بأنهم غير قادرين على ممارسة الإرادة الحرة. الأمثلة الكلاسيكية تشمل المدمنين. ونحن كثيراً ما نتحدث كما لو أن الأشخاص المدمنين على الهيروين، على سبيل المثال، لا يمارسون تماماً إرادتهم الحرة عندما يستمرون في تعاطي المخدرات لمدة طويلة وهم مدركين تماماً بأنهم يدمرون حياتهم. الفكرة، بناءً على ما رسمناه أعلاه، هي أن إدمان المخدرات قد أعاق قدرتهم على تكوين رغبات ثانوية حول رغباتهم. وبعبارة أخرى، فإن أحد تأثيرات المخدرات هو أنه بمجرد تعاطيها لا يمكن أن تتفوق رغبة ثانوية يمكن تشكيلها مبنية على إدراكهم للحفاظ على صحتهم على رغبتهم الأولية في تعاطي المخدرات.

ولكن إذا كان هؤلاء المدمنون غير قادرين على ممارسة إرادتهم الحرة عندما يتعلق الأمر بالقرارات المستقبلية باستهلاك المخدرات، فهل يجب أن نستنتج أنهم ليسوا مسؤولين أخلاقياً عن هذه الأعمال المستقبلية؟ ببساطة، لا، وهذا لأنه، على الأقل في كثير من الحالات، من المعقول أن نفترض أنه تم اتخاذ خيار حر لبدء تناول المخدرات في المقام الأول. وقبل أن يختار شخص ما بدء تعاطي الهيروين، فإنه كان يمتلك الرغبة على ترتيب رغباته الأولية. إن امتلاك تلك القدرة يعني أن قراره بعدم ترتيب رغبته في البقاء بصحة جيدة فوق رغبته بالإنشاء هو قرار اتخذ بحرية. إنه مسؤول أخلاقياً عن

الفعل الذي تلا ذلك، وأن المسؤولية الأخلاقية تبقى محمولة مع الأفعال المستقبلية التي فقد الحرية في إختيارها.

ومع ذلك، قد يبدو مثل هذا المنطق من التفكير أنه يفتح الباب أمامنا لاستنتاج أن الجوكر مسؤول أخلاقياً عن أفعاله. لنفترض أن جنونه الحالي يفهم بشكل أفضل على أنه عدم القدرة على تشكيل رغبات ثانوية لقمع ميوله الإجرامية الأولية. لذلك يمكننا أن نتفق على أنه بمجرد أن يصبح مجنوناً، فإن جميع الأفعال اللاحقة التي سيقوم بها الجوكر لن يتم تنفيذها بحرية. ولكن وفقاً لواحدة من القصص على الأقل (من The Killing Joke)، كان الجوكر في البداية زوج وأب اختار الدخول الى عالم الجريمة من الباب الصغير - بصفته The Red Hood القلنسوة الحمراء - للمساعدة في تغطية نفقات عائلته. ثم أدت المواجهة مع باتمان إلى إغراقه في وعاء مليء بالمواد الكيميائية، ليحترق وجهه بتلك الصورة البشعة ويتحول الى هذا الشكل. وهذا ما وضعه على الهاوية (حرفياً). ولكنه دخل حياة الجريمة بحرية، وإذا كان الأمر كذلك، فيبدو أن المسؤولية الأخلاقية عن هذا الخيار قد حملته إلى أفعاله الحالية، بالنظر إلى أن اختياره الحر دفعه إلى حيث فعل.

ولكن الأمر لا ينتهي بهذه السرعة. إذا اننا نحتاج لأن نوضح بالتفصيل لماذا نعتقد أن مدمن الهيروين مسؤول أخلاقياً عن تصرفاته المستقبلية المتعلقة بالمخدرات والتي لم يقم بها بحرية. وجزء من هذه القصة، كما يبدو من الصواب أن نقول، هو أننا نعتقد أن اختياره الأولي لتناول المخدرات لم يتم بمحض حريته فقط، بل كان يتم بإدراك كامل بالنتائج المحتملة لهذا القرار. حيث ومع كل الإرشاد الصحي الموجود حولنا، سيكون من الصعب جداً على شخص ما البقاء جاهلاً بالآثار السلبية لتعاطي المخدرات، حيث هنالك الكثير من الحصص التدريسية والروايات والأفلام التي تبين كل ذلك. ولكن يجب علينا اختبار بداهتنا للعدالة: إذا كان مدمن الهيروين

يجهل حقاً تأثيرات الهيروين ويختار بحرية أن يأخذه، هل سنكون راغبين في تحميله مسؤولية أخلاقية عن ذلك وعن الإجراءات المستقبلية؟ لا أعتقد أننا سنفعل.

إذا كان هذا صحيحاً، فنحن بحاجة إلى أن نسأل ما إذا كان الجوكر قد تصرف بجهل عند قبوله العمل كـ Red Hood. وهنا يبدو من الصحيح القول إنه على الرغم من أنه كان بالتأكيد متيناً من العديد من الأخطار والتداعيات المترتبة على أفعاله، فإنه لن يكون من المعقول أن نتوقع منه أن يتنبأ أن تقمصه لشخصية Red Hood سيحوله إلى مضطرب مهووس بالشر. لاحظ بأن هذا سيكون صحيحاً أيضاً لو كان من الممكن له أن يتنبأ بطريقة أو بأخرى بأنه سيغطس في كمية من المواد الكيميائية الخطيرة، كان عليه أيضاً أن يعرف الكثير عن نوعية تلك المواد الكيميائية والضرر النفسي الذي من الممكن أن يصاب به عند السقوط فيه. فبعد كل شيء، لو أننا اتخذنا خيارات مماثلة وحدث نفس الشيء لنا، سيبدو من غير المحتمل بأننا سنصبح الجوكر. ولسوء حظ باتمان ومواطني غوثام، فإن الظروف التي أدت إلى "ولادته" كانت بإحتمالية واحد الى مليون.

من الذي ضحك أخيراً؟

وبوضع هذا الإعتراض جانباً، يمكننا الدفاع عن اعتقادنا بأن شخصاً مجنوناً مثل الجوكر ليس مسؤولاً أخلاقياً عن أفعاله. والفكرة الأساسية هي أن الجوكر ليس مسؤولاً أخلاقياً لأنه لا يقوم بأفعاله بحرية مطلقة. فلقد عرقل جنونه قدرته على تشكيل رغبات ثانوية تقيد رغباته الأولية، وهي رغبات تتضمن دوافع مجنونة للغاية.

نستطيع القول الآن بأننا قد توصلنا الى توافق نهائي حول هذه المسألة.

إذ أن الجوكر مجنون، ولأنه مجنون، فجنونه يشبط إرادته الحرة، ويعفيه من أي مسؤولية أخلاقية عن أفعاله. وهذا تحليل مرضي، ولكن كما هو الحال في الغالب، فإن تحقيقاتنا الفلسفية قد حلت بعض القضايا فقط لإفساح المجال أمام قضايا أخرى لتطفو إلى السطح. فنظرًا لجنون الجوكر، لا تزال هناك أسئلة مهمة تحيط بماهية التزامات باتمان ومدينة غوثام تجاه الجوكر. ولا توجد إجابات أخلاقية سهلة لمسألة كيفية التعامل مع شخص مجنون حقاً يقوم بأكثر الأفعال شراً. هل الحل هو بالتعاطف معه؟ بكرهه؟ أو إعادة تأهيله؟ أو تركه يموت إذا أتيحت الفرصة لذلك؟ الجوكر هو عدو باتمان ليس فقط بسبب ما يفعله، بل وبسبب ما هو عليه. وإذا كان أمير الجريمة المهرج قادرًا على التسلي بهذه الأفكار، فلا شك أنه سيجدها مضحكة جدًا.

مكتبة
t.me/t_pdf

1- العدد #475 من Detective Comics (فبراير 1978).

2- العدد #321 من Batman (مارس 1980).

3- قصة A Death in the Family عام 1988.

4- قصة The Killing Joke عام 1988.

5- أقرأ كتاب مايكل فوكولت "الجنون والحضارة" (New York: Vintage Books 1988).

6- أقرأ "الإحتمالات البديلة والمسؤوليات الأخلاقية لهاري فرانكفورت"، مجلة الفلسفة المجلد 66، العدد 23 (1969): الصفحات 829-839. هذا المقال متاح أيضاً في مجموعة فرانكفورت "أهمية ما نهتم بشأنه" (Cambridge: Cambridge Univ. Press 1988).

7- أقرأ "حرية الإرادة ومفهوم الشخص" لفرانكفورت، مجلة الفلسفة المجلد 68، العدد 1 (1971): الصفحات 5-20، وأعيدت طباعتها أيضاً في "أهمية ما نهتم بشأنه".

الباب الثالث

الأصول والأخلاقيات:

أن تصبح باتمان The Caped Crusader

7

وعد باتمان

بقلم: راندال م. جينسن

«الماضي لا يموت أبداً، فهو لم يمضي حتى».

- ويليام فولكنر

بداية باتمان

من أين يأتي الأبطال الخارقون؟ ومن أين يحصلون على قواهم؟ ما الذي يدفع شخصاً ما لكي يتبنى شخصية مقنعة محاربة للجريمة، مدافعاً عن كل ما هو جيد؟ من يقرر مغادرة المنزل وهو يرتدي لباساً ضيقاً وعباءة وقناعاً؟ إن كل ملحمة بطل خارق تشتمل على قصة تتناول أصوله، ومثل هذه القصص قوية ولا يمكن نسيانها، وتقترب من أن تكون أساطير حقيقية.

عادة ما تحتوي قصص الأصول أحداثاً مذهلة ورائعة: كطفرات جينية، أو حوادث مخبرية غريبة، أو لقاء مع الفضائيين، أو التعامل مع الشيطان، وما إلى ذلك. لكن بدايات باتمان مختلفة. حيث أن المحفز الحاسم كان سرقة في زقاق مظلم أنتهت بشكل سيء، إذ أنها كانت حادثة مأساوية إعتيادية. أما بقية قصة نشأة باتمان فمبنية على وعد صبي غني ومتهور على ما يبدو لأبويه القتيلين بأنه سيظهر مدينة غوثام من الجريمة.

من المرجح أن يذكر مقتل توماس ومارثا واين، الذي كان بالإمكان تجنبه، محبي القصص المصورة بالعناصر المأساوية في قصص أخرى لأبطال خارقين. فعلى سبيل المثال، يتحول بيتر باركر الجار الودود الى سبايدرمان إلى حد كبير بسبب الظروف المحيطة بقتل عمه بين، ويتحول فرانك كاسل إلى المعاقب بسبب إعدام زوجته وأولاده. ما هو مميّز في قصة أصل باتمان هو أن السبب يسبق الطريقة. فعندما قُتل العم بين، كانت لدغة العنكبوت المشعة قد أعطت بالفعل قدراتها المذهلة لبيتر. وبالمثل، فإن كاسل كان جندياً متخصصاً قبل أن يعدم المجرمون عائلته. لكن بروس كان مجرد صبي وقت وفاة والديه. ليس لديه سبب للاعتقاد بأنه يستطيع أن يفعل ما كان يعد بالقيام به. حيث لا يكتسب بروس واين قوى خارقة ليكتشف لاحقاً كيفية استخدامها. لا، فهو يكتسب نداءً داخلياً، ومن ثم تكون له حاجة ماسة إلى قدرات غير إعتيادية لتلبية هذا النداء. ومن خلال جهوده الهائلة (وبمساعدة الإمبراطورية المالية الهائلة التي ورثها بالطبع!) يحول نفسه إلى باتمان ليتمكن من الحفاظ على الوعد الذي قطعه. إذ على عكس العديد من الأبطال الآخرين، لا يصبح بروس واين بطلاً خارقاً عن طريق الصدفة، ولكن من خلال قوة الإرادة. وعلى الرغم من أن أعظم المآسي لا تنتهي إلى تحويل الأطفال لأبطال خارقين، إلا أن العنصر الرئيسي في أصول باتمان هو ليس قتل الأم والأب، بل الوعد الاستثنائي لذلك الصبي الصغير.

في نسخة بوب كين وفيل بيل فينجر عام 1939 من قصة أصل باتمان Batman Begins، فإنه و بعد أيام فقط من مقتل والديه، يؤدي بروس واين قسماً أمامهما قائلاً: ”أقسم بأرواح والديّ على الانتقام لموتهم بقضاء بقية أيام حياتي في محاربة كل المجرمين“¹ وفي أحد النسخ الحديثة، النسخة الكلاسيكية لجيف لوب و تيم سيل The Long Halloween (1998)، يستذكر باتمان وعد الصبا حيث يقول: ”وعدت والدي بتخليص المدينة من الشر الذي قضى على حياتهم“. في الواقع، يلعب هذا الوعد دوراً بارزاً جداً في إسهامات لوب المختلفة في تاريخ باتمان، والذي يظهر في The Long Halloween (1996)، Hunter Night (2001)، تتمه لـ The Long Hush، Halloween (2003)، وحديثاً في ظهوره في العنوان الشهير Batman / Superman (2003-2005). حيث بالنسبة للوب، يبدو أن هذا الوعد هو اللحظة الفاصلة في حياة باتمان. إذن، ما هو نوع الوعد؟ وما الذي دفع بروس لقطعه؟ ولماذا يكون له دور دائم في قصة أصول باتمان؟

أحد الإجابات الواضحة هي أن هذا الوعد هو تعبير عن الرغبة في الانتقام. وبالفعل، ففي نسخته المبكرة يتحدث بروس عن ”الانتقام“ لوفاة والديه. ولكن من الأهمية بمكان أن ندرك أنه لا يسعى للانتقام بمفهومه البسيط؛ حيث أن بروس لا يعد والديه بأنه سيقتل الرجل الذي قتلهم. فمن الواضح بأنه وحسب أي من تفسيري الوعد، فإنه يقوم بمهمة أكبر بكثير من تلك، وهي اما الحرب على جميع المجرمين او تخليص غوثام من الشر! وعلاوة على ذلك، ففي الجزء الأول من Justice (2006)، نخبرنا باتمان بأنه: ”عندما كنت صبيّاً، قُتل أبي وأمي أمام عيني. لقد كرس حياتي لوقف ذلك المجرم، بغض النظر عن كل الأشكال أو الوجوه المختلفة التي يرتديها. فالشكل لم يعد يهم بعد كل شيء“.

وفي معظم مسارات قصصه، لم يقم باتمان أبداً بإحضار هذا القاتل مجهول الشكل والهوية إلى العدالة. ولكن هوليود هي الاستثناء المؤسف هنا. إذ في فيلم "Batman Begins" الذي أخرجه كريستوفر نولان عام 2005، حيث يظهر بروس مجرد شاب غاضب عاد للتو من الكلية، يخطط لقتل قاتل والديه عندما يُفرج عنه بشكل غير متوقع من السجن، يُحبط لاحقاً لأن شخصاً آخر يصل الى هناك أولاً. في الحقيقة، سيدرك لاحقاً أن مهمته هي أكثر من مجرد أخذ حقه الشخصي، ولكن في القصص المصورة، يبدو أنه كان يعلم كل ذلك منذ كان صبياً. وما زاد الطين بلة، في فيلم تيم بيرتون "Batman" «Tim Burton» 1989، يصور الفيلم شخصية جاك نابير Jack Napier - الرجل الذي سيصبح جوكر - بأنه هو الرجل الذي قتل والدي بروس. حيث سيروي الفيلم رؤية بروس لوالديه وهما يقتلان، ومن ثم وبشخصية باتمان يشاهد قاتلهما يموت. ولكن هذا في الأفلام فقط، حيث لا نجد مثل تلك الحلول الأنيقة والمرتبة في أي مكان آخر في عالم باتمان، فهذه ليست قصة انتقام بسيطة.

ومع ذلك، فمن الخطأ الفادح أيضاً أن ننكر أن الانتقام - أو ربما الرغبة في الانتقام - قد لعب دوراً مهماً في دافع باتمان. فالإقتصاص لا يشبه الإنتقام، فمن الصعب جداً توضيح الاختلافات بينهما. وأهم ما في تلك الاختلافات هو أن الإقتصاص ليس شخصياً ويهتم أكثر بحصول كل شخص على ما يستحق بالضبط.² في قصة لوب Superman /Batman: Public Enemies (2005)، عندما يكشف باتمان عما يشبه بعض الأدلة التي تشير إلى هوية قاتل والديه، يقول: "لا شيء يزعجني أكثر من عدم معرفة من قتل والدي". لكنه يعقد الأمور سريعاً عندما يضيف بأن "قضية قتلهم غير المحلولة قد غيرت غوثام". لم يركز باتمان على خسارته الشخصية فقط. نعم، لديه اهتمام شديد بتسليم قاتل والديه إلى العدالة، ولكن النقطة الأساسية

هي أنه أبعد من أن يفكر بمجرد إنتقامه الشخصي. إذ في وقت مبكر من القصة، يقول سوبرمان: "لقد عرفت بروس منذ سنوات، لا أستطيع أن أقرر ما إذا كان البطل الذي فيه هو ما يحركه - والذي أحترمه بشدة... أم الجانب المظلم الذي وضعه الألم في طريقه - في محاولة يائسة للتعويض عن قتل والديه، وهذا الجانب أنا لا أحترمه".

ومع ذلك، لا يبدو أن هناك أي سبب وجيه للاعتقاد بأن هذه هي الدوافع المحتملة الوحيدة لباتمان. لماذا يجب أن نتخذ هذا الخيار؟ ولماذا يجب أن نتبنى مفهوم سوبرمان البسيط حول ما هو البطل؟ لماذا لا نعترف بأن باتمان شخصية معقدة للغاية وقد تكون دوافعها عديدة وربما يصعب التعرف عليها في بعض الأحيان؟ خاصة بالنظر إلى عدد الأشخاص الذين كتبوا خطوطها! لماذا لا نسمح لأبطالنا بأن يكونوا بشرًا ولا يفهمون أنفسهم دائمًا، وغالبًا ما لا يفهمهم الآخرون؟

بالإضافة إلى الرغبة في الاختصاص، ما هي الدوافع الأخرى التي تقود وعد بروس ونضاله طوال حياته من أجل تحقيق ذلك؟ في قصة Haunted Knight، يتذكر باتمان أن والده كان يُستدعى من فراشه في منتصف الليل للمساعدة في بعض الطوارئ الطبية، ويسأل نفسه، جاثمًا على السطح مثل غارغويل (حيوان أسطوري كثيرًا ما يتم تصويره كمنحوتات وتماثيل على الجدران الخارجية لكنائس القرون الوسطى "المترجم")، "هل هذا سبب وجودي هنا؟"، وهذا ليس الوقت الوحيد الذي يفكر فيه باتمان بدوره في غوثام بنحو مشابه لدور أبيه كطبيب. يلمح Batman Begins أيضًا إلى أن بروس يريد أن يسير على خطى والديه، وهذه المرة بصفته المسؤول المالي عن مدينة غوثام. إذ في مشهد محوري، قبل أن يقرر بروس أن يصبح باتمان تناشده راتشيل داوس قائلة: "الناس الطيبون مثل والديك والذين كانوا سيقفون ضد الظلم قد رحلوا. ما هي خيارات غوثام عندما لا يفعل الناس

الطيبون شيئاً؟“، ولكن بينما حارب والداه الطيبان الجريمة اقتصادياً من خلال تحسين البنية التحتية لغوثام، فإن باتمان نقل هذه المعركة إلى الشوارع. وهذا يشير إلى أن بروس لا يريد فقط أن يعوض موتهم، ولكن أيضاً لإعطاء معنى لحياتهم من خلال التأكد من أن إرثهم لم يمت معهم. وإذا كان هذا صحيحاً، فإن باتمان لا يحاول فقط هزيمة قوى غوثام الشريرة وتدميرها، ولكنه يحاول بناء شيء ما أيضاً، وهذا الهدف البناء يميزه بشكل كبير عن شخص مثل The Punisher المعاقب أو شخصية Rorschach رورشاخ في Watchmen.

وعلى المستوى النفسي، فمن المحتمل أن يساعد وعد بروس اليائس في إعطاء الوحدة والشكل لحياة تحطمت لأشلاء. كما يلاحظ ألفريد في بداية Hush الصمت قائلاً:

”لا أستطيع تخيل الرجل الذي كان سيكونه بروس لو لم ينتزع منه السلاح طفولته. يتيماً ووحيداً فجأة، حادث مخيف قد حلّ. لن يكون لهذا الطفل وقت للحزن، لن يهدر أي وقت في تمنّي إمكانية تغيير تلك الحادثة، لن يكن سوى الوعد. في تلك الليلة، في ذلك الشارع الملطخ بدماء والديه، سيأخذ عهداً بتخليص المدينة من الشر الذي أودى بحياتهما“.

ومع رحيل والديه، سيحتاج بروس إلى مركز ثقل جديد في عالمه، وهذا الوعد الذي يغير حياته وفر له ذلك. وللوفاء بوعد، سيمضي سنوات في الدراسة والتدريب والسفر، والحصول على المهارات والمعرفة التي يحتاج إليها إذا كانت لديه أي فرصة على الإطلاق للوفاء بالمهمة المخيفة التي أقسم على أدائها. جرده من ذلك الوعد، ولن يكون سوى صبي يعاني صدمة، راکعاً أمام جثث والديه. إن وعده وفر له شيئاً ليفعله، والأهم من ذلك، شخصاً ليكونه. إن التزاماتنا ومشاريعنا تشكلنا وترسم شخصيتنا. وهكذا، يكبر الشاب بروس واين ليصبح باتمان. كما تلاحظ راتشيل داوس للأسف

في نهاية Batman Begins، بأن شخصية الملياردير بروس واين اللعوبة ليست سوى قناع ملائم.

الوعود والأخلاقيات

يتطلع باتمان في جزء كبير من مهمته نحو المستقبل: فهو يريد أن يجعل من غوثام مكاناً أكثر أماناً وأفضل للعيش، مكاناً لا يفقد فيه الأطفال أبويهم كما فقدهم هو. وهكذا، فإن لدى باتمان أسباباً أخلاقية متطلعة نحو المستقبل في حربه ضد المجرمين. ولكن هل هذه الأسباب كافية لتبرير تصرفاته؟

بالنسبة للعواقبية، والتي تعتقد أن النتائج هي العامل الوحيد ذو الصلة في تحديد ما هو الصواب والخطأ، يعتمد هذا كله حول ما إذا كانت أعمال باتمان تجلب أفضل النتائج الممكنة على الجميع أم لا.³ إذا كان الأمر كذلك، فعليه أن يذهب ويستمر بما يفعل. من المؤكد بأن باتمان يقوم بالكثير من الأشياء الجيدة، بغض النظر عما قد يقوله النقاد ممن يظهرون في التلفاز في فيلم The Dark Knight Strikes Again (2002). ولكن كانت الجريمة بصفة باتمان لا تحقق أفضل النتائج الممكنة، فيجب على بروس أن يعلق بدلته وقناعه ويترك ذلك العمل. ولكن ألن يعني ذلك عدم الإيفاء بالوعد الذي قطعه لوالديه؟ ومن الخطأ عدم الإيفاء بالوعود، أليس كذلك؟

في الواقع، تواجه العواقبية صعوبة في تقييم الوعود بالوزن الأخلاقي الذي تستحقه. فأخلاقية العواقبية تعتمد على جعل العالم مكاناً أفضل، في حين أن الوفاء بالوعود قد يقود إلى ذلك في كثير من الأحيان، إذا كان ذلك النوع من الوعود خيراً، إلا أنه ليس كل الوعود صالحة ويقطعها أناس صالحون ذوي نوايا صالحة. فالمؤمنون بالعواقبية ليسوا معجبين جداً بمقولة "لأنني وعدت بأني سأفعل!" كسبب أخلاقي، معتقدين أننا بحاجة إلى أن

نكون مستعدين لوضع التزاماتنا جانباً عندما تدعونا المصلحة العليا لتليتها. بعبارة أخرى، يعتقد العواقبيون أن الغاية تبرر الوسيلة، ومن المحتمل أن يؤدي بشخص ما بهذه العقلية بخرق الوعود التي قطعها بشكل دائم.

بعد كل ما سبق، فما الذي يوجب على المرء أن يفني بوعوده؟ إذا ما حان وقت حفظ ألفريد للوعد على سبيل المثال، فإن القيام بما وعد به هو فكرة جيدة، فهو بالطبع يجب عليه أن يحافظ على كلمته. وعلى أي حال، فقد كان من دواعي سروره أن يفعل ذلك! ولكن إذا كان ما وعد به يبدو سيئاً، فلماذا على ألفريد أن يحافظ عليه؟ لأنه قال إنه سيفعل ذلك؟ وماذا في ذلك؟ حيث إذا ما كان يتطلع إلى المستقبل، فإن ما كان قد وعد به في الماضي يبدو غير مهم نسبياً. قد يكون السبب المحتمل لألفريد للوفاء بوعوده هو أنه يحتاج إلى أن يثق به الناس، وإذا ما ثبت أنه ليس رجلاً يحفظ كلمته، فلن تُقبل منه أي وعود يقدمها في المستقبل. ولكن هذا مجرد سبب لـ "ألفريد" للتأكد من عدم وجود أي شخص يكتشف بأنه قد خرق وعده!.

كل هذا يؤكد على حقيقة أن الوعود لا تتطلع في جوهرها إلى الأمام. إذ أن وعد باتمان يرسخ مهمته في الماضي؛ فإلتزامه بالحفاظ على هذا الوعد يعطيه سبباً أخلاقياً فيه تطلع للماضي لتنفيذ مهمته، ليلة بعد ليلة وشريراً بعد شرير. وعلاوة على ذلك، ففي الحين الذي لا يمكننا فيه إنكار أنه يريد من مواطني غوثام أن يكونوا آمنين من المجرمين والمغتصبين، فمن الواضح بأن باتمان يريد أيضاً من الظالمين أن ينالوا ما يستحقونه. والقصاص يعتبر تطلعاً إلى الماضي أيضاً. لذا فإن حرب باتمان على الجريمة مرتبطة بالماضي بطرق مختلفة، مرتبطة بتاريخه الشخصي، وتاريخ المجرمين الذين يقاتلهم. (لاحظ كيف يعود باستمرار إلى موقع مقتل والديه، الذي كان يدعى حينها Park Row، ويطلق عليه الآن اسم "زقاق الجريمة"). هذا لا ينبغي أن يفاجئنا وذلك نظراً لمنظر غوثام العام وإنتشار الخوف والمجهول والغربة فيها، حيث

أن قصة باتمان هي قصة قوطية Gothic حقاً، وهذه الحركة من الماضي نحو الحاضر هي سمة مميزة أخرى للقوطية.

وهذا يعني أيضاً بأن باتمان ليس عواقياً بشكل كامل. كما أنه مدفوع بأسباب تنتمي للأخلاق الواجبة، وهي الأسباب التي تنطوي على ما يفعله شخص ما بدلاً مما يحدث نتيجة لما يفعله شخص ما، أي أنها تركز على أخلاقية الفعل ذاته، لا على نتيجته.⁴ لأن إجابة "لأنه سيخلف وعداً!" تنتمي إلى الأخلاق الواجبة، كما هو الحال مع "لأن ذلك سيكون خداعاً!"، أو "لأنها ستكون جريمة قتل!" فإن رفض باتمان المتكرر للقتل وهو يؤدي مهمته، حتى عندما يكون الجوكر خصمه، هو تجسيد مثالي للالتزام باتمان ببعض أخلاقيات الأخلاق الواجبة.⁵ توضيح آخر كهذا هو الكيفية التي يحفز بها باتمان عزمه على الحفاظ على وعده منذ مرحلة الطفولة. وكما يلاحظ ألفريد في Under the Hood (2005 - 2006)، يخشى أعداء باتمان من عزيمته المذهلة أكثر مما يخشون ظهوره أو قوته. فباتمان رجل يحافظ دائماً على وعوده، وهذا يجعله أكثر من رجل في نظر خصومه.

قطع الوعود للموتى

على الرغم من حقيقة أن بعض جوانب الوعود قد تبدو محيرة، إلا أن أهميتها في حياتنا الأخلاقية العادية يصعب إنكارها. إذ كثيراً ما نقطع الوعود لبعضنا البعض، حتى كأطفال صغار، ونلزم أنفسنا بتنفيذها. ولكن هناك مشكلة أخرى في حالة وعد باتمان. فنحن نقطع الوعود لشخص ما، أليس كذلك؟ في الواقع، يبدو أن هذا جزء أساسي يميز الوعود عن بقية الإلتزامات الأكثر عمومية. وعلاوة على ذلك، فإن إحدى الطرق الطبيعية للغاية لفهم الخطأ المتمثل بإخلاف الوعد هو أنه بطريقة ما يسيء أو يؤذي الشخص أو الأشخاص الذين قُطع لهم الوعد. هذه الفكرة مدعومة بحقيقة

إن كان باتمان لم يفِ بوعده لأوراكل على سبيل المثال، فإنه سيكون مدينًا لها باعتذار من أجل القيام بذلك، وحتى إذا كان يعتقد أن هناك مبررًا أخلاقيًا لكسر هذا الوعد، فمن المؤكد أنه سيدين لها بتفسير على الأقل. ولكن والذي بروس ماتا عندما قطع وعده لهما. فهل من المنطقي أن نعد بشيء لشخص ميت؟ وهل ستكون مخالفتنا وعودنا للموتى خاطئة بنفس الطريقة التي تكون بها مخالفتنا وعودنا للأحياء؟ وهل يمكن أن يتعرض الميت للضرر أو الإساءة؟ وهل يوجد الموتى داخل أو خارج عالمنا الأخلاقي؟

بالطبع، لا يمكننا التفكير طويلاً في مثل هذه الأسئلة دون مواجهة سؤال أكبر وهو: ماذا يحدث لنا عندما نموت؟ هل الموت هو نهاية وجودنا الواعي، أم هناك نوع من الحياة الواعية بعد الموت؟ إن هذا سؤال يربك أي عدد من المفكرين الدينيين والفلسفيين، ويترك حتى أعظم محققي العالم دون جواب! في *Under the Hood*، عندما يشك باتمان بأن جايسون تود - روبن الثاني، والذي قُتل على يد جوكر - قد عاد من القبر بطريقة ما، يبحث عن كل من سوبرمان وغرين آرو لسؤالهم كيف هو الأمر حين تموت ومن ثم تعود للحياة؟. وعلى الرغم من عدم فهمه لذلك بالضبط، إلا أن القيام يعتبر إمكانية حقيقية في عالم باتمان. حيث يجب ألا ننسى راس الغول وأعوانه، لأنهم يستطيعون أيضاً إعادة الموتى إلى نوع من الحياة. وبغض النظر عما قد يكون عليه الحال في واقعنا، فإن الموت لا يبدو كمخرج نهائي في القصص المصورة.

لنفترض أن الموت ليس نهايتنا. إذ تستحضر نسخة 1939 من وعد باتمان أرواح توماس ومارثا واين. إن إحدى الطرق الواضحة نسيباً لفهم الوعود المقطوعة إلى الموتى هي القول بأن الموتى ما زالوا بيننا في مكان ما، كأشباح أو أرواح من نوع ما. ولكن في الحين الذي يطارد فيه باتمان من قبل والديه القتيلين، فإنها لا يظهر مرة أخرى للقتال إلى جانبه بالطريقة التي

يفعل بها ذلك والدا هاري بوتر، على سبيل المثال، وعندما يظهران، عادة ما يكون ذلك بسياق ارتجاعى، كذاكرة أو حلم أو هלוوسة.⁶ حيث أن باتمان غير مطارد حرفياً بأشباح والديه، بل هو مطارد بذكرياته عنهم وعن موتهم، من خلال حنينه لهما، وفقدانه للحياة التي تشاطرها معهما. لذا، فإن سؤالنا هو ما إذا كان بإمكاننا أن نفهم قطعه وعداً لأم وأب ماتا ورحلا ولن يظهرها للتعبير عن خيبة أملهما إذا لم يف بها وعد به. وكما تبين، فإن هذا السؤال هو الأكثر إثارة للاهتمام من الناحية الفلسفية هنا أيضاً، وقد اختلف عدد من الفلاسفة حول القضايا التي يثيرها.⁷

لذا، لنفترض جدلاً بأن الموت هو نهايتنا بعد كل شيء. يذهب الفيلسوف اليوناني القديم أبيقور (341 - 270 قبل الميلاد) لما هو أبعد من الافتراض هنا. وجهة نظره هي أن البشر يتألفون من الذرات والجسد والروح، وأن الموت يمثل إنحلالنا حرفياً: نحن ببساطة نتحول إلى قطع منفصلة، وهذا كل شيء. نحن لا نعيد تجميع أنفسنا كما يفعل Clayface وجه الطين (أحد الشخصيات الشريرة في عالم باتمان والذي يتألف جسده من الطين). حيث يجادل أبيقور بشكل شهير بأن مثل هذا الموت لا يُخاف منه قائلاً:

”أعتقد الاعتقاد بأن الموت هو لا شيء بالنسبة لنا. فلكل الأشياء الجيدة والسيئة تتشكل من اختبارات حسية، والموت هو الحرمان من الاختبار الحسي للأشياء. ومن ثم، فإن المعرفة الصحيحة بحقيقة أن الموت لا شيء بالنسبة لنا تجعل فناء الحياة مسألة مرضية، ليس من خلال إضافة وقت غير محدود [للحياة] بل بإزالة التوق إلى الخلود. وبذلك فإن لا وجود لشيء مخيف في الحياة لمن يدرك عدم وجود شيء مخيف بفقدانها. لذا، أحق من يقول إنه يخاف الموت، ليس لأنه سيكون مؤلماً عندما يكون حاضراً، بل لأنه مؤلم أثناء قدومه. فالذي لا يسبب ألماً حين يكون حاضراً، يسبب ألماً غير ضروري بمجرد ترقبه. إذن، فالموت، وهو أكثر الأمور السيئة إثارة للخوف،

هو ليس بشيء بالنسبة لنا؛ لأننا عندما نكون موجودين، فإن الموت يكون غائباً، وعند حضوره، لن نكون عندها موجودين. لذلك، فهذا غير ذي صلة لا بالأحياء ولا بالأموات، لأنه لا يؤثر على الأول، والآخر غير موجود⁸ إن أبيقور مُتَعَي (ساعي وراء المتعة)، مما يعني أنه يعتقد أن ما هو جيد للبشر هو المتعة وما هو سيء هو الألم. وبما أن المتعة والألم لا يمكن أن يكونا موجودين بدون أن يشعر، فإن أبيقور يقول أن "كل الخير والشر ينطويان على الاختبار الحسي". وبما أن الموت هو غياب الاختبار الحسي، فلا يوجد شيء لكى يُخاف منه. (قد تكون عملية الموت مؤلمة حقاً، وبالتالي يكون هنالك شيء من الخوف، ولكن طالما أنك لا تزال تموت إذاً "لا يكن الموت موجوداً بعد". وعلاوة على ذلك، لا يمكن أن يكون هنالك شيء جيد أو سيء بالنسبة للموتى، لأنهم لا يدركون شيئاً على الإطلاق. إذا كان أبيقور على حق، فعندئذ يبدو بأنه لا يمكن أن يكون هنالك أي شيء جيد أو سيء بالنسبة لوالدي بروس الميتين. وإذا كان جزء كبير من السبب في عدم الإخلال بالوعد هو أنه سيئ إلى حد ما بالنسبة للشخص الذي قطعه، فإن هذا السبب ببساطة لن يطبق في هذه الحالة، أو في أي حالة يكون فيها "الموعد" متوفى.

لكن الكثير من الناس لا يقتنعون بهذه الحجة الأبيقورية. وأحد الأسباب هو أنه في الحين الذي يبدو من المعقول أن نفكر أنه حتى لو لم يكن الموت نفسه يتضمن أي تجارب سيئة، فمن السيئ أن نموت على وجه التحديد لأننا سنحرم من كل التجارب الجيدة التي ربما كانت ستحدث لنا!⁹ وعلاوة على ذلك، فهناك أسباب تدعو للشك في فكرة وجوب تجربة جميع الأشياء السيئة. خذ بعين الاعتبار الكلمات التالية لأرسطو (384 - 322 قبل الميلاد): "إذا كان هناك للشخص الحي خير وشر لا يعلمه، فالشخص الميت أيضاً، على ما يبدو، لديه خير أو شر. فعلى سبيل المثال، إذا تحصل الميت على

الشرف أو العار، فأولاده، والمنحدرين منه بشكل عام، سيكونون مُشرفين أو يعانون من سوء الحظ بعد رحيله¹⁰

إذن، وفقاً لأرسطو، فإن هناك أشياء جيدة وسيئة للموتى. دعنا نسمي هذه الأشياء فوائد ومضار ما بعد الوفاة. يبدأ أرسطو من خلال الاستناد على تشابه جزئي: إذا كان بالإمكان إيذاء الأحياء لكنهم يظلون غير مدركين لذلك، فيمكن أن يتعرض الميت للضرر كذلك. من الواضح أنه يرفض رفضاً قاطعاً ادعاء أبيقور بأن "كل الخير والشر ينطويان على تجربة إدراكية حسية". "لنفترض أن سيلينا كايل Selina Kyle (الملقبة بالمرأة القطعة Catwoman، لأي شخص لا يعرفها) تتظاهر فقط بأنها مهتمة عاطفياً باتمان كجزء من مؤامرة معقدة ضده. افترض كذلك أن باتمان غير مدرك تماماً لهذا الأمر ويستمتع برفقتها، وفي الواقع هو لم يكتشف أبداً ازدواجيتها. ألن يتعرض للأذى؟ ألن يحدث له شيء سيء على الرغم من أنه لم يعرف ذلك؟ إذا كان الأمر كذلك، فربما تكون هنالك أضرار غير مُحْتَبَرَة.

هذا المثال يشير إلى أن الخداع والخيانة يمكن أن يؤذيانا بشكل كبير بالرغم من عدم تأثرنا بهما حسيّاً وإدراكياً. وكما يقول توماس ناغل Thomas Nagel: "إن النظرة الطبيعية هي أن اكتشاف الخيانة يجعلنا حزينين لأنه من السيئ أن يتم خيانتنا لا أن الخيانة سيئة لأن اكتشافها يجعلنا غير سعداء"¹¹ ويعتقد أرسطو بأنه يمكن إيذاؤنا من خلال سمعنا ومن خلال أصدقائنا وعائلاتنا بطريقة لا تعتمد على تجربتنا لأي شيء. إن فكرة الضرر غير المدرك والمحسوس تبدو معقولة جداً.

ماذا عن ضرر ما بعد الوفاة؟ إذا كان يمكن لباتمان الحي التضرر دون إدراك الضرر، فلماذا لا يمكن للموتى ذلك؟ فإذا مات بروس واين، وإذا ما اعتقد الناس خطأً بعد موته بأنه كان شريراً مرعباً بدلاً من كونه بطلاً رائعاً، ألم نكن لنعتقد بأن شيئاً مضراً - كما يقول أرسطو، شيء الحظ - سيحدث

له؟ تشير تعبيرات مثل "أنه يتقلب في قبره" إلى أن هذه فكرة طبيعية. فمن المؤكد أن أرسطو يعتقد ذلك، على الرغم من أنه يقر بأن الضرر الذي يلحق بالموتى قليل نسبياً.

ربما يكون أبقر ما مخططاً في قوله إن الموتى لا يمكن أن يتعرضوا للضرر لأنهم لا يستطيعون تجربة الضرر. ولكن ألا تبقى هناك نقطة أخرى من نقاطه صحيحة؟ أن تقول أنه يمكن الإضرار بشخص حي بطريقة لا تؤثر على تجربته الإدراكية، شيء، وشيء آخر أن تقول، كما يفعل أرسطو، أن الشخص الذي لم يعد موجوداً يمكن أن يتضرر! كيف يمكن بحق السماء أن تضر شخصاً غير موجود (ميت)؟ حسناً، لن يمكننا التأكد من ذلك بالتأكيد. إذ لا يمكنك أو يمكنكني إلحاق الضرر ببروس واين، أليس كذلك؟ لأنه مبتكر؛ إنه ليس شخصاً حقيقياً. بالتأكيد، ومع ذلك، فالموتى من فئة مختلفة عن الشخصيات الخيالية! في حين أن الأولى غير موجودة ولم تكن موجودة أبداً ككائنات بشرية من دم ولحم، فإن الآخرين هم أناس حقيقيون كانوا موجودين.

إن هذا هو الدليل الذي نحتاجه لفهم مسألة الضرر الذي قد يصيب الموتى. فعندما نتساءل عما إذا كان من المنطقي أن نقول إن الاخلاف بالوعد الذي تم قطعه للموتى قد يؤذيهم، علينا أن نكون حذرين في كيفية وصفنا لذلك الأذى. هل نسأل ما إذا كان بروس يمكن أن يضر بالمتوفين توماس ومارثا واين؟ إذا كان الأمر كذلك، فإننا نسأل ما إذا كان بإمكانه إيذاء شبح، أو جثة، أو ربما لا شيء. وهذا شيء سخيف. ولكن ماذا لو سألنا إذا ما كان بإمكانه أن يضر بذكرهما، وهما الأشخاص الأحياء الذين اهتموا به في طفولته المبكرة؟¹² إذا كانت هذه هي الطريقة التي نفكر بها، فهناك مرشح مناسب ليعاني من ضرر الوعد الذي أخلف. وتكمن المشكلة التالية في معرفة وقت حدوث الضرر وكيفية التحدث عن ضرر يبدو أنه يشتمل

على علاقة رجعية، حيث قد يؤدي ما قام به بروس في الوقت الحاضر إلى إلحاق الضرر بوالديه في الماضي. وهذه مشكلة فلسفية حقيقية، ولكنها تبدو وكأنها النوع الصحيح من المشكلات التي يواجهها محبو باتمان، نظرًا للطرق التي تمزج بها قصص فارس الظلام دائمًا الماضي بالحاضر.

عودة باتمان

في Kingdom Come (1997)، وهي قصة تصور مستقبلاً محتملاً أو أرضاً بديلة في عالم دي سي، لا يزال باتمان يحارب الجريمة في غوثام. في الواقع، يبدو أنه ينتصر في حربه، بمساعدة فيلق من الروبوتات الوطواطية. لقد حافظ على وعده، أو حافظ عليه تقريباً. لكن في حفل افتتاح فيلم فرانك ميلر الكلاسيكي The Dark Knight Returns (1986)، وهي قصة مستقبلية أخرى، كان باتمان قد تقاعد. لماذا؟ ليس لأنه قد أخلى المدينة من الشر وأوفى بوعده لوالديه. بل بعيداً عن ذلك، فقد قام باتمان الخاص بميلر بتعليق قناعه وعباءته ليس لأن مهمته قد أنتهت، ولكن بسبب وفاة جيسون، وهو روبن سابق. (من المثير للاهتمام بأن ميلر قد كتب هذه القصة قبل عامين من وفاة جيسون في قصة باتمان المستمرة الإعتيادية، ومن ثم توقع - وربما ساعد في تحقيق - قتل الجوكر سيئ السمعة لروبين في قصة A Death in the Family في عام 1988.

في The Dark Knight Returns تنتهي مسيرة باتمان كما بدأت، بوعده آخر. تأمل هذه المناجاة الداخلية التي يصف فيها بروس صراعاً مستمراً مع باتمان الموجود داخله:

”إنه (باتمان) يسخر مني (بروس واين)، ويلعنني. يناديني بالأحمق. يملأ نومي، ويخدعني. يجلبني هنا حينما يكون الليل طويل وإرادتي ضعيفة.

إنه يكافح بلا هوادة، وبكراهية، ليتحرر

لن أسمح له بذلك. أعد بهذا.

من أجل جيسون، لن أسمح بهذا أبداً مرة أخرى.“

أخيراً، وبالطبع، يخرج باتمان منتصراً في هذا الصراع النفسي. حيث يترك تقاعده لمحاربة الشر مرة أخرى. لماذا؟ ربما لأن ذلك الوعد الأقدم والأقوى لا يمكن تجاهله ببساطة. فكما يقول ميلر، في محاولة أن لا يكون باتمان، حول بروس نفسه الى ”رجل ميت سائر“، فوعده لوالديه ومشروع ولادته كانا قد حددا من هو. وبدونهم، ما هو إلا قشرة رجل خاوية. والماضي لا يمكن نسيانه ببساطة: ”كان يمكن أن يحدث بالأمس، أو أن يحدث الآن. كان يمكن أن يكونوا جاثين تحت قدميك، يرتعشون، وينزفون“. في النهاية، كان باتمان قد قطع وعداً لا يمكنه الحفاظ عليه تماماً أبداً، إلا أنه وعد لا يمكنه العيش بدونه.

باتمان الى الأبد؟

لقد جادل بعض الفلاسفة بأن البشر يجب أن يكونوا سعداء لكونهم ليسوا خالدين، لأن الحياة التي لا نهاية لها ستثبت حتماً أنها مملة، وبالتالي تكون لعنة بدلاً من كونها نعمة.¹³ من المدهش، إذن، أن الموت قد يكون جزءاً مما يجعل الحياة جذابة وساحرة. فحتى حياة البطل الخارق قد تشيخ لتكون مضجرة، بعد أن يتلاشى التشويق في محاربة الشر بعد سنوات أو عقود أو قرون. لكن باتمان لم يكن مدفوعاً في المقام الأول لأجل تشويق المطاردات أو من متعة النصر. إنه لم يكن بطلاً خارقاً لرغبته بعيش حياة مثيرة جداً ومرضية. في Superman /Batman: Public Enemies، فقد بدا صريحاً بفجاجة قائلاً: ”إنها ليست حياة أتمناها لأحد“. إن حملة باتمان

ضد الجريمة مدفوعة بالتزامه المستمر في السعي للحفاظ على وعدٍ صعب يحدد ماهيته. وهذا الالتزام يمنح حياته معنىً غير مرتبط برضاه الشخصي. إذ في الواقع، فهو مرتبط بتضحياته الشخصية. إن وعد باتمان يربطه بغوثام طالما ستحتاجه المدينة فيه.

- 1- العدد #33 من Detective Comics (نوفمبر 1939) هذا المشهد مدرج في كتاب ليس دانيلز، باتمان: التاريخ الكامل: حياة وزمن فارس الظلام (San Francisco: Chronicle Books 2004)، الصفحات 34-35.
- 2- راجع، على سبيل المثال، كتاب روبرت نوزيك، التفسيرات الفلسفية (Cambridge MA: Harvard Univ. Press 1983)، الصفحات 366-368.
- 3- تاريخياً، فأن أهم العواقبيين هم الفلاسفة النفعيون البريطانيون، جيرمي بينثام (1748-1832) وجون ستيوارت ميل (1806-1873). ومختارات مفيدة من تحرير ستيفن ل. دارول، بعنوان "العواقبية" (Oxford: Blackwell Publishing 2002).
- 4- الشخصية الأكثر تأثيراً في أخلاقيات علم الأخلاق هو الفيلسوف الألماني العظيم إيمانويل كانط (1724-1804). مجموعة مفيدة من تحرير ستيفن ل. دارول هو كتاب "علم الأخلاق" (Oxford: Blackwell Publishing 2003).
- 5- الفصل الخاص بهارك د. وايت الذي يناقش رفض باتمان لقتل الجوكر في هذا الكتاب يأتي بمزيد من التفصيل.
- 6- راجع على سبيل المثال قصة Haunted Knight الثالثة، وهي محاكاة لقصة تشارلز ديكنز أنشودة عيد الميلاد والتي يظهر فيها والد بروس واين كشبح جايكوب مارلي؛ أو الهالوين الطويل، حيث يتعرض بروس لغاز الفزاعة ليعيش في جزئين، أحدهما في الحاضر والآخر في الماضي حيث يحاول هو ووالدته الهرب من قاتل والديه.
- 7- راجع المقالات المتنوعة في كتاب ميتافيزيقيا الموت، تحرير جون مارتين فيشر (Stanford CA: Stanford Univ. Press 1993).
- 8- من "رسالة أبيقور إلى مينوسيس" في الفلسفة الهلنستية: قراءات تمهيدية تحرير براد إنوود ول. ب. غيرسون، الطبعة الثانية (Indianapolis: Hackett Publishing Company 1997)، الصفحة 29.
- 9- أنظر فصل "الموت" في كتاب "أسئلة فانية" لتوماس ناغل: Cambridge:

- المعاد طبعه أيضاً في ميتافيزيقيا الموت، (1979 Cambridge Univ. Press). الصفحات 61-69.
- 10- أرسطو، الأخلاق النيقوماخية، الطبعة الثانية، ترجمة ترينيس إيروين، (1999 Indianapolis: Hackett Publishing Company)، الصفحة 13.
- 11- أسئلة فانية لتوماس ناغل، الصفحة 65.
- 12- راجع كتاب جورج بيتشر "مصائب الموتى" المعاد طبعه في ميتافيزيقيا الموت، الصفحات 159-168.
- 13- بيرنارد ويليامز "قضية ماركوبولو: تأملات في ملل الخلود"، أعيد طبعه في ميتافيزيقيا الموت، الصفحات 73-92.

هل كان على بروس واين أن يتحول الى باتمان؟ بقلم: مابسيب أنانتب وبين ديكسون

ما الذي ستفعله بالكثير من الوقت والمال؟

إن بروس واين، الأنا البديلة لباتمان، غني، بل هو غني جداً. فقائمة مجلة فوربس للخمسة عشرة شخصية خيالية الأغنى وضعت واين في المرتبة السابعة، حيث تقدر قيمة ثروته الصافية بما يقارب السبعة مليار دولار.¹ ومن الجدير بالذكر أن واين ولد ثرياً، حيث ورث ثروة والديه بعد وفاتها المفاجئة على يد مجرم في مدينة غوثام. لذا عندما يأخذ واين البالغ من العمر خمسة وعشرون عاماً مهمة مكلفة ومحفوفة بالمخاطر للغاية وهي النضال من أجل تحقيق العدالة كباتمان، فإنه يتخذ قراراً أخلاقياً بأن القيام بهذا العمل هو الوسيلة المناسبة لقضاء وقته و ثروته الموروثة. وهو يقرر، في الأساس، أن الشيء الصحيح الذي ينبغي عمله هو تكريم ذكرى والديه بتنظيف مدينة غوثام من الجريمة. لكن هل هذا هو القرار الأخلاقي الصحيح؟

لا شيء يبدو لطيفاً بالنسبة لفارس الظلام ذاك

”بدون أي سابق إنذار... ترتطم محطة زجاج نافذة غرفة دراستك... ونافذتي... لقد رأيت ذلك سابقاً... في مكان ما... لقد أرعبتني كصبي... أرعبتني... نعم، أبي، عليّ أن أصبح خفاشاً. بروس واين البالغ من العمر خمسة وعشرين عاماً كباتمان“.

1987 Year One

إن Batman : Year One يحوي أول وصف جنائزي مرئي مروع لواين: حيث يركع واين البالغ من العمر 7 سنوات بلا حراك أمام والديه، فوالده المملّخ بالدماء يمسك كتف أمه، وكلا الوالدين ممددان على الأرض بلا حراك. في بعض الصفحات في وقت لاحق سنرى واين الناضج راکعاً أمام والديه مرة أخرى، وهذه المرة أمام قبريهما. ونظراً لتعبير وجهه الحزين ووقفته المحدودة، فإن ألم بروس بشأن مقتل والديه لم يتلاش كثيراً في السنوات التي تلت تلك الجريمة. وبالفعل، تكشف القصة سريعاً لماذا يقرر واين، من خلال تحوله إلى باتمان، أنه لا ينبغي التحفظ على أي مورد في محاربة الظلم. اقتداء بأفعال والده، وهو وارث ثري وطبيب غوثام، يجب على واين استخدام ذكائه المتقد وثروته الموروثة لجعل غوثام مكاناً أفضل.

إن محاربة باتمان للجريمة هي إلى حد كبير وسيلة لتكريم والديه القتيلين، كما يتضح في واحد من أكثر المشاهد السريالية في Year One. حيث أدت محاولة فاشلة في محاربة الأشرار إلى إصابة بروس وتركه ينزف حتى الموت تقريباً؛ وأثناء جلوسه في غرفة مكتب قصره، بدأ ”يتحدث“ إلى ما يبدو أنه تمثال نصفي لوالده الميت، توماس واين. ويسأل واين الأصغر والده حول كيف يمكنه ترويع المجرمين من أجل محاربة الجريمة بشكل أكثر

نجاحاً، ويوضح أنه كان يتوق إلى مثل هذا النجاح منذ الليلة التي قُتل فيها والداه، في الليلة التي كما يقول عنها: ”حين غادرت كل الأحاسيس حياته“. إن تذكره تفاصيل ليلة والديه الأخيرة تتبع مباشرة بمشهد وطواط يندفع نحو نافذة دراسته، محلقاً في فضاء الغرفة، وهابطاً فوق تمثال والده. يثير هذا الحادث ذكريات مربعة لحادثة طفولة تنطوي على وجود الطوايط. وبفكرة مستوحاة من رعبه من الطوايط، يقرر واين في ذلك الزمان والمكان أن يخلق إرهاباً مائثلاً في قلوب مجرمي غوثام. حيث سيتنكر بزي وطواط، ويحارب حثالة غوثام. توضح الصور والحوار في هذا المشهد الصلة الوثيقة بين قرار واين ليصبح باتمان وفقدان والديه والرغبة في احترام ذكرى أبيه بخدمة غوثام.²

”سينغر“: عدو باتمان الحقيقي الأول

ولكن هل يعتبر التحول إلى باتمان هو الخيار الأخلاقي الأفضل لواين؟ للوهلة الأولى، يبدو أن التساؤل حول الوضع الأخلاقي لخيار واين في العيش كباتمان غريب. إذ من المؤكد أن قراره في إنقاذ مدينة غوثام الممزقة من الجريمة، وهو المكان الذي يصفه جيمس غوردن، ضابط الشرطة الواصل لغوثام حديثاً، بأنها «مدينة بلا أمل» (Year One)، لا يستحق الثناء فحسب بل ويكشف عن شخصية أخلاقية رفيعة. ومع ذلك، وعند الفحص الدقيق، قد يكون هذا التوصيف سابقاً لأوانه.

وفي مقالته الشهيرة ”المجاعة، الوفرة، والأخلاق“ يجادل الفيلسوف بيتر سينغر (مواليد 1946) بأن على البشر يقع التزام أخلاقي بمساعدة الآخرين الذين يعانون ويموتون بسبب افتقارهم للاحتياجات الأساسية، مثل الغذاء والمأوى والرعاية الطبية.³ يُصنف سينغر كنفعي، والنفعية هي النظرية الأخلاقية التي ترشدنا إلى القيام بالأعمال التي ستجلب أكبر قدر

من الخير أو أقل قدر من الشر لأكبر عدد من الناس، أستناداً على حقيقة تساوي جميع البشر أخلاقياً.⁴ وأسباب سينغر هي أن المبدأ الأخلاقي التالي يجب أن يكون جزءاً من تفكيرنا اليومي بوضوح حيث: ”إذا كان في وسعنا منع حدوث شيء سيء، دون التضحية بأي شيء ذي أهمية أخلاقية قابلة للمقارنة، فيجب علينا، أخلاقياً، القيام بذلك“.

يمكن توضيح فائدة هذا المبدأ وجاذبيته من خلال مثال يقدمه سينغر بإفترض طفل يغرق في بركة ضحلة. تخيل المشي بجانب هذه البركة ومراقبة طفل وهو يغرق. سترى كذلك أنه من السهل عليك أن تدخل في البركة وتنقذ الطفل. على الرغم من أن ملابسك ستصبح موحلة، إلا أن الضرر الذي سيلحق بملابسك وأي مضار أخرى هي غير مهمة عند مقارنتها بحياة الطفل، أليس كذلك؟ وهكذا، فمن الواضح أنه يجب عليك إنقاذ ذلك الطفل.

يبدو أن مبدأ سينغر الأخلاقي يجسد بدقة لماذا يجب على أي شخص يمر على ذلك الطفل الغارق تقديم المساعدة: يمكن للمرء أن ينقذ حياة ويقوم بذلك مقابل تكلفة أخلاقية صغيرة للغاية. ما يريد سينغر منا أن نأخذه بعين الاعتبار هو أن قبول هذا المبدأ له آثار عميقة على الكيفية التي يجب أن نعيش بها يوماً بعد يوم. لاحظ أنه بنفس الطريقة التي يمكن للشخص في المثال أن يساعد الطفل دون التضحية بشيء ذي قيمة أخلاقية عالية، كذلك يمكن أن يتغاضى الغريبيون عن بعض الكماليات من أجل فائدة أولئك الذين يواجهون الكوارث، مثل المجاعات والأمراض القابلة للعلاج. من الواضح أن الكثيرين منا لا يعتبرون أنفسهم أثرياء، ومع ذلك فإننا غالباً ما نفرق في الكماليات الصغيرة مثل الأقراص المدججة وأقراص الفيديو الرقمية والملابس ذات العلامات التجارية الفاخرة، والأطعمة الفاخرة. إن مبدأ سينغر الأخلاقي يجبرنا على تحديد ما إذا كان التمتع بهذه الكماليات الأصغر

قيمة هو أكثر أهمية من إنقاذ الأرواح البشرية.

لندعو حجة سينغر بـ "الحجة من الوقاية". في الأساس، هو يجادل بأنه إذا كانت المعاناة والموت بسبب نقص الطعام والمأوى والرعاية الطبية سيئة، وإن كان بوسعنا منع حدوث مثل هذه الأشياء السيئة، فعندئذ نحن كأفراد يجب علينا، أخلاقياً، منعها. وبالنظر إلى أن هذا النوع من المعاناة أمر سيئ ويمكننا المساعدة فيه، يعتقد سينغر بشكل غير قابل للجدال أنه يجب علينا، كأفراد، منع حدوث مثل هذه الأشياء السيئة. يأخذ سينغر الأمر إلى حقيقة أن المعاناة بسبب المجاعة والمرض والمأوى ومثل هذه الأشياء سيئة جداً. في الواقع، يدعي أنه إذا كنت لا توافق على حقيقة هذا الادعاء، فتوقف عن قراءة مقاله! ولكن لأجل مصلحة مناقشتنا، سنفترض (إلى جانب سينغر) أن هذا الادعاء صحيح.

من المهم الآن فهم فكرة سينغر عن الـ "العطاء". وعلى وجه التحديد، كم علينا أن نعطي من أنفسنا في محاولة لمساعدة من هم في أمس الحاجة؟ يقرر واين الشاب بوضوح أن يعيش نسخة من حياة التضحية، طالما أن أنشطة باتمان الليلية تهدف إلى منع معاناة ووفاة من يسكنون غوثام. من المؤكد أن هذه التضحية كافية، أليس كذلك؟ لكن كلمات سينغر الخاصة حول "كم الذي سيكون كافياً" مذهلة:

"أحد الاحتمالات [النسخة القوية منها]... هو علينا أن نعطي حتى نصل إلى مرحلة المنفعة الحدية، أي المستوى الذي إذا ما أعطينا المزيد عنده فستسبب بالضرر والمعاناة لأنفسنا ومن نعيّلم بنفس القدر الذي سنقلل به من معاناة الآخرين بعطائنا هذا. وهذا يعني بالطبع أن المرء ستصل ظروفه المادية إلى درجة قريبة للغاية من الظروف المادية للفقراء الجائعين. [بدلاً من ذلك] إقترحتُ نسخة أكثر اعتدالاً - والتي يجب علينا فيها منع حدوث الأمور السيئة ما لم نجبر على التضحية بشيء بالغ الأهمية أخلاقياً - فقط

لكي نبين، حتى بالرغم من هذا المبدأ غير القابل للمناقشة بكل تأكيد، بأن حياتنا أصبحت تتطلب تغييراً كبيراً..⁵

يوضح سينغر أعلاه أن هناك نسختين من العطاء، نسخة قوية متطرفة، ونسخة معتدلة (لاحظ أنه متشكك في الأخيرة، لكنه على استعداد لاعتمادها من أجل النقاش). تدعي النسخة القوية بأننا ملزمون أخلاقياً بأن نعطي حتى نصل إلى النقطة التي نتسبب فيها لأنفسنا بالمعاناة نفسها التي تمر بمن نعطيهم، ما لم نضطر أثناء القيام بالعطاء للتضحية بشيء ذي أهمية أخلاقية علينا. وعلى النقيض من ذلك، تدعي النسخة المعتدلة أننا ملزمون أخلاقياً بالعطاء حتى نصل إلى النقطة التي نضحي بها بشيء ذي أهمية أخلاقية كنتيجة لمقدار عطائنا.

باتمان ضد سينغر: المعركة على إغاثة غوثام

من غير الواضح كم الثقل، إن وجد، الذي قد يضعه الشاب واين على خيار التخلي عن معظم أو كل ثروته الموروثة. ولعل حادثة وقعت في وقت لاحق في حياته تعطي بعض الدلالة على موقفه العام تجاه هذا العطاء الخيري. تتضمن القصة المصورة «A Death in the Family» (1988)، والتي تحكي قصة قتل الجوكر لروبن الثاني (جيسون تود)، وتتضمن مشهداً يظهر فيه بروس واين مع ضحايا المجاعة في إثيوبيا. أثناء التفكير في هذه المأساة الإنسانية، يفكر واين مع نفسه: "يتدفق اللاجئين إلى المخيمات بالآلاف كل يوم. إنه أمر مفرح تماماً. عندما أعود إلى غوثام، سأرسل شيكاً آخر للمساعدة ومحاولة نسيان ما شاهدته هنا. أنا لست مختلفاً عن أي شخص آخر. هناك فقط الكثير للقيام به حتى بالنسبة لبروس واين وباتمان".

لاحظ شكوك واين حول مدى فاعلية تبرعاته، وكذلك رغبته في نسيان

المعاناة التي يراها في إثيوبيا، رغبة سيتصرف وفقها، غالباً بعد أن يتبرع بشيك آخر. هل كانت هذه المعتقدات والسلوكيات موجودة في تفكير واين كرجل يافع؟ إذا كان الأمر كذلك، وإذا كانوا يمثلون ما هو واقعي ومقبول أخلاقياً، فربما سيسطيعون المساعدة في مواجهة التحدي الذي يطرحه سينغر. وهذا التحدي هو حول ما إذا كان واين يستطيع أن يصبح باتمان في ضوء النسخة القوية للعطاء أو النسخة المعتدلة.

فيما يتعلق بالنسخة القوية، فإن التحدي واضح: يجب على واين أن يمنح معظم ثروته - بما في ذلك ميراثه ودخله الحالي من شركة Wayne Enterprises - إلى من هم في أمس الحاجة، ما لم يتمكن من إظهار أن ما سيحدث بعد أن يصبح باتمان ذا قيمة أخلاقية مماثلة. يمكن لنفسي مثل سينغر أن يقرّ بأنه إذا كان واين ناجحاً كباتمان - وهذا هو تساؤل كبير جداً - إذا أستطاع الحد من الجريمة بمقدار كبير فهو يحارب لدعم مدينة غوثام، وهو الأمر الذي سيؤدي على الأرجح إلى تقليص بعض من المعاناة. لكن هذه المساعدة تكون ضئيلة بالمقارنة مع الفوائد التي يمكن أن يجلبها بشكل فوري إلى جماهير الفقراء والمحتاجين في جميع أنحاء العالم، لا سيما بالنظر إلى احتمال استغلال ثروته لفائدة منظمة ذات سمعة جيدة. ومرة أخرى، فإن هذا يتعارض مع احتمالية النجاح الذي سيحققه وهو يرتدي ملابس الوطواط، ويقا تل الأشرار الذين يستخدمون أسلحة عالية التقنية، ومحافظاً بنفس الوقت على غطاءه كملياردير لعوب. إن المعنى الضمني هنا هو أن واين لا يستطيع الدفاع عن خيار أن يصبح باتمان وفقاً للنسخة القوية من عطاء سينغر.

وإستجابة للنسخة القوية، يمكن أن يقر واين بواجبه الأخلاقي في إعطاء المحتاجين، ولكنه يصر على أنه إذا ترك حياة باتمان، فإنه سيتخلى عن شيء ذي قيمة أخلاقية مساوية. تحديداً، قد يدعي أن رغبته في تكريم ذكرى

والديه من خلال إعانة غوثام تعتبر معقولة كـ "قيمة أخلاقية متساوية".
ومثل هذا الرد، إذا كان صحيحاً، قد يسمح له بأن يصبح باتمان ويساعد
المحتاجين بتبرعاته بمقدار أقل مما تفرضه عليه النسخة القوية في الوقت ذاته.
ومع ذلك، فإن لدى سينغر رداً على هذه الحجة بناءً على معنيين ضمنيين
مما تتضمنهم نفعيته. والمعنى الضمني الأول هو أن أي نسخة من العطاء
لا تعترف بقرابة أو مسافة أولئك الذين يحتاجون إلى المساعدة.⁶ أما المعنى
الضمني الثاني فهو أن أي من نسختي العطاء، لا تعتبران فكرة أن إعطاء
الجانج مسألة خيرية.⁷

بالشكل النفعي الحقيقي، يوضح سينغر أن الموقع، خاصة في سوقنا
العالمي التفاعلي الغني، هو غير ذي صلة فيما يتعلق بصنع القرار الأخلاقي.
فكل شخص يعتبر واحداً من الناحية الأخلاقية، وهذا كل شيء. لذا، فإن
معاناة مواطني "غوثام" من "العالم الأول" على يد الجريمة، ورغم أهميتها،
ليست بأكبر أو أهم من حاجات الأعداد الهائلة من الفقراء الجائعين في
الدول الفقيرة الذين يواجهون موتاً محتملاً. وبالتالي، فإن روابط القرابة لوابن
مع غوثام لا تضيف أي "نقاط" إضافية في حساب نفعي يزن الأضرار
مقابل الفوائد. الفكرة هنا هي أن وابن لا يمكنه استخدام الصوابية المفترضة
في تكريم ذكرى والده من خلال التركيز على مساعدة غوثام، حتى عندما
تكون لها فائدة في التخفيف من بعض المعاناة هناك كورقة رابحة ضد نفعية
سينغر.

قد يرغب المحب العارف، المسلح بمعرفة كبيرة للجدول الزمني
لأسطورة باتمان، بالإشارة إلى أنه بمجرد أن يحول وابن نفسه لباتمان، فإنه لن
يمض وقت طويل قبل أن يبدأ في مواجهة الأشرار الذين يرغبون في التسبب
بالدمار والمعاناة إلى ما هو أبعد من حدود مدينة غوثام. ومثل النفعيين، لا
يهتم الأشرار كثيراً بالقرابة والمسافة، ليس عندما يدركون بأن هناك أموالاً

وقوة يمكن أن يحصلوا عليها بعيداً عن الوطن! لذا، ووفقاً لمحبي باتمان شديدي الثقافة، فمن غير العادل بعض الشيء أن نقول إن جهود واين كباتمان لن تفيد سوى سكان مدينة غوثام.

تذكر، مع ذلك، أننا في هذا الفصل نقوم بتحليل قرار واين الأولي لأن يصبح باتمان فقط. وما نريد معرفته هو ما إذا كان هذا القرار بحد ذاته معقولا أخلاقياً من منظور نظري أخلاقي معين. من المؤكد أن النفعية ستتطلب من واين إلقاء نظرة دقيقة على ما يمكن أن يكون أكثر الطرق مسؤولية للاستفادة من موارده الهائلة بالنظر إلى معرفته في الوقت الذي يتخذ فيه هذا القرار وهو شاب. وبالتالي، لا تزال الحالة هي أنه، في وقت مبكر جداً من اتخاذ واين لقراره، ستلقي النفعية نظرة متشككة على خيار واين في مكافحة الجريمة بصفته باتمان.

باتمان ضد سينغر (الجولة الثانية): لا للأبطال الخارقين الذين يذهبون إلى أبعد مما هو مطلوب

ما الذي سيقوله سينغر لواين الذي يتذرع بمفهوم الأعمال الخيرية التي تتعدى نداء الواجب؟ يمكن أن يجادل واين بأن رغبته في تكريم ذكرى والديه والمدينة التي أنقذها أبوه من الخراب عملياً لديها أكثر من مجرد شرعية أخلاقية، لدرجة أن مساعدته للآخرين المحتاجين (خارج مدينة غوثام) يجب أن يُنظر لها كأعمال خيرية. حيث من الناحية الأخلاقية، يستطيع واين الإصرار على أن تبرعته الخيرية للآخرين تتجاوز المطلوب منه بشكل واضح، أي أن مساهماته الخيرية يجب أن تُحسب على أنها تتجاوز حدود الواجب. ومن هذا المنظور، يمكن أن يدّعي واين لنفسه بأنه ليس أخلاقياً وبطولياً فقط، بل أيضاً أخلاقياً خارق وبطل خارق، لتصرفه بما يتجاوز الواجب الأخلاقي. ولكن النفعي من شأنه أن يرفض هذا. إذ عادة، ووفقاً للنفعية، فإن الأعمال

الخيرية أو الخارقة بشكل مفرط غير موجودة لأن مثل هذه الأفعال، عندما يقال ويُفعل كل شيء، يتبين أنها حقيقة واجبة على أي حال. ومثل هذه الأفعال ستكون «مفرطة» بشكل واضح! وكما كتب لورانس هينمان Lawrence Hinman، وهو فيلسوف أخلاقي آخر: "يجب على المرء دائماً أن يفعل الشيء الذي يحقق أكبر قدر من المنفعة، وهذا الالتزام هو الذي يشكل الواجب بالتحديد. . . . أما بالنسبة للنفعية، فليس هناك مكان للتعبير عن الإفراط في العطاء، لأن الواجب يتطلب ما هو أكبر من ذلك بكثير".⁸

يعتقد سينغر بأنه على الأقل يكون الثقل الأخلاقي للمعاناة الناتجة عن نقص الطعام والمأوى والرعاية الطبية كبيراً للغاية بحيث لا يمكن أن تكون الجهود المبذولة لإختزال تلك المشاكل "أعمالاً خيرية".⁹ وهكذا فإن تبرعات واين لتخفيف هذه المعاناة، والتي كان يمكن أن تكون أكبر بطبيعة الحال، لولا تكاليف كونه باتمان، لا تعتبر أعمالاً خيرية ولا إفراطاً. يجب أن يكون واضحاً الآن بأن الحياة الأخلاقية النفعية مرهقة جداً، وهذه بالضبط هي نقطة سينغر. يمكن لسينغر أن يردّ في النهاية على واين، وذلك أن حاجته من الوقاية بحيث لا تزال بمنأى عن حجج واين المقابلة. لذا، وبناءً على النسخة القوية للعطاء، فإن واين ملزم أخلاقياً بالتخلي عن أن يصبح باتمان لصالح منح ثروته للمحتاجين. إذا اختار أن يتجاهل النسخة القوية للعطاء، فإن اختياره ليصبح باتمان وأفعاله الأخرى ستعتبر غير أخلاقية من هذا المنظور النفعي.

من حيث النسخة المعتدلة للعطاء، على واين أن يثبت أن لديه مبرراً مقنعاً للعطاء إلى النقطة التي لا يضطر فيها للتضحية بحياته كباتمان وكل ما يأتي مع هذه الحياة، حياة سيحتاج بأنّها مهمة من الناحية الأخلاقية. تكمن المشكلة هنا في أنه ليس من الواضح (حتى في تحليل سينغر) ما الذي يعتبر بالضرورة "مهماً من الناحية الأخلاقية". يمكن للمرء أن يجادل بأن للكليات أهمية

أخلاقية كبيرة لأنها توفر درجة من السعادة. ومن الواضح أن هناك حاجة إلى بعض القيود على ما يُعتبر على أنه "مهم من الناحية الأخلاقية" لتجنب الآثار المترتبة على أن أي قيمة ترف تعتبر ذات قيمة أخلاقية. وبتتبع رأي سينغر، نقترح أن يكون هناك شيء ما يُعتبر "مهما أخلاقياً" إذا وفقط إذا كان مثل هذا الامتلاك يجلب السعادة لذات الشخص، وتكلفته لا تؤثر على التقليل من معاناة من يعيشون في فقر مدقع.

وبناءً على هذا التعريف، يُسمح للناس بالاحتفاظ بجزء من مكاسبهم المادية بناءً على طريقتهم في الحياة، ولكن يجب عليهم التخلي عن جزء منها لمساعدة الآخرين. تماشياً مع روح حساب سينغر، فإن التعريف يستبعد (في الأغلب) امتلاك العديد من المواد المادية "التافهة"، لأنه من المحتمل أن يأتي على حساب تقليل كمية كبيرة من المعاناة لأولئك الذين يعيشون في الدول المنكوبة بالمجاعة.

إنتصار سينغر: سطوع ضوء التنوير على كهف الوطواط

ورداً على سينغر، بإمكان واين أن يقدم دفاعاً معقولاً عن اختياره ليصبح باتمان عن طريق كل من النسخة المعتدلة من العطاء وتعريف «الأهمية الأخلاقية». أولاً، حقيقة أنه قادر على إنقاذ حياة العديد من الناس وتوفير الأمن لمدينة غوثام يوضح أن أسلوب حياته (بشكل عام) ذو أهمية أخلاقية. فبعد كل شيء، حتى لو حقق نجاحات بسيطة فقط، فإن جهوده ستقلل من المعاناة والموت، وهو بالضبط ما يعرفه سينغر بوضوح باعتباره مهماً من الناحية الأخلاقية. ثانياً، من الواضح أن الدخل الذي يحصل عليه واين من مؤسسة واين يقدم له نوعاً من الأمن المالي والتقني ليصبح فارس الظلام، ويسمح له أيضاً بالتبرع للمحتاجين من خلال مؤسسة واين. لذا، وعلى الرغم من أن واين ينفق مبالغ مالية كبيرة لإخفاء هويته كباتمان وإظهار نفسه

كرجل لعب وكسول، فإن نفقاته مسموح بها ضمن الحدود المسموح بها، بل وضرورية أيضاً لأسلوب معيشته ذي الأهمية الأخلاقية. وهكذا، يمكن أن يدافع واين عن خياره في أن يصبح باتمان كخيار مقبول أخلاقياً في نطاق النسخة المعتدلة للعطاء.

وعلى الرغم من إمكانية تحقيق النسخة المعتدلة من قرار واين في أن يصبح باتمان، إلا أن سينغر لا يرى حقاً أي سبب لتفضيله على النسخة القوية. إذ يكتب:

«لا أرى أي سبب وجيه لاتباع النسخة المعتدلة من المبدأ بدلاً من النسخة القوية. وحتى إذا قبلنا المبدأ فقط في شكله المعتدل، فيجب أن يكون واضحاً أنه سيتعين علينا التخلي عما يكفي لضمان أن المجتمع الاستهلاكي، الذي يعتمد على الأشخاص الذين ينفقون على التوافه بدلاً من تقديم الإغاثة للمجاعة، سيتباطأ وربما يختفي تماماً».¹⁰

هذا الاستياء ليس مفاجئاً، نظراً لحالة سينغر كنفعي حقيقي. لدى النفعية عادة عنصر تعظيم/تصغير، بحيث أن ما هو أخلاقي هو ما يجلب أكبر خير ممكن، أو أقل سوء ممكن، لأعظم عدد ممكن. لذا فإن النسخة المعتدلة من العطاء ليست نفعية حقاً (بتناولها من الجانب التقليدي للنفعية) بطبيعتها؛ لذلك، فإن استخدام النسخة المعتدلة لدعم قرار أن يصبح باتمان هو ليس الشيء نفسه الذي تطالب به النفعية التي يعتنقها سينغر.

ولكن هناك سبباً آخر لجعل قرار بروس واين لا يتناسب كثيراً مع النفعية، وهذا السبب قد يعتمد على اختيار بروس منذ البداية: حقيقة أنه يحتاج بالماضي لتبرير أن يصبح باتمان. أما بالنسبة للنفعية، فإن ما يحدد مدى أهمية الأفعال هو عواقبها المستقبلية، لذلك لن يتم اعتبار وفاة والدي بروس والتزامهما بمدينة غوثام كأسباب كافية لمحاربة الجريمة. وحدها النتائج المستقبلية المفيدة يمكنها أن تبرر قرار بروس، وسبق وأن طرحنا الكثير من

الشكوك حول هذا الأمر! ومرة أخرى، فإن "الحجج" النفعية "لسينغر" ستجبر بروس واين على التخلص من ذكرياته المشحونة أخلاقياً، وبيع زي الوطواط خاصته وحزام أدواته، والتخلي عن جميع أمواله تقريباً للفقراء الذين يعانون من الجوع.

لكن ذلك سيُدمر كل شيء

إذا كنت من محبي شخصية باتمان، مثلنا، فأنت على الأرجح لا تحب إمكانية عمل الشاب بروس واين على نصيحة النفعية بأن يصبح باتمان أبداً. «إنه متطلب بشدة وبالتالي غير معقول»، كما قد تفكر في ذلك مع نفسك. لكن النفعية تمثل طريقة قوية في التعامل مع المشاكل الصعبة أخلاقياً، خاصة عندما تمثل هذه المشاكل خياراً بين التضحية مع الحفاظ على رفاهية عدد كبير من الأشخاص، والتضحية من أجل الخير الذي سيُطال عدداً أقل من الأشخاص، حتى عندما يكون بعض هؤلاء القليلين مقربين بالنسبة لنا.

في الواقع، فإن بروس واين الناضج، كباتمان، أحياناً ما يتبنى التفكير النفعي عند الاقتراب من مثل هذه المشاكل. تذكر، على سبيل المثال، الوقت الذي سرق فيه الجوكر الإمدادات الطبية واستبدلها بغازه الضاحك القاتل، وهو يتطلع إلى ترك بصمته عن طريق القضاء على مخيم إيثوبي كامل للاجئين. وبعد أن اكتشف باتمان مؤامرة الجوكر، كان عليه اعتراض قافلة شاحنات تحمل الشحنة القاتلة للجوكر. ولكن، باتخاذ قرار ملاحقة الشاحنات، يجب عليه مغادرة روبن (المعروف أيضاً باسم جيسون تود)، مع علمه بأن إمكانية أن يتضرر أو يقتل على يد الجوكر مرتفعة جداً. في اتخاذ قرار ترك روبن، يتخذ باتمان خياراً أخلاقياً بين إنقاذ مئات الأشخاص المعرضين لخطر محقق أو الذهاب نحو صديقه وشريكه، روبن، لمواجهة الجوكر. وهكذا، اختار باتمان منع وفاة ومعاناة العدد الأكبر من الأشخاص؛ وكما يبرر باتمان لنفسه: «لم

يكن لدي أي خيار، حقاً» (A Death in the Family).

من المثير للسخرية أن طريقة التفكير هذه كانت ستحول دون تحول واين إلى باتمان في المقام الأول! ولعل ما يوضحه هذا، على الرغم من ذلك، هو كيف أن من المغربي استحضار النفعية عندما تظهر الاختيارات الأخلاقية الصعبة نفسها، خيارات تنطوي على ضرر كبير جداً، وفوري جداً، وملمس جداً، بحيث نشعر بضغط عقلائي هائل للتخفيف من هذا الضرر. لكن نقطة بيتر سينغر هي أن مثل هذه الأضرار تحدث باستمرار في كل مكان حولنا. إن استيعاب هذه الحقيقة يجعلنا نتخذ خياراً أخلاقياً صعباً: هل ينبغي علينا محاكاة "بروس واين" الأصغر وتكریم التزاماتنا تجاه أولئك الأقرب إلينا بينما نسعى لتحقيق مصالحنا الذاتية؟ أو، كما هو الحال مع واين الناضج، أنه يجب أن نكون مستعدين للتضحية برفاهية هؤلاء الأشخاص، بما في ذلك المقربين جداً منا، من خلال محاولة تقديم أفضل خدمة لأكبر عدد من الأشخاص؟

- 1- مايكل نوير وديفيد م. إيوانس "The Forbes Fictional Fifteen"، موقع Forbes.com، تاريخ 20 نوفمبر 2006، 28 سبتمبر 2007. أنظر: // http: / / www.forbes.com / 2006 / 11 / 20 / forbes-fictionalrichest-tech-media_cx_mn_de_06fictional15_intro.html
- 2- فيما يتعلق بأساطير باتمان، فإن فهمنا لقرار بروس واين بأن يصبح باتمان نابع من قراءتنا لقصة فرانك ميلر Batman: Year One وفيلم كريستوفر نولان الذي ألهمه، Batman Begins (2005)، والذي يظهر ولاء بروس واين لوالديه القتل بشكل مشابه.
- 3- بيتر سينغر "المجاعة، الثراء والأخلاق"، فلسفة وشؤون عامة 1، العدد 3 (ربيع 1972)، الصفحات 229-243.
- 4- راجع النغمة لجون ستيوارت ميل (Indianapolis: Hackett Publishing) (2005).
- 5- سينغر "المجاعة، الثراء"، الصفحة 241.
- 6- المرجع الأخير، الصفحة 231.
- 7- المرجع الأخير، الصفحة 235.
- 8- لورانس م. هينمان، الأخلاق: نهج تعددي للنظرية الأخلاقية (Belmont CA: Wadsworth 2003)، الصفحة 143.
- 9- سينغر "المجاعة، الثراء"، الصفحة 235.
- 10- المرجع الأخير، الصفحة 241.

ما الذي قد يفعله باتمان؟ بروس واين كأنموذج أخلاقي بقلم: ريان اندي رودز وديفيد كايل جوبنسون

نماذج أخلاقية

كيف يمكنني عيش حياة جيدة؟ أحد الإجابات البارزة على هذا السؤال تتضمن نماذج أخلاقية، وهم أناس يجسدون الفضائل الأخلاقية. حيث من خلال دراسة النماذج الأخلاقية يمكننا اكتشاف الفضائل، ومن خلال محاكاة النماذج الأخلاقية، يمكننا أن نعيش حياة جيدة فاضلة. لكن ما هي تلك النماذج الأخلاقية؟ وللبداء، قد نضع قائمة بالرجال والنساء المشهورين الذين عملوا من أجل تحقيق تغيير إيجابي في العالم مثل: يسوع وبوذا وغاندي والأم تريزا والدالاي لاما وغيرهم.

ولكن ماذا عن باتمان، هل يمكن أن يكون على هذه القائمة أيضًا؟¹ إن باتمان، وعلى الرغم من إمتلائه بالانتقام، إلا أن معظم معجبيه يعتقدون بأنه جيد أخلاقياً. إنه واحد من "الأشخاص الطيبين" والذي كرس حياته لحماية الناس من الأشرار الخارقين مثل البطريق والجوكر وريدلر وباين،

ناهيك عن المحتالين والمتنمرين العاديين في الشوارع. ومثل شخصيات خيالية بطولية أخرى من أمثال السير جالاهاذ وروبن هود وموموتارو (من الفولكلور الياباني)، فأن باتمان يحارب باتمان لجعل العالم مكاناً أفضل. لذا فمن المنطقي أن نفكر بأنه إذا كنا أشبه بباتمان، فسنكون أشخاصاً أفضل ونجعل من عالمنا مكاناً أفضل أيضاً. ومع ذلك، يجادل بعض الفلاسفة أن الشخصيات الخيالية مثل باتمان لا يمكن أن تكون بمثابة نماذج أخلاقية. وفي هذا الفصل سنرد على اعتراضاتهم ونحاجج بأن باتمان يمكنه بالفعل شغل هذا الدور.

فضائل باتمان

على الرغم من أن معظم القراء لا يحتاجون إلى تذكير، ولكن دعونا نأخذ بعض الأمثلة على كيفية تجسيد باتمان للفضائل الأخلاقية. إن العدالة هدف ثابت لأنشطته، ليس فقط بالمعنى العام لمحاربة الجريمة وحماية الأبرياء، ولكن في مساع أكثر تحديداً. فعلى سبيل المثال، في Batman (Winter # 7 Chronicles 1997)، حقق باتمان في قضية امرأة مدانة بناء على شكوك في اللحظة الأخيرة حول ذنبها. وفي جزء من قصة ملحمة No Man's land، قام بعمل نسخ مكررة من سندات الملكية من أجل إيقاف ليكس لوثر من الحصول سندات ملكية مزورة لمعظم مدينة غوثام.² وفي فيلم بداية باتمان (Batman Begins) (2005)، تظهر فضيلة باتمان عندما يضحى بسمعته - وبالتالي والده الراحل - من أجل إنقاذ ضيوفه من عنف وشيك. ونرى كرم باتمان في الصناديق الخيرية العديدة التي يمولها، وكذلك في حالات معينة مثل تلك التي ظهرت في Azrael # 2 (مارس 1995)، حيث يعطي حليفه المهزوم - الذي تحول إلى خصم - عدة ملايين من الدولارات للمساعدة في إعادة بناء حياته المحطمة. إن أمثلة الشجاعة

موجودة في كل مكان في شخصية باتمان لدرجة أنه من الصعب اختيار مثال واحد. حيث تظهر من التسلل إلى العالم السفلي، لمجابهة المجانين، الى القفز في الهواء مستعيناً بحبل لإمساك وإنقاذ شخص بريء، عملياً، فأن كل ما يفعله باتمان يتطلب عملياً أقصى درجات الشجاعة.

الإعراض غير الواقعي

وبدلاً من إنكار أن باتمان هو شخص فاضل، يعتقد بعض الناس بأن تصوير شخصية باتمان غير واقعي لدرجة أن منافسته ومضاهاته مستحيلة. حيث لا يستطيع أحد فعلاً القيام بالأشياء التي يقوم بها، وبالتالي فهو نموذج غير مناسب بالنسبة للسلوك البشري الإعتيادي. وبطبيعة الحال، فهذا الأمر هو أقل إثارة للقلق مع باتمان مما هو مع أبطال خارقين آخرين. حيث أن باتمان يعتبر أكثر واقعية من نظرائه في DC مثل سوبرمان، غرين لانترن (الفانوس الأخضر)، ووندر وومان (المرأة العجيبة). إذ أن باتمان ليس فضائياً، وليس لديه خاتم سحري يخلق أشياء من قوة إرادته، ولم يكن مباركاً بقوى عظمية من الآلهة. في الواقع، فإن جزءاً كبيراً من جاذبية باتمان ترجع لكونه إنساناً ذكياً للغاية يتمتع بمهارات بدنية استثنائية والكثير من المال، ولكنه مجرد إنسان رغم كل ذلك. وكل "قواه" مستمدة من تدريبه وذكائه والأجهزة والسيارات التي تمكنه ثروته الطائلة من شرائها أو بنائها.

ومع ذلك، لا يمكن محاكاة بعض أعماله بطريقة واقعية. ربما أن قلة قليلة من الناس (إن وجدوا) سيستطيعون تحمل العبء النفسي المتمثل في محاربة القتل واللصوص والمرضى النفسيين باستمرار دون قول شيء عن البراعة البدنية المطلوبة لذلك. وباتمان هو "أعظم المحققين في العالم"، فهو عادة ما يحل بعض الألغاز التي تترك المفوض غوردون وبقية شرطة غوثام في حيرة. وهو أبرع المقاتلين بالأيدي في العالم، حيث أنه قادر على الالتحام وهزيمة

العديد من الأعداء المسلحين في وقت واحد. وعلى حد تعبيره الخاص: "إن تفادي إطلاق النار هو أساس كل ليلة من لياليه"،³ ويمكنه أن يجبس أنفاسه لأربع دقائق أثناء السباحة،⁴ وهو لا يبتكر خطأً يسبق فيها أعداءه بخمس خطوات إلى الأمام فقط، بل وأن خطته كلها تتضمن "خمس" خطط أخرى للطوارئ، وخمس خطط احتياطية لخطط الطوارئ تلك.⁵ وعلى الرغم من كونه ليس ببشري خارق من الناحية التقنية، إلا أن قدرات باتمان الذهنية والبدنية القصوى تفوق بكثير قدرات معظم البشر.

ومع ذلك، فإن محاكاة نموذج أخلاقي ما لا يتطلب الاستنساخ الدقيق لنشاطات محددة. حيث من الضروري محاكاة فضائله بدلاً من ذلك. انني لست بحاجة إلى أن أشفي المرضى بمعجزة لأعادل فضائل يسوع المسيح. ولكن، وعن طريق مساعدة المرضى بأية طريقة أقدر عليها، سأستطيع أن أعبر عن شفقة مشابهة لتلك التي عنده. وبنفس الطريقة، لا أحتاج إلى التسلل إلى مجمع محصّن وإطلاق سراح سجين سياسي، وحيداً ومن دون سلاح، أو إخضاع مجموعة من المعتصمين، أو استثمار ملايين الدولارات لتوفير كل المعدات والمعلومات اللازمة من أجل محاكاة فضائل باتمان.. ولكن من خلال نشاطات مثل كتابة رسائل إلى منظمة العفو الدولية، ودعم برامج الدفاع عن النفس للنساء، وتوزيع الطعام على الفقراء مع قوات إنقاذ، سيمكنني محاكاة عدالة وإحسان وسخاء باتمان. قد لا أفعل بالضبط ما يفعله باتمان، ولكن لا يزال بإمكانني تحسين نفسي وحياة الناس من حولي من خلال زرع بذور فضائله.

إعترض اللغة

وبما أن باتمان هو شخصية خيالية، فيبدو أنه لا يمكن الإشارة إليه عن طريق اللغة. ولأن باتمان ليس حقيقياً، فالأحكام الصادرة عنه لا تعمل

بالطريقة نفسها التي تعمل بها حول الأشياء الموجودة بالفعل. أنظر في العبارتين التاليتين: (1) «بروس ويليس ثري» و (2) «بروس واين ثري». الجملة الأولى صحيحة لأنها تشير إلى «شيء» موجود بالفعل: وهو الممثل بروس ويليس. ويليس إما أنه يملك أو لا يملك ميزة «الثراء». إن حساب ويليس البنكي هو ما يجعل هذا التصريح صحيحًا أو كاذبًا، إنه صانع الحقيقة في هذا التصريح. وكما هو الحال، فإن حساب بروس ويليس المصرفي ممتلئ تمامًا، لذا فإن البيان صحيح. ولكن إذا لم يكن هناك شخص يدعى «بروس ويليس»، فإن الجملة لن يكون لها صانع حقيقة، فكيف يمكن ذلك؟ فهي لن تشير إلى أي شيء! لذلك إذا لم يكن بروس ويليس موجودًا، فإن التصريح المتعلق بشأن ثروته لا يمكن أن يكون، لا صحيحًا ولا زائفًا.

لذا يبدو أن الجملة الثانية: «بروس واين ثري»، بالمثل لا تكون صحيحة ولا زائفة. حيث لا يوجد شخص حقيقي قائم يدعى «بروس واين» يرتدي قناعاً وعباءة لزرع الخوف في قلوب المجرمين والأشرار. وعلى هذا النحو، لا يمكن أن نتأكد من صحة أو كذب أن بروس واين غني أو - بدرجة أكبر لأجل نقاشنا - فاضل. إذا لم يكن باتمان موجودًا، فإن الاعتراض سيمر، ولا يمكن أن يكون صحيحاً القول عن باتمان أنه فاضل. وبالتالي، سيكون من الخطأ وضعه في قائمة «النماذج الأخلاقية».

ومع ذلك، فإن هذه الحجة لا تأخذ في الحسبان سمة مهمة لكيفية استخدامنا للغة. صحيح أن باتمان لا وجود له بالطبع: حيث لا يوجد ملياردير فعلي يدعى بروس واين والذي يحارب الجريمة بمزيج من فنون الدفاع عن النفس، والعمل التحقيقي، ومجموعة مذهلة من الأدوات. ومع ذلك، وفي الحديث عن شخصية باتمان، لا يزال من الصحيح أن نقول أن اسم باتمان الحقيقي هو بروس واين، وقد قتل والداه عندما كان صغيراً، وهو يرتدي بدلة مع قناع وعباءة عندما يحارب الجريمة، وما إلى ذلك وهلم

جرا. إذا نفى شخص ما أو عارض هذه الادعاءات، فسنقول إنه يفتقر إلى المعرفة حول هوية باتمان بحق. لذا وعلى الرغم من عدم وجود باتمان فعلياً، فإن تلك التصريحات عنه صحيحة، لكن ليس بالمعنى الحرفي للكلمة.

ولكن ما الذي يمكن أن يعنيه: «غير صحيح حرفياً»؟ أليس ذلك مماثلاً للقول بأنه ليس صحيحاً إطلاقاً؟ ليس تماماً. بالنظر في تصريح «التنانين تنفث النيران» يبدو هذا القول صحيحاً على الرغم من عدم وجود التنانين. لماذا؟ حسناً، عندما نقول «التنانين تنفث النار» فنحن لا نعني حرفياً أن: «هناك على الأقل كائناً حياً واحداً يدعى تنين وهذا المخلوق ينفث النار». نحن نعرف جيداً أن الفهم الحرفي للجملة غير صحيح. ولكننا في الحقيقة نعني شيئاً مثل «إن تصورنا للتنانين يتضمن نفثها للنار»، وربما يعني ذلك بدقة أكبر «إن القصص التي تحتوي على تنانين تصورهم كنافثين للنار» وهذا صحيح!.

لذا وبالضد من هذا الاعتراض، عندما نقول «التنانين تنفث النار»، بالتالي فإننا لا نلجأ إلى الإشارة إلى أي شيء حقيقي، ولا نفشل في قول شيء قد يكون صحيحاً أو خطأ. نحن نشير إلى كيان قائم بالفعل: وهي القصص حول التنانين. فقولنا: «التنانين تنفث النار» يقول شيئاً عن محتوى تلك القصص. والفرق الرئيسي بين هذين النوعين من الجمل - «التنانين تنفث النار» و «بروس ويليس ثري» - هو أن ما يشير إليه الأول، أي «التنانين»، لا يظهر صراحةً في موضوع الجملة. وبالنظر إلى أننا نفهم مثل هذه التصريحات، يجب أن نعرف بالفعل أن العبارة لا يُقصد بها أمراً حرفياً، بل تعني، بدلاً من ذلك، شيئاً آخر.

وبنفس الطريقة، عندما نقول بأن «باتمان فاضل»، فإننا لا نعني حرفياً «إن أحد الأشياء الموجودة في الكون هو شخص يدعى باتمان وهذا الشخص هو شخص فاضل». وبدلاً من ذلك، فإننا نقول شيئاً يتعلق

بقصص باتمان: حيث يصوّر باتمان بطريقة فاضلة داخلها. وهذا في الواقع صحيح. وهكذا يبدو - على الرغم من عدم وجود باتمان في العالم الواقعي - بأنه لا يزال صحيحاً أنه فاضل. وفي هذا الصدد، تبدو أن حقيقة كونه شخصاً خيالياً ليس لها أي تأثير.

إعترض صيغة المبالغة

إن هنالك اعتراض آخر محتمل على اعتبار شخصيات خيالية مثل «باتمان» كنماذج أخلاقية، وهو أنه كما تظهر مهارات باتمان البدنية والعقلية من قبل الكتاب والفنانين لتكون أكبر بكثير من تلك الخاصة بمعظم الناس، فيمكن أيضاً أن ترتفع فضيلته إلى أبعد مما يستطيعه أي شخص عادي. وفي حالة النماذج التاريخية في العالم الحقيقي مثل يسوع، بوذا، الأم تيريزا، غاندي، والدالاي لاما، يجب أن يكون المثال ممكناً لتحقيقه لأن النماذج نفسها قد أرتقت إليه بالفعل. والحجة هي أن الشخصيات الخيالية غير مناسبة كنماذج، ليس لأنها تفتقر إلى الفضيلة، ولكن لأن كُتابهم يمكن أن يمنحواهم الكثير من الفضيلة بحيث لا يستطيع أحد تحقيق معاييرهم المستحيلة.

ومع ذلك، فإن هذا الاعتراض قد فشل. فالعديد من الأمثلة التاريخية لم تكن فاضلة كما نتخيلها جميعاً. في الواقع، فنحن نجرؤ على القول، عندما يتعلق الأمر «بالنماذج التاريخية»، أن معظم الأشخاص الذين نضعهم على «قائمة النماذج» في معظم الأحيان لا يعتبرون تاريخيين على الإطلاق، بل ومبالغ في شخصياتهم كأشخاص تاريخيين (أسطوريين). وعلى الرغم من أن بوذا كان فاضلاً بلا شك، إلا أن الكثير من خطابه وقواعده وقصصه كانت مزخرفة ومبالغا فيها خلال 400 عام من التقاليد الشفوية التي سبقت تسجيلها تحريرياً. فعلى سبيل المثال، تُعتبر حكاية علامات بوذا

الأربعة في الغالب رمزية، وليست تاريخية حرفياً.⁶ وعلى الرغم من انقضاء وقت أقصر بين حياة يسوع وكتابة الأناجيل، يمكن قول الشيء نفسه عن سجلات حياته وتعاليمه. وحتى عندما نفكر في سقراط - وهو نموذج مفضل للفلاسفة - فإننا نحمل تصوير أفلاطون له على الرغم من معرفة أنه انعكاس دقيق تقريباً لما قاله وفعله بالفعل. وهذا هو الحال مع النماذج الحديثة أيضاً. إذ ربما حتى غاندي والأم تريزا لم يكونا بالوضوح الذي جسدهما فيه "التاريخ" تماماً.⁷

لذا، فإن "نسخة" حياة الشخص التي تؤهله لقائمة النموذج الأخلاقي ليست تاريخية بشكل تام. فأولئك المتواجدون في القائمة هم جزئياً على الأقل خياليين مثل باتمان نفسه. ولكن هذا لا يعني أن بوذا، يسوع، غاندي والأم تريزا التاريخيين كانوا أشخاصاً سيئين. بالطبع لا! فلقد كانوا من أهل الخير، كل ما في الأمر، هو أن الفكرة التي كونّاها عنهم كنماذج أخلاقية قد لا تكون دقيقة تاريخياً. بالإضافة إلى ذلك، فإن هدفنا ليس إزالة النسخ المبالغ بها من تلك الشخصيات التاريخية من قائمة النماذج الأخلاقية. بل على العكس تماماً: يجب تركها كما هي! الفكرة هي أن الزخرفة الموجودة في حياة قدوة لا تؤثر على مسألة ما إذا كان ينبغي محاكاة هذا الشخص أم لا. لنفترض أن بوذا لم يجلس تحت شجرة تين الهند ليعتبر عن التنوير بعد وقت قليل من رؤيته، بتتابع، رجل عجوز وشخص مريض وموكب جنائزي وحكيم. فأن هذا لا يعني أن التنوير مفهوم تافه، كما أنه لن يقلل من قيمة بحث بوذا عنه. وبنفس الطريقة، فعلى الرغم من عدم ظهور أي شخصية تاريخية كان قد أبدت شجاعة وعدالة وما شابهها على ذات الطريقة التي أظهرها باتمان تحديداً، إلّا أننا لا يزال بإمكاننا تحسين أنفسنا من خلال محاكاة السمات الشخصية التي يعرضها. إذاً، فإن باتمان، وعلى الرغم من عدم كونه شخصية تاريخية، فهو يعتبر قدوة أخلاقية.

الى الدفاع: معلومات غير كاملة

حتى الآن، قمنا بمعالجة الاعتراضات التي تشير إلى أن الأمثلة غير الخيالية هي أفضل من الأمثلة الخيالية. لننظر الآن إلى حجة توحى بالعكس، وهي أن الشخصيات الخيالية (على الأقل بمعنى واحد) تمثل قدوة أخلاقية أفضل. وكما ناقشنا، فإن الحقيقة حول الأمثلة الأخلاقية التاريخية غالباً ما تكون أقل إثارة للإعجاب من المثالية المبالغ فيها، ولكن العديد من هؤلاء الأشخاص ما زالوا يستحقون المحاكاة. ومع ذلك، فمن الواضح أن هناك نقطة لن يكون من الممكن عندها الاستمرار في النظر إلى شخص ما على أنه مثير للإعجاب.

تخيلوا مستشارة للشباب المضطربين، التي جعلها تعاطفها وإصرارها وبصيرتها العميقة عضوة محترمة في المجتمع وبطلة شخصية للأطفال الذين ساعدتهم. إذا اكتشفنا أنه على الرغم من بذلها قصارى جهدها، فإن أبناءها يعانون من إضطرابات شديدة ويخالفون القانون باستمرار، قد يتغير تقييمنا لها، ولكن ربما سنستمر بإعتبارها جديرة بالثناء والمضاهاة. ومع ذلك، إذا اكتشفنا أنها حققت معدل نجاح منخفض مع المضطربين واكتسبت سمعتها عن طريق نسب عمل الآخرين لها زوراً، فإننا لن نستنتج من ذلك فقط أنها تخفق في أن تكون نموذجاً أخلاقياً بل وأنها شخص فاسد أيضاً. القصد من هذا المثال هو أننا ما لم نكن نعرف كل شيء عن حياة شخصياتنا، فإننا نواجه خطر إعتبار شخص ما بأنه فاضل رغم كونه ليس كذلك في الحقيقة. وحتى إذا لم يكن الشخص المعني سيئاً أخلاقياً، كما في المثال أعلاه، فربما لا نزال نكتشف أن أولئك الذين اعتقدنا أنهم أبطالاً كانوا في الحقيقة غير إستثنائيين أخلاقياً.

ولأن باتمان شخصية خيالية، فإنه لا يخضع لهذه الإشكالية. حيث يمكننا معرفة ما يفعله معرفة تامة، ليس ذلك فقط بل وجميع حالاته الداخلية

ودوافعه أيضاً. إذا كان الشخص الحقيقي يساعد شخصاً ما في حاجة، قد نتساءل عما إذا كان قد فعل ذلك لأنه عطوف حقاً أم فقط لأنه يخدم مصلحته الشخصية. مع باتمان، يمكننا أن نقرأ بالونة أفكاره في القصص المصورة ونحسم القضية. إذا سمعنا أحدهم يثني على النبالة والشجاعة، يمكننا أن نتساءل عما إذا كانت أفعاله تطابق أقواله، أم أنه منافق. مع باتمان يمكننا ببساطة قراءة قصصه ورؤية كل أفعاله بأنفسنا. إذا كان شخص ما فاضلاً الآن، فيمكننا أن نتساءل عما إذا كان سيضل فاضلاً في المستقبل، أو ما إذا كان عزمه سيخفق في يوم من الأيام وسيسقط من مقامه. مع باتمان، يمكن للكتاب التأكيد بأنه سيبقى دائماً صادقاً في مهمته. ولأجل كل هذه الأسباب، فإن باتمان كشخصية خيالية هو بمثابة نموذج أخلاقي أفضل من الناس الحقيقيين. وعلى عكس الناس الحقيقيين الذين يعانون من نقاط الضعف البشرية، يمكن أن يستمر باتمان إلى الأبد كشخص فاضل دون كلل أو ملل. وكما يقول بروس في Batman Begins: ”كرجل فأنا من لحم ودم، بالإمكان تجاهلي أو تدميري. ولكن كرمز؟ كرمز باستطاعتي أن أكون غير قابل للفساد. باستطاعتي أن أكون أبدياً“.

ولكن أيضاً..

وعلى نفس المنوال، يعاني باتمان من ضعف لا يعانيه الناس التاريخيون، نوع مختلف من المعلومات غير المكتملة. فمع الكائن البشري، هناك شخص واحد فقط يقرر ما هي الإجراءات التي يتخذها، وماهيته الحقيقية تتحدد بشدة بما يفعله بالضبط. بالإضافة إلى ذلك، فعندما تنتهي حياته، لا مجال لتغيير صفاته وأفعاله، سواء كانت فاضلة أو فاسدة، فإنها ستبقى على ما هي عليه. أما مع باتمان وغيره من الأشخاص الخياليين، فليس هناك فقط إمكانية دائمة للتغيير، بل والعديد من الأشخاص الذين يرسمون الشخصية

وبإمكانهم هندسة هذا التغيير. لقد لاحظنا للتو أن الكتاب يمكنهم التأكيد بأن باتمان سيضل دائماً صادقاً في مهمته، ولكن ليس هناك ما يضمن أنهم سيفعلون ذلك. فكلما ازدادت قصص باتمان المكتوبة من قبل المزيد والمزيد من الناس، كلما ازدادت فرصة أن لا تمثل هذه القصص شخصية ثابتة متماسكة، ناهيك عن تلك التي تستطيع أن ترقى دائماً إلى نفس معايير التفوق الأخلاقي.

وهذا لا يقتصر على صحة القصص المستقبلية المحتملة فحسب، بل ويمثل مشكلة بالنسبة للقصص السابقة أيضاً. ففي حين أن العديد من ميزات شخصية باتمان شائعة إلى حد كبير بين الجميع، إلا أن هناك استثناءات. فعلى سبيل المثال، معظم قصص باتمان تصوّره رافضاً لاستخدام الأسلحة النارية، ودائماً ما يرفض خيار قتل خصومه. ومع ذلك، فعندما تم إبتكاره لأول مرة، استخدم باتمان اسلحة نارية وكان لديه القليل من الشكوك حول تطبيق العدالة بقتل المجرمين الذين يقاتلهم. وهنا ينشأ اعتراض خطير للغاية وهو أنه: لا يمكن أن يكون باتمان بمثابة نموذج أخلاقي، لعدم وجود طريقة لاختيار باتمان الحقيقي من بين البدائل المتنافسة والفعالة بنفس القدر. لذا، كيف سيتمكن الرد على هذا الاعتراض؟.

لنحاول أولاً استبعاد الحكايات التي لا تعتبر جزءاً من سلسلة «باتمان» المستمرة. فبعض القصص المصورة ليست جزءاً من الاستمرارية السائدة للسلسلة، ولكنها تعمل فقط على تصور الشخصيات بطريقة ممتعة وطرق مختلفة. وفي عالم DC، عُرفت هذه القصص باسم حكايات "Elseworlds" (عوالم أخرى) والتي جرت إما في جداول زمنية بديلة أو على أراض بديلة. وفي حالة باتمان، تتضمن هذه أعمالاً مثل "فارس ظلام الطاولة المستديرة Dark Knight of the Round Table" (1999)، والتي تضع بروس واين في كاميلوت، و"قلعة الوطواط Castle of the Bat" (1994)، حيث

يظهر بروس كشخص يشبه دكتور فرانكنشتاين. ومع ذلك، فإن استبعاد القصص غير المتعلقة بالعالم الرئيس غير كافية للرد على هذا الاعتراض لسبين. أولاً، لأن هذا الاستبعاد لن يحل مشكلة الإصدارات المستقبلية ضمن الاستمرارية السائدة، والتي يمكن أن تؤدي إلى تغيير الشخصية (كما رأينا في باتمان "الأهدأ والألطف" بعد أحداث الأزمة اللانهائية Infinite Crisis و 52). وثانياً، أنه تم تصوير باتمان في بعض القصص التي رغم كونها تعتبر خارج الاستمرارية السائدة، إلا أنها نجحت بالتقاط وتصوير شخصية باتمان بشكل ممتاز. لم يُثنى على قصة فرانك ميلر The Dark Knight Returns (1986) لتصويره لباتمان فقط، بل وكواحدة من أهم ما نشر في القصص المصورة له. وبالمثل، في حين أن باتمان: سلسلة الرسوم المتحركة (1992 - 1995) هي تجسيد منفصل عما موجود في القصص المصورة، لكنها كانت مقبولة وممتعة لمحبي الشخصية لمحافظتها على الخطوط العريضة لشخصية باتمان. لذلك يجب علينا البحث عن إجابة أخرى.

قد يكون هناك دليل في عبارة: "تجسيد باتمان كشخصية طيبة". إن كان هناك طريقة لتجسيد باتمان كشخصية طيبة، فيجب أن تكون هناك طريقة لتجسيده كشخصية شريرة أيضاً، ولكن كيف نحدد هذا الاختلاف؟ هل يمكن أن تكون تلك مسألة بسيطة وتخص غالبية المعجبين؟ لا، لأنها إذا ما كانت مبنية على الأغلبية، فقد تتغير، ونحن نبحث عن "باتمان حقيقي" مستقر. ربما يكون إذاً باتمان الحقيقي هو أيأ ما يتفق مع تصويره الأصلي. ولكن، وكما رأينا أعلاه، سيكون هذا مختلفاً عما قد يعتبره معظمنا اليوم بعض الخصائص الأساسية لباتمان، الخصائص التي يجب أن يمتلكها باتمان لكي يكون باتمان. ويبدو أن هذا هو ما يركز عليه السؤال بأكمله: هل يمكن لشخصية خيالية مثل باتمان أن تمتلك خصائص أساسية؟ وإذا كان الأمر كذلك، إذاً كيف؟.

من المنطقي أن نتحدث عن خصائص باتمان الأساسية، لأن باتمان أصبح رمزاً. صحيح أن تصويره عندما تم إنشاؤه لأول مرة كان مختلفاً عن تصور معظمنا الآن. ولكن، مثل سوبرمان والعديد من الأبطال الخياليين الآخرين داخل وخارج القصص المصورة، فقد نما مفهوم باتمان ونضج إلى شيء أكبر وأكثر اختلافاً. تلك المفاهيم الجديدة الناضجة لتلك الشخصيات هي ما أصبحت أيقونياً كجزء من أساطيرنا الحديثة. وعلى هذا النحو، فهناك شعور قوي جداً جعل هذا النموذج هو باتمان الحقيقي. فهناك قوة نفسية في هذه الشخصية - تلك التي تجذب وعينا الأدبي بصفته نموذجاً أصلياً - وهذا هو السبب في أن هذه الشخصية قد صمدت وأستمرت ولا زالت تلهمنا.

وهناك مجال بالطبع للنمو المستمر بالإستمرار بكتابة قصص باتمان المستقبلية. وكما هو الحال مع أي شخصية ثابتة في الأدب، يمكننا أن ننظر إلى هذا النمو في سياق الحفاظ على جوهر الشخصية. وكما أن تعلم معلومات جديدة كافية عن الشخص يمكن أن يجعل من المستحيل مواصلة النظر إليه كنموذج أخلاقي إذا ما كانت التغيرات التي طرأت على شخصيته شديدة بما فيه الكفاية، فلن نتمكن من الاستمرار بدعوتة بـ«باتمان». وطالما أن باتمان موجود كأيقونة، وليس فقط كشخصية، فقد أصبح يتمتع بمكانة أسطورية بالنسبة لنا. وعلى هذا النحو، تطوّر إلى ما نستطيع أن ندعوه بحق «شخصيته الحقيقية». إن الشخصية المتسقة الناجحة، البطل الأدبي الحديث، يمكنه إرشادنا لنصبح فاضلين بشكل أكبر.⁸

باتمان هو قدوة أخلاقية

إن الطبيعة الخيالية لباتمان لا ينبغي أن تعوق سعيها ورغبتنا في أن نكون

مثله. فبعد كل شيء، فإن القصص الخيالية تتضمن عِبراً أخلاقية معينة، أوليس كذلك؟ ففي كثير من الأحيان، تكون بمثابة دعوة للتصرف كما تفعل الشخصيات البطلة في القصة. ومثل نماذجنا «التاريخية»، قد يكون نموذج باتمان مثاليًا وبعيدًا عن متناولنا. لكن مع ذلك، فمن خلال دراسة ومضاهاة باتمان، يمكننا تطوير صفات الشجاعة والعدالة والإحسان وما شابه ذلك في أنفسنا. ففارس الظلام الغامض الآتي من تلك المدينة الخيالية يمكن أن يساعدنا في الواقع على عيش حياة جيدة وفاضلة في عالمنا الحقيقي.

1- وكما يقول في The Simpsons' Comic Book Guy "ما الذي كان باتمان ليفعله؟" (أنظر مايك غروينغ، "قمصان من الجزء الخلفي للخزانة" في Comic Book Guy ' s Book of Pop Culture [New York: Harper (2005 Paperbacks).

2- قصة No Man's Land، المجلد 5 (2001).

3- العدد #27 من Gotham Knights (مايو 2002).

4- العدد #663 من Detective Comics (يوليو 1993).

5- العدد #92 من Shadow of the Bat (ديسمبر 1999).

6- راجع كتاب "الفلاسفة الآسيويون الطبعة الثالثة لجون م. كولر وباتريشا جوسي كولر (1998 Upper Saddle River NJ: Prentice Hall)، الصفحات 136-137. إدعاءات مماثلة قدمها غاناناد أوبيسيكيري. أنظر "الزهد التأمل البوذي؛ مقتطفات من محاضرة ويليام جيمس بين عامي 2003-2004" على: http://www.hds.harvard.edu/news/bulletin/articles/james_04.html.

7- أقرأ "الموقف التبشيري: الأم تيريزا في النظرية والتطبيق" لكريستوفر هيتشنز (1995 London and New York: Verso)؛ وكتاب آروب تشاترجي "الأم تيريزا: الحكم النهائي"، (Lake Gardens Kolkata India: Meteor Books)، (2002)؛ وكتاب "غاندي: خلف قناع التأليه" لـ ج. ب. سميث (Amherst NY: Prometheus Books) (2004).

8- للمزيد حول "الإصدارات" المختلفة من باتمان خلال السنوات وعبر أشكال مختلفة من الإعلام، أقرأ مقال جيسون ساوثرث في الفصل الـ 12 من هذا الكتاب.

الباب الرابع

من هو باتمان

(هل هذا سؤال خادع؟)

10

تحت القناع

كيف يمكن لأي شخص أن يصبح باتمان

بقلم: ساره ك. دونافان ونيكولاس ب. ريكباردسون

إذاً، هل تريد أن تصبح باتمان؟

حسنًا، هل تريد ذلك؟ إذا كان الأمر كذلك، فلا يمكنك أن تعتقد أن هناك أي عمق حقيقي لماهيتك كشخص. عليك تقبل عالمًا بلا دين أو قوة عليا من أي نوع. وعليك التخلي عن قانونك الاخلاقي إن كان يستند إلى الدين أو الرب. وعليك أن تؤمن بعين قلبك أنك وحدك من يقرر مصيرك. وعليك أن تعيش بين المجرمين. وأن ترتدي زيا أسود وضيقا يجعلك شبيها بالوطاويط. إذا كنت ترغب بذلك - أو إذا كنت فضوليًا على الأقل -

فاستمر بالقراءة إلى النهاية. (أمّا إذا لم يكن الأمر كذلك، فاقراً على أية حال، فقد دفعت نقوداً مقابل الكتاب بالفعل!).

سننظر في ثلاثة أعمال تظهر بناء باتمان لنفسه في حياته المهنية المبكرة والمتوسطة والمتأخرة: Arkham Asylum، Batman: Year One (1987) و The Dark Knight Returns (1986). وبالإستناد إلى آراء فريدريك نيتشه وميشيل فوكو حول الهوية والقوة، سنرى أن هوية باتمان وواقعها قد تم بناؤهما، وأن فارس الظلام مدركٌ لهذا البناء ويعتقه.

فليتقدم باتمان «الحقيقي» رجاء

ولكن قبل أن نتمكن من البدء في إعطائك المعلومات التي تحتاجها لكي تصبح فارس ظلام، نحتاج إلى وضع بعض القواعد الأساسية استناداً إلى أفكار فريدريك نيتشه (1844 - 1900)¹ وميشيل فوكو (1926 - 1984)². وسننظر أيضاً إلى أحد فروع الفلسفة التي ينقدونها: الميتافيزيقا، والتي تتعامل مع ما هو أبعد مما يمكن أن نلمسه، مثل الله، الروح، القيم الأخلاقية الموضوعية، أو الحقائق المطلقة والعقلانية النقية.

يمكننا تلخيص أفكار نيتشه وفوكو عن طريق إدراج بعض النقاط القصيرة. حيث أنهم لا يعتقدون بأن للبشر أرواحاً تحدد من نحن أو ما سنصبح عليه.³ ولا يوجد هناك إله أو آخره - حيث أنك تموت مع جسدك. ولا علم الأحياء أو علم الوراثة يحدد أو يشرح بشكل صحيح ما ستسميه هويتك (أو الذات، أو الشخصية، اختر تصنيفك المفضل لأنهم جميعاً غير ذي صلة الآن!). حيث أن من أنت هو نتاج بيئتك وكيف تفهم وتهمي نفسك في تلك البيئة. ولا يوجد معنى عميق لحياتك (والبعض منكم ربما قد أدرك هذا بالفعل). أنت لست أكثر من الهويات المتعددة (والمتضاربة أحياناً)

التي تعيشها أو تصبحها كل يوم أو حتى لحظة بلحظة. ووفقاً لنيته وفوكو، فإن صراع حياتنا اليومية يعمينا عن رؤية هذه الحقائق، وهذا الافتقار إلى الرؤية يحدد ويقيّد حريتنا. ولكن باتمان قادر على رفع هذا الحجاب واعتناق هذه الحقائق.

دعونا نتوقف لثانية واحدة لنوضح قضية اللغة. إننا عندما نتحدث عن قضية خلق بروس واين لباتمان، فأننا لا ندعي أن باتمان هو بروس واين، نحن ببساطة نستخدم هذه اللغة لأنها أسهل طريقة لفهم ما نتحدث عنه. فرضياً، يمكن أن يكون باتمان قد خلق بروس واين، بحيث أن باتمان لن يكون واين أكثر من كون واين باتمان. وبإتباع نيته وفوكو، فنحن نعتقد أن كلاً من بروس واين وباتمان هما مشهران ظاهريان. إننا نرفض فكرة وجود بعض الذات "الحقيقية" داخل واين أو باتمان والتي تربطهما مع بعضهما البعض. حيث من الواضح أن الهويتين تتداخلان وتعيان بعضهما البعض من خلال الذاكرة، ولكن هناك الكثير في هذا الأمر أكثر من مجرد ذلك.⁴

وكما يوضح فوكو في كتب مثل تاريخ الجنسية: لا توجد مقدمة وهويات وأجساد ومعرفة في حالة نقية خارج التاريخ وعلاقات القوة. نحن لا نولد مع الهوية. الهويات هي منتجات القوة (وهذه القوة يمكن أن تكون هي قوة الدولة أو المجتمع) أو العلاقات القوية (مثل العلاقة بين باتمان والجوكر). يطالبنا فوكو بفهم جميع جوانب حياتنا من خلال "تعريف" محدد للقوة. ويركز بشكل خاص على فكرة اننا ودون وعي منا محكومون بقواعد وقوانين وأعراف اجتماعية.

إن الكثير منا يتبع القواعد دون التشكيك فيها، أو حتى معرفة أننا نتبعها أساساً. والأمر الأكثر إثارة للاهتمام هو أن الأفراد ينشئون قواعد دون السؤال حول سبب قيامهم بذلك. وبالإنتقال إلى عالم باتمان، يمكننا أن نفكر في مثال "ذي الوجهين"، والذي يتخذ القرارات بناء على رمي العملة

النقدية وسقوطها على أحد الأوجه. ففي مصحة آركام، عندما يعيد باتمان العملة إليه، يستخدمها ذو الوجهين لتقرير مصير باتمان. وحتى الجوكر نفسه يتبع قاعدة معينة. وبتتبع القصة المصورة ذاتها، يضع الجوكر قواعد خاصة لباتمان عندما يكون في المصحة، ويعطيه ساعة واحدة للاختباء، ويتبع باتمان هذه القاعدة التعسفية. وفقاً لفوكو، فإن إتباع القواعد يؤدي إلى بناء الهوية الشخصية.

وبالمثل، فإن هوية بروس واين المشيدة تعكس حياته الغنية. فعندما كان طفلاً كان محمياً من واقع الحياة القاتم في غوثام، فقد عاش مع والدين أحباه، ومن الواضح أنه عاش طفولة خالية من الهموم. لكن سرعان ما أصبح واين ضحية للظروف السيئة، فقد أيقظه مقتل والديه على طبيعة العالم الشرير والفوضوي من حوله. في Batman: Year One يصف ذلك اليوم بأنه اليوم الذي "غادرت المشاعر فيه كل حياتي". وكما نرى في مصحة آركام، فإن الولد الصغير الذي رأى والديه يقتلان، والذي سيصبح في نهاية المطاف باتمان، قد فقد الثقة بالقواعد والمجتمع المتحضر. وكشخص بالغ، قرر واين التوقف عن الخوف وإنشاء قواعده الخاصة.

بناء باتمان

في Batman: Year One، شاهدنا باتمان يخرج للوجود. قصة خلق واين لباتمان تخبر بالكثير. فباتمان ليس نوعاً من القوة البطولية المتأصلة في واين لتظهر بأوقات الحاجة. ولنفكر في ثلاثة أمثلة من Year One والتي تُظهر قرار واين الواعي بخلق هوية باتمان.⁵

أولاً، عندما يتدرب بروس واين في منزل عائلته قبل خلق باتمان، يقول: "لست جاهزاً. لدي الوسائل والمهارة. . . ولدي مئات الأساليب، ولكن

شيئاً ما مفقود. شيء ما غير صحيح“. ثانياً، وبعد أول محاولة فاشلة للدفاع عن فتاة صغيرة ضد قوادها، بدأ بوضع يده على ما هو مفقود. عندما كان يفكر في أخطائه خلال ذلك المساء، قال: ”الإله... الخوف من الإله... الخوف... يجب أن أجعلهم يخافون“. وبينما كان يجلس في منزله مصاباً بجروح خطيرة ويتساءل كيف يزرع الخوف في نفوس الآخرين، يصطدم وطواط بنافذته محطماً إياها، ثم يقول: ”نعم، أبي، سأصبح وطواطاً“، لتولد فكرة باتمان بعد ذلك. ثالثاً، يبدأ واين في ارتداء زيه وممارسة عمله كفارس الظلام. وكما قال مفوض الشرطة جيم غوردن، فإن باتمان يعمل ”ماضياً في طريقه من الجريمة على مستوى الشارع إلى المستويات العليا، من مدمن المخدرات المخرب إلى المتعهد إلى المورد، وعلى طول الطريق وصولاً لأي رجل شرطة فاسد قد يساعد في هذه العملية برمتها“. ما زلنا نشعر بتردد واين عندما يقتحم حفلة في قصر العمدة من أجل زرع الخوف في قلوب السياسيين الفاسدين: ”لقد تم اختبار الزي والأسلحة، وahan وقت الجدية. والخطوة القادمة هي التوجه إلى قصر العمدة“.

إن هوية باتمان هي نتاج لأفعال. سيتفق كل من نيتشه وفوكو على أن الهوية دائماً ما تكون قيد الإنشاء وبالتالي قادرة على إعادة البناء جذرياً. عندما شهد واين مقتل والديه، كانت لديه الموارد المالية الكافية لمغادرة غوثام إلى الأبد. ومع ذلك، فقد اختار أن يبقى وأن يعيد بناء نفسه جسدياً وعقلياً وعاطفياً ليصبح باتمان.

مصحة أركام وبناء الحقيقة

إذا كنت قد وصلت إلى هذا الحد في فصلنا هذا، فأنت جاد بالفعل في أن تصبح قوة انتقام. علينا الآن أن نكشف عن معلومة أساسية أخرى وهي: لا توجد حقيقة مطلقة. ينتقد نيتشه وفوكو الفلاسفة التاريخيين الذين

يصرون على وجود حقائق مطلقة عن الطريقة التي يسير بها العالم حقاً، ومن نكون كأفراد، وكيف ينبغي لنا أن نعيش. وبالنسبة للفيلسوفين، فإن الذين يملكون القوة هم الذين يقررون ما يمكن اعتباره حقيقة. وكما يقول نيتشه في الفلسفة والحقيقة: «ما هي الحقيقة إذن؟ هي مجموعة متحركة من الاستعارات، والمجازات، والتجسيات».⁶ وبنفس الطريقة التي يعتقد نيتشه بها أن المسيحيين جعلوا الله في صورتهم ولكنهم قالوا بعد ذلك أن الأمر حدث بالاتجاه الآخر، يعتقد نيتشه أن البشر يتدعون الحقائق ولكنهم يتظاهرون بأن الحقيقة موجودة خارج عقولنا لكي يتم اكتشافها.

وبالتوافق مع رؤية نيتشه الأساسية حول الحقيقة، يطبق فوكو نفس هذا التحليل على القضايا الاجتماعية الأخرى.⁷ حيث يجادل فوكو بأننا نقسم تجاربنا إلى قسمين، وهي طبيعية وشاذة. يتم إنشاء التجربة الطبيعية، ولا يمكنها أن توجد بدون "الشاذة" (التي يتم إنشاؤها أيضاً). على التجربة "الشاذة" أن تتجدد باستمرار من أجل إسناد "الطبيعية".

دعونا نأخذ منطق فوكو حول العلاقة المبنية والتي تعتمد بشكل متبادل بين الفئات كالطبيعية والشاذة ونطبقها على مصحة أركام، ولتحل محل فئات الطبيعية والشاذة مصطلحات الـ "عاقل" والـ "مجنون". وبقبول أن فئتي العاقل والمجنون قد تم إختلافهما، فهما بالتالي فئات غير مستقرة بطبيعتها، لذا دعونا نركز على كيفية إنتاج هاتين الفئتين لهوية كل من الجوكر وباتمان على التوالي. إذ في حين أن معظم الناس يعتبرون الجوكر مجنوناً وباتمان عاقلاً - وقد قلنا معظم الناس يعتبرونهم كذلك - فقد شككت مصحة أركام بهذا، مسلطة الضوء على الموضوعات الأكبر التي يتم بناؤها من قبل الهوية والواقع على حد سواء.

في مصحة أركام، قام النزلاء حرقياً بالسيطرة على المصحة. وفي صفقة لإطلاق سراح الرهائن، يدخل باتمان المصحة ويواجه أشهر من قام

بملاحقتهم والقبض عليهم من المجرمين سابقاً. بعض من موظفي المصلحة يبقون هناك طواعية، وتشرح الطيبة النفسية روث أدامز لباتمان العلاجات التي مر بها أشرار من أمثال "ذي الوجهين". وعندما يشير باتمان إلى أن العلاج لم يكن له أي تأثير على الجوكر، تقول أدامز أنه قد لا يكون من الممكن تعريف الجوكر بأنه مجنون. حيث تقول:

"من الممكن جداً أننا قد نكون ننظر إلى نوع من العقلانية العليا هنا. تعديل جديد ورائع للإدراك الإنساني، أكثر ملاءمة للحياة الحضرية في نهاية القرن العشرين... وعلى عكسنا أنا وأنت، يبدو أن الجوكر لا يتحكم في المعلومات الحسية التي يتلقاها من العالم الخارجي... فهو يمكنه فقط التعامل مع هذا الوابل الفوضوي من المدخلات من خلال مجازاة التيار... ليست لديه شخصية حقيقية... حيث يقوم بخلق نفسه كل يوم. إنه يرى نفسه على أنه سيد الفوضى، والعالم بنظره مسرح للعبث".

الجوكر هو مثال متطرف وغير مرغوب فيه للنظرية التي نوقشت سابقاً عن الهوية. ومع ذلك، يوضح تحليل الدكتوراة أدامز للجوكر بأن صفة الـ "مجنون" مبنية على تعريف المجتمع للمجنون. فالجوكر مجنون فقط لأن قواعد غوثام (التي هي حقائق مبنية) قد وصمته على هذا النحو. كما تلمح أدامز بأنه في مجتمع مع قواعد مختلفة إلى حد كبير عن التي في منطقتنا قد يمكن اعتباره عاقلاً.

إنه دورك، باتمان..

وبنفس الطريقة التي يتم فيها التشكيك في جنون الجوكر، كذلك سيتم التشكيك بسلامة باتمان العقلية. (تخيل ذلك!) تبدأ مصحة أركام بالحوار التالي من قصة لويس كارول «مغامرات أليس في بلاد العجائب» حيث تقول

- «لكنني لا أريد الذهاب بين المجانين».

- تحيب القطة: «أوه، لن تستطيعي تفادي ذلك. نحن جميعاً مجانين هنا. فأنا مجنونة، وأنتِ مجنونة».

- آليس: «كيف تعرفين أنني مجنونة؟»

- القطة: «يجب أن تكوني كذلك وإلا ما كنت لتأتي هنا».

لاحظ أن هذا مثال آخر لقاعدة موضوعية، حيث يتم تعريف الجنون بناءً على الموقع. إن ما نجده في مصحة أركام هو أن باتمان مثل آليس في بلاد العجائب، حيث يدخل إلى هناك فقط لأنه يشبه المجرمين في نهاية المطاف. وفقاً لنظريتي نيتشه وفوكو، سواء أدر كنا ذلك أم لا، فأن امكانية تصنيفنا كمجانين تنطبق على الجميع.

يمكننا أن نبرهن أن سلامة باتمان العقلية يمكن أن تكون موضع تساؤل إذا تم تغيير القواعد. فأولاً، يعرف باتمان في النهاية أنه يتشارك بعض الصفات مع آليس عندما قال قبل دخوله إلى المصحة: «أخشى أن يكون الجوكر محقاً. أحياناً أشكك في عقلانية أفعالي. وأخشى أني حين سأسير عبر بوابات المصحة. . . . فأن الأمر سيكون مثل العودة إلى المنزل». إن هذا ليس التلميح الوحيد إلى الشبه مع آليس في بلاد العجائب في هذه القصص المصورة الثلاثة؛ حيث في The Dark Knight Returns، يقع واين في الكهف بينما يطارد أرنبا!

ثانياً، إن مصحة أركام ليست مجرد قصة يواجه فيها باتمان أعداءه. فهي تسرد قصة حياة أماديوس أركام، التي تشابه حياة بروس واين بشكل مخيف. إذ غادر كل منهما غوثام ومنزل عائلته وعاد بعد اثني عشر عاماً. وعاد كلاهما لمحاولة إستعادة النظام في غوثام (أركام يبنائه مصحة لعلاج المرضى

النفسيين، وواين كحارس للقانون يحارب الجريمة). يشعر كل من آر كام وواين بالذنب بشأن وفاة أمهاتهما (آر كام لأنه قتلها، وواين لأنه كان السبب في أن والديه غادرا مسرح السينما في تلك الليلة المشؤومة). حيث تعرض كلاهما لصدمة مقتل أفراد عائلتهما. ورأى كل منهما رؤى عن الوطاويط. ومع ذلك، صُنّف آر كام كمجنون، بينما خلق واين باتمان لمحاربة المجرمين المجانين. وفي سياق مصحة آر كام، فإن هذه التشابهات المباشرة تشجعنا على تأمل من يجب أن يصنف على أنه عاقل ومجنون. كما أنها تتحدانا للتساؤل حول بناء آر كام لنفسه بالضد من بناء واين لنفسه.

وأخيراً، في نهاية القصة المصورة، نقرأ الملاحظات المكتوبة من قبل جميع النزلاء، بما فيهم باتمان. والفائدة هي الخطوط العريضة التالية: "أمي ميتة. أبي ميت. بروسي ميت. سأصبح وطواطاً". بنى باتمان هويته الخاصة واعتبر نفسه مختلفاً عن بروس واين - أو على الأقل بروسي واين^(١) - الذي قد يشعر بأنه ميت.

لذا إذا ما قررت أن تصبح باتمان، فيجب أن تدرك أنك قد توصم بالجنون لكونك تركض ليلاً مرتدياً زياً أسود، ولكن بمجرد ظهور عصبة من المجرمين كخصوم، فإن تعريف المجتمع للعاقل سوف يتم توسيعه ليشملك أنت ويستبعد أولئك المجرمين.

كيف ينظر باتمان عبر الأكاذيب الخاصة بالهوية والحقيقة

لقد وصلت إلى هذا الحد، تهانينا! لقد قبلت بأن الهويات موضوعة، وحتى الحقيقة موضوعة. إذن ما الجزء التالي من اللغز لإكمال عملية التحويل؟ إن مفتاح حل هذا الجزء من اللغز يتواجد مع نيتشه. حين تقرأ

(١) كنيته كطفل "الترجم"

The Dark Knight و Batman: Year One و Arkham Asylum Returns كتسلسل زمني لحياة باتمان، وإذا كنت تريد أن تصبح باتمان بنفسك، يجب أن تعتنق فلسفة نيتشه كما فعل باتمان.

يقول نيتشه بأننا مخلوقات غريزية وأن هويتنا مبنية على رغباتنا من أجل البقاء والقوة. يقوم نيتشه بالتعبير عن ذلك بالعبارة "إرادة القوة" لوصف هذه الرغبات. ⁸ إن المفهوم المصاحب لهذا هو التكرار الأبدي (المعروف أيضاً باسم العود الأبدي لذات الشيء). وهذه هي القدرة على الترحيب بكل ما في حياتنا بدءاً من أعلى القمم وصولاً إلى أعماق وأكثر الأودية ظلاماً في حياتنا الفردية. ويشيد نيتشه بالشخص الذي يعتنق هذه المفاهيم بشكل كامل.

في كتابه "هكذا تكلم زرادشت"، يلتقط نيتشه بشاعرية جوهر وصعوبة التكرار الأبدي في "في الرؤية والاحجية واللغز" عندما يصف المشهد التالي بأنه رؤية ولغز يجب فك رموزه:

"وقفت بين المنحدرات البرية فجأة لوحدي، منعزلاً، تحت ضوء القمر الكئيب. ولكن ظهر هنالك رجل... رأيت راعياً شاباً يتلوى، مختنقاً مرتعداً، متقلص الوجه، وثعبان أسود ثقيل يتدلى من فمه. هل رأيت مثل هذا القرف والذعر الشديدين على وجه آدمي من قبل؟ يبدو أنه كان نائماً عندما زحف الثعبان إلى حلقه دون شك، وهناك عض بكل ما أوتي من قوة. أمسكت بالثعبان وسحبت وسحبت، ولكن عبثاً! لم تستطع يدي أن تقتلع الثعبان من حلقه. ثم صرخت به: "عض! عض رأسه إقطعه! عض!" هكذا كان الصراخ يصعد من أحشائي، خوفاً، كراهيتي، غشائي، شفقتي، كل ما كان موجوداً بداخلي من خير وشر كان يصرخ من داخلي صرخة واحدة... لكن الراعي عض كما أشرت عليه بذلك: عض بكل ما أوتي من قوة على العض! وبعيداً جداً قذف برأس الثعبان من فمه؛ وقفز ناهضاً. لم يعد راعياً، لم يعد إنساناً، بل كائناً متحولاً، محاطاً بنور؛ ضاحكاً! أبداً لم يضحك أحد

على وجه الأرض كما كان يضحك“⁹.

يعتقد نيتشه أن الحياة مليئة بالمعاناة الحقيقية (كما تمثله الأفعى في اللغز) والفرح (كما تمثله اللقمة المظفرة للراعي وضحكه اللاحق). معظم الناس “ينامون” خلال حياتهم (كما يفعل الراعي عندما يعضه الثعبان)، لكن الفرد الذي يعيش وفقاً لفلسفة نيتشه المتمثلة في التكرار الأبدي يمكنه أن يعانق كل من المعاناة والسعادة؛ هذا الشخص يحب الحياة كثيراً لدرجة أنه لا يندم فيها حتى في اللحظات الأكثر إيلاماً. وبنفس الطريقة التي لا يستطيع أحد أن ينقذ بها الراعي إلا الراعي نفسه، فنحن جميعاً قباطنة حيواتنا الخاصة.

وكما الثعبان في تلك الرؤيا، ففي عالم باتمان، إن الوطواط هو رمز لكل شيء مخيف ومأساوي وقاس في الحياة. باتمان فقط قادر على مواجهة الوطواط، واحتضانها والتغلب على اليأس الذي ترمز إليه. هنالك آخرون كانوا قد شهدوا أيضاً الوطواط. وعندما يفشلون في تقبل الوطواط، سيكون لديهم خياران: في الأول، قد ينجذبون إلى حياة الجريمة أو الأفعال الشريرة (وهذا قد يشمل الجنون الإجرامي)، وفي الثاني، قد يتم ترويعهم تماماً ويصبحون منعزلين.

لرؤية مواجهة فاشلة مع وطواط، فكر في مصحة أركام عندما يحكي أماديوس أركام قصة انحداره الذي أوصله للجنون وكذلك جنون والدته. فبعد مقتل عائلته الوحشي، يكشف عن ذاكرة مكبوتة نرى فيها مرة أخرى رؤيا يظهر فيها وطواط. يتذكر أركام أنه زار والدته قبل وفاتها. حيث كانت خائفة وتخبره بأن هناك شيئاً يريد أن يأخذها. في البداية، إعتقد أركام أنها مجنونة، ولكن بعد ذلك يقول: “ولكن ليساعدني الرب، لقد رأيته. رأيت الشيء الذي كان يطارد ويعذب أمي المسكينة كل هذه السنوات الطويلة. إني أراه. إنه وطواط. وطواط!” قتل أركام والدته من أجل إنقاذها من الوطواط. إذ يقول: “أتذكر الآن ما حاولت ذاكرتي أن تحفيه عني لأجلي.

الجنون يولد في الدم. إنه حق مكتسب بالولادة. إنه ميراثي. إنه قدري.“
وهنا كانت رؤية الوطاويط تروع كلاً من أركام وأمه.

وبالمثل ينزلق الدكتور كافنديش إلى هاوية الجنون عند قراءة سجلات أركام. ثم يقوم بتحرير سجناء مصحة أركام ويجبر باتمان على قراءة مقطع من سجلات أركام التي يتحدث فيها عن الخفاش. وهو يتهم باتمان بالاشتراك مع “بيت الجوع” والذي يمدّ فيه المصحة بـ “الأرواح المجنونة”. يقول كافنديش، “أنا لا أنخدع بهذا التكرار الخيصى. فأنا أعلم ما تكون”. إنه يقترح بأن باتمان هو قوة باطنية عندما يقول عن أركام أنه “درس الممارسات الشامانية، وكان يعلم أن تلك الطقوس فقط، ذلك السحر فقط، يمكنه أن يتضمن الوطاويط. إذن هل تعلم ماذا فعل؟ خدش أرضية زنارته راسماً تعويذة ملزمة”. توفي أركام بمجرد اكتمال التعويذة الملزمة. في حين أن كافنديش لا يرى حرقاً الوطاويط، فإن مجرد الرؤيا التي تنقلها إليه سجلات أركام تدفعه إلى الجنون.

باتمان و- أوه، كما تعلم - الوطاويط

أن تأثير رؤية الوطاويط على بروس واين تختلف عن تأثيرها على الآخرين الذين رأوه. إذ في الحين الذي يتم فيه التشكيك في عقلانية باتمان في مصحة أركام، فلا يوجد أي شيء في بقية القصص المصورة الأخرى يجعلنا نشك أن هناك تمييزاً أخلاقياً بين أفعاله وأفعال مجرمين مثل الجوكر. إذ أننا نقرأ عن نضال بروس واين من أجل السيطرة على كل من رؤية الوطاويط وهويته كباتمان. وهذا هو نضال نيتشوي لمواجهة الجنون والمعاناة التي هي جزء من الحياة. وفي نهاية The Dark Knight Returns، نرى بروس واين وهو يتصالح أخيراً مع الوطاويط.

هناك أربعة لقاءات مهمة بين بروس واين وباتمان مع الوطواط في القصص المصورة الثلاثة. أولاً، في فيلم *The Dark Knight Returns*، حيث يحلم واين بتجربة الطفولة التي يرى فيها وطواطاً. إذ يقع واين أثناء مطاردة أرنب في حفرة الأرنب وفي ما سيصبح لاحقاً كهف الوطواط. هنا يصادف ما يصفه بأنه وطواط قديم. يقول: "شيء ما يتوارى عن الأنظار... شيء يمتص الهواء العفن... ويهسهس... يخلق برشاقة قديمة... غير راغب في التراجع مثلما فعل أشقاؤه... عيونه تلمع، لم يمسه الحب أو الفرح أو الحزن... يتنفس بحرارة رائحة الأعداء المتساقطين... رائحة الأشياء الميتة، الأشياء الملعونة... بالتأكيد أشد الناجين - أنقى المحاربين... يصرخ، يكره... يدعي بأنني مُلكة". عندما يستيقظ واين البالغ، يجد أنه كان يمشي نائماً وهو في كهف الوطواط. في هذه القصة المصورة، يروي حلمه كما لو حددت تجربة الطفولة مسار حياته، على الرغم من أنه لن يفهم أهمية رؤيا الوطواط إلا بعد مرور سنوات عديدة.

ثانياً، يرى واين الوطواط من خلال نافذة غرفة دراسته في مزرعة عائلته في مناسبتين تشير إلى ولادة وإعادة ولادة باتمان. في *Batman: Year One*، تدفعه رؤيته إلى خلق هوية باتمان. وفي *The Dark Knight Returns*، تدفعه رؤيته إلى الرجوع بقرار تقاعده، وارتداء القناع مرة أخرى ليكون فارس الظلام. وكما يقول بعد ذلك بقليل من إرثائه زي باتمان: "لقد ولدت من جديد".

وثالثاً، في مصححة أركام، إذا ما اتبعنا الإشارات البصرية للفنان، فإن باتمان هو رؤيا الوطواط التي شاهدها كل من أماديوس أركام ووالدته. حيث يتم رسم باتمان باستمرار كشخصية غامضة، ودائماً بدون وجه. هنا يكون باتمان نفسه هو الرؤيا الحية للوطواط.

وأخيراً، في *The Dark Knight Returns*، يرى باتمان الوطواط،

الذي تم رسمه بنفس الطريقة التي تم استخلاصها من ذاكرة طفولته عندما ينظر إلى ذي الوجهين (قارن بين الصفحات 19 و 55 من القصة المصورة). وهذا يعزز الفكرة السابقة التي اقترحتها، والتي يمكن فيها أن يؤدي تعرض الشخص إلى الوطواط لأن يصبح المرء بطلاً إذا ما اعتنق الوطواط، أو شريكاً إذا ما رفض الوطواط. تماماً مثلما اعتنق راعي نيتشه الثعبان وتغلب عليه، كان باتمان قد أعتنق الوطواط بدوره وتغلب عليه.

هل بإمكانك مواجهة الوطواط؟

إذاً بعد أن قبلت بأن هويتك مبنية، وأن الحقيقة والواقع مبنيان، ومن ثم الذهاب بعيداً إلى حد تبني هذه المفاهيم بشكل كامل، إذاً فأنت لديك الأسس الفلسفية لتصبح باتمان بنفسك. ولكن إذا اتبعت الخطوات التي حددناها، وبدلاً من أن تصبح باتمان، أصبحت الجوكر أو ذا الوجهين، فإننا لا نتحمل أي مسؤولية من أي نوع. وهذه هي المخاطرة التي على المرء أن يتخذها لكي يصبح وطواطاً.

مكتبة
t.me/t_pdf

1- في ما يتعلق بنيتشه فإن إستشهاداتنا ومصادرنا هي من كتبه «ما وراء الخير والشر»، ترجمة والتر كوفمان (1966 New York: Penguin)؛ في جينالوجيا الأخلاق، ترجمة والتر كوفمان (1967 New York: Penguin)؛ هكذا تحدث زرادشت: كتاب لكل ولا لأحد، ترجمة والتر كوفمان (New York: Penguin 1978)؛ الفلسفة والحقيقة: مختارات من ملاحظات نيتشه في بدايات سبعينات القرن التاسع عشر، ترجمة وتحرير دانيال برزيار (New Jersey: Humanities Press International 1995).

2- فيما يتعلق بفوكو فإن إستشهاداتنا ومصادرنا هي من كتب اللغة والذاكرة المضادة والممارسة، تحرير دونالد ف. بوتشارد، وترجمة دونالد ف. بوتشارد وشيري سيمون (1977 Ithaca NY: Cornell Univ Press)، تاريخ الجنسية، المجلد الأول: مقدمة وترجمة روبرت هارلي (1990 New York: Vintage)؛ المراقبة والمعاقبة: ولادة السجن، ترجمة آلان شريدان (New York: Vintage 1995).

3- كما يقول فوكو: "الروح هي نتاج وأداة التحليل السياسي؛ الروح هي سجن الجسد". (المراقبة والمعاقبة: ولادة السجن، الصفحة 30).

4- يجب أن نفكر أيضاً بنقطة أثارتها جوديث بتلر، وهي فيلسوفة متأثرة بنيتشه وفوكو. تقول بتلر: "لمجرد كون الهوية أداءً لا يعني أن بالإمكان إستبدالها مثل زوج جواريب. على سبيل المثال، لا يمكنك الإستيقاظ في صباح يوم ما وتقرر أن تصبح باتمان؛ بدلاً من ذلك، عليك التدريب على الأداء"، راجع كتابها "الأجساد التي تشكّل فارقاً" (1993 New York: Taylor and Francis).

5- ضع في اعتبارك أنه من خلال القول بأن واين قد صنع باتمان، فإننا لا نقول بأن واين هو أقل صناعة من باتمان. قد نشير لباتمان بأنه صناعة لصناعة، على اعتبار أن بروس نفسه قد صُنع.

6- نيتشه، الفلسفة والحقيقة، الصفحة 84.

7- يوضح مقال فوكو عن نيتشه المعنون بـ "نيتشه، الجينالوجيا، التاريخ"،

(الموجود في كتابه "اللغة، الذاكرة المضادة، الممارسة) فهم فوكو لنهج نيتشه في جينالوجيا الحقيقة.

8- يناقش نيتشه الإرادة للسلطة في كتب مثل ما وراء الخير والشر، وفي جينالوجيا الأخلاق، وهكذا تحدث زرادشت.

9- نيتشه، هكذا تحدث زرادشت، الصفحات 159-160.

هل كان بإمكان باتمان أن يصبح الجوكر؟
بقلم: سام كولينغ وكريس راغ

سؤال مشروط

أفترض بأننا أنت وأنا مواطنون في مدينة غوثام، والذين قرأوا جميع صحف غوثام الرسمية بكل عناوينها المتعلقة بباتمان ولديهم شكوك حول هوية باتمان. نحن على قناعة بأنه إما أن يكون الملياردير اللعوب بروس واين أو - بروح من نظرية مؤامرة عظيمة - أنه سيكون العقلية الإجرامية الرهيبة المعروفة فقط باسم الجوكر. وفي يوم ما، تعلن الصحيفة الرسمية بعنوان كبير على صفحاتها الأولى، «باتمان بلا قناع: الملياردير واين هو فارس الظلام!» لقد تم تأكيد شكوكنا أخيراً. نحن نعرف الآن أن بروس واين هو باتمان. ولكن على الرغم من هذا، يبدو من المؤكد أنه كان من الممكن أن يكون الجوكر هو باتمان. ولكن هل هذا هو الحال فعلاً؟.

هنالك العديد من الطرق لفهم الادعاء الذي يقول بأنه: «يمكن أن يكون باتمان هو الجوكر». والطريقة التي ستكون مناسبة لمناقشتنا هي

الآتية: «من الممكن أن يكون الجوكر ممثلاً لباتمان». إن إدعاءات من هذا النوع - إدعاءات حول الإمكانية والضرورة والاستحالة - هي إدعاءات مشروطة. تؤكد الإدعاءات المشروطة على أنه كان يمكن للكون أن ينتهي إلى طريقة معينة. فعلى سبيل المثال، «كان يمكن أن يكون لباتمان اثنين من المساعدين»، و«لم يكن من الممكن لكاتومان محاربة الجريمة إذا كانت بدلتها ضيقة أكثر بقليل مما هي عليه» هي ادعاءات مشروطة حول الأشياء الممكنة لباتمان وكاتومان. وفي اللغة العادية، تتضمن هذه الأنواع من الإدعاءات عادة مصطلحات مثل «قد» و«ربما». حيث إن صحة أو زيف الإدعاءات الشرطية تعتمد على الحقائق المتعلقة بماهية أنواع الأشياء الممكنة، وفي الحالة الخاصة التي نحن مهتمون بها، حول ما إذا كان باتمان يمكن أن يحمل علاقة معينة - علاقة هوية - بالجوكر.

في هذا الفصل، سنتناول إدعاءً واحدًا مشروطًا فقط وهو: هل كان يمكن لباتمان أن يكون الجوكر؟ تتطلب الإجابة على هذا السؤال قدرًا معقولاً من التحقيق المشروط وبعض الميتافيزيقيا الجادة. ولحسن الحظ، فإن الميتافيزيقيا - دراسة ما هو موجود وكيف يتفاعل مع محيطه - هي عالم الفلسفة الأكثر شبهاً بالقصص المصورة. غالبًا ما يصبح هذا الأمر معقدًا، ناهيك عن كونه غريباً أيضاً. ولكن قبل أن نفكر فيما إذا كان الأمير المهرج قد يكون ممثلاً لفارس الظلام، سنحاول تجميع بضع الأجزاء الأساسية من لغز ميتافيزيقي معقد جدًا. وبعد تقديم بعض الافتراضات الميتافيزيقية (كما نأمل)، سننظر في حجة تهدف إلى إظهار أن باتمان لم يكن من الممكن أن يكون الجوكر، حيث سيكون ذلك أمراً مفاجئاً (وربما لا يكون كذلك). وأخيراً، سنشير بعض الإشكالات لأي شخص يقبل هذه الحجة يتساءل لماذا تكون الإجابة عن أسئلة مشروطة متضمنة شخصيات خيالية مثل باتمان والجوكر هي مسألة أكثر تعقيداً مما قد يتوقعه المرء؟.

بعض الأشياء غير السرية جداً حول الهوية

لنبدأ بتقديم أول وأهم قطعة من اللغز الميتافيزيقي: وهو الهوية. نحن عادة ما نقول أشياء مثل «لديهم تسريحة شعر متطابقة» أو «ملابسهم متطابقة». هذه الجمل تنطوي على مفهوم للهوية بين شيئين منفصلين ولكنها متشابهين للغاية. من المهم أن نلاحظ أن مفهوم الهوية الذي سنناقشه يختلف بطريقة مهمة جداً، وفي الواقع، إنها علاقة حيث الأشياء لا تحمل تصوراً إلا لأنفسها. يتم التعبير عن فكرة الهوية التي نهتم بها عندما نقول أشياء مثل «الدكتور جيكل مطابق للسيد هايد» أو «شيكاغو هي مماثلة للمدينة العاصفة». لذا، وعلى الرغم من أن اللوحة ونسختها المزيفة قد يكونان متطابقين، بمعنى أنهما متشابهان للغاية، إلا أنهما ليسا متطابقين في الطريقة التي سنكون مهتمين بهما. فبعد كل شيء، قد تحب إمتلاك الأصلية منهما ولكنك لن تحب إمتلاك تلك المزيفة.

لذلك، عندما نفكر فيما إذا كان باتمان متطابقاً مع الجوكر، فنحن مهتمون بما إذا كان بإمكانهما أن يكونا كشخص واحد بنفس الطريقة التي تكون فيها متطابقاً مع نفسك وكذلك مختلفاً مع توأمك إن كان لديك توأم. لا يهمنا هنا ما إذا كان الجوكر قد يخضع لعملية جراحية مكثفة، ويشتري زياً جديداً، وليشابه باتمان تماماً. ولكننا نريد أن نعرف ما إذا كان يمكن أن يكون باتمان والجوكر متطابقان جداً ليكونا الشخص نفسه.

إليك شيء واحد نعرفه عن الهوية: كل شيء مطابق لنفسه (أو متطابق ذاتياً) وغير مطابق لأي شيء آخر. وبالنظر إلى أن كل شيء مطابق ذاتياً، فإن العديد من الفلاسفة يؤيدون مبدأ يطلق عليه «تطابق الهوية» (دعنا نسمي هذا «ات 1» للاختصار). ووفقاً لهذا المبدأ، فلن يكون الأمور متطابقة، فعليها مشاركة كل ممتلكاتها مع أحدها الآخر. لذلك، وعلى سبيل المثال، تمتلك أنت وذاتك جميع الخصائص ذاتها بالضبط: فكلكما بشري، وكلكما

متعلمان، وكلاهما تعرفان من هو باتمان. ونظرًا لأنك أنت وذاتك تتشاركان في جميع الممتلكات، إذا أنتما متطابقين. افترض الآن أن لديك توأما وأن توأمك ولد بعد دقيقة من وقت ولادتك. ستكونان متمايزين: فأنت لا تشاركه بملكية ولادتك في نفس اللحظة.

وبالمثل، فإذا كان كل من بروس واين وباتمان متطابقين، فسيمكننا القول أنه إذا كان بروس واين مليارديرًا، فإن اتنطوي على أن باتمان ملياردير أيضًا. في حين أن حقيقة أن باتمان هي «الهوية السرية» لبروس واين قد تجعل هذا الادعاء يبدو غير متوقع إلى حد ما، فمن المهم أن ندرك أن الإحساس الذي قد يعتقد فيه المرء أن باتمان ليس مليارديرًا هو على الأرجح لينًا وأكثر مجازية مما نهتم به. لأن اتنستلزم أن لا تختلف الأشياء المتطابقة بالخصائص التي تمتلكها، حيث سيكون من المفيد تذكرات عندما نحاول تحديد ما إذا كان باتمان يمكن أن يكون متطابقًا مع الجوكر.

الإنتقاء من عوالم محتملة

يتم وضع أسئلة مشروطة حسب مشروطة «العوالم الممكنة». وعلى الرغم من الاسم، فإن هذه العوالم الممكنة - الطرق الأخرى التي يمكن أن ينتهي إليها هذا العالم - هي أشبه بالأكوان البديلة منها بكواكب الفضائيين.¹ وباستخدام العوالم الممكنة كأداة، سيمكننا التمييز بين الطرق المختلفة للجمل اللغوية لكي تكون صحيحة. فعلى سبيل المثال، قد يكون من الصحيح أن الديناصورات ربما لم تنقرض، ما دام هناك عالم محتمل نعيش فيه جنباً إلى جنب مع الديناصورات. وبالمثل، قد يكون صحيح أن السيارة لم يتم ابتكارها، حيث هناك عالم محتمل لا توجد فيه سيارات. أمّا عالماً، العالم الفعلي، فهو واحد فقط من هذه العوالم الكثيرة جداً.

ويمكننا استخدام العوالم الممكنة لشرح مفاهيم مهمة مثل الضرورة (الإلزامية). حيث إذا كانت الجملة صحيحة بالضرورة، فهي صحيحة في كل عالم ممكن. إن " $2+2=4$ " و "المثلثات لها ثلاثة أضلاع" وكلاهما صحيح بالضرورة. لذلك، في كل عالم ممكن، ستكون $2+2=4$ ، والمثلثات لها ثلاثة أضلاع. أمّا إذا كانت الجملة صحيحة بشكل محتمل فقط، فهذا سيجعلها صحيحة في بعض، وليس كل، العوالم الممكنة. إن جمل "يوجد كبار خدم" و "يوجد أبطال خارقون" هي صحيحة بشكل محتمل فقط، لأن هناك بعض العوالم الممكنة حيث يوجد فيها كبار الخدم والأبطال الخارقون وعوالم محتملة أخرى لا يوجدون فيها ذلك. فئة أخرى من العبارات، بما فيها تلك التي مثل: " $2+2=3$ " و "المثلثات لها ضلع واحد فقط"، هي خاطئة بالضرورة؛ حيث من المستحيل أن تعني هذه الأنواع من العبارات ما تعنيه في الواقع وتبقى صحيحة في الوقت ذاته.

تمثل العوالم المحتملة ما كان بإمكاننا أو ما لم نتمكن من فعله، لذا عند البحث في الأسئلة النموذجية، علينا أن ننظر إلى العوالم المحتملة للحصول على إجابات. هل تشعر بالفضول حيال ما إذا كان هناك كوكب غير مرئي، بحجم البطاريق؟ حسناً، إذا كان هناك عالم محتمل حيث توجد أشياء من هذا القبيل، فسيكون من الصحيح احتمال وجود بطاريق غير مرئية بحجم الكواكب. وبالإضافة إلى ذلك، فعندما يسأل شخص ما إذا كان بإمكانك التأخر عن اجتماع، سيمكننا حينها استخدام العوالم الممكنة لتحديد الإجابة على ذلك. وبصورة تقريبية جداً: إذا كان هناك عالم محتمل (مشابه تماماً للعالم الفعلي) حيث تأخرت فيه عن الاجتماع، فسيكون من الصحيح احتمال تأخرك عن الاجتماع في العالم الفعلي أيضاً.

قد تتساءل كيف أن هذا الشخص الذي تأخر عن الاجتماع هو في الواقع مطابق لك؟. فبعد كل شيء، أنت تمتلك خصائص مختلفة: فقد كان أحدكم

متأخراً عن الاجتماع، والآخر لم يكن كذلك. إن هذه مسائل شائكة، ولكن أحد الطرق لفهم ذلك هو تخيل نفسك في عوالم أخرى ممكنة كما تتخيل نفسك وأنت في أزمنة مختلفة. قبل خمس دقائق كنت تقف، والآن أنت تجلس. وعلى الرغم من هذا التغيير، إلا أنك ما زلت متطابقاً مع نفسك الآن ومع نفسك قبل خمس دقائق. وفي ما يلي، لن نناقش التفاصيل الميتافيزيقية لكيفية تطابق الأشياء مع الوقت دون انتهاك ات ١. ولكن بدلاً من ذلك، سنفترض فقط أن الأفراد يمكن أن يكونوا متطابقين في عوالم مختلفة تماماً مثلما هم متطابقين في أوقات مختلفة.

شيء آخر يجب ملاحظته قبل المتابعة وهو أنه بالنسبة لمعظم ما يلي، سنفترض أن باتمان والجوكر وبقية عالم DC هم مجرد كيانات محتملة. وتوجد الكيانات المحتملة في العوالم المحتملة فقط، ولكن ليس في العالم الفعلي. وبالنظر إلى هذا الافتراض، كان يمكن للعالم أن يتحول بطريقة لوجد فيه باتمان ومدينة غوثام وذو الوجهين. وسنكون مهتمين أيضاً بعالم محتمل مثل هذا بشكل خاص: عالم محتمل حيث جميع الحقائق المعتادة حول باتمان وبقية عالم DC حقيقية. باختصار، سوف نسمي هذا المكان بالأرض الجديدة، كما يدعى العالم السائد الحالي في DC. وبعد إدخال مفاهيم مثل الضرورة، والإحتمالية، والعوالم الممكنة، يمكننا الآن وضع هذه المفاهيم لتستخدم جيداً في محاولة الإجابة على السؤال المطروح: هل بإمكان باتمان أن يكون الجوكر؟

إذا كانت الإجابة الصحيحة على هذا السؤال هي نعم، فعندئذ سيكون هناك عالم ممكن يكون فيه باتمان والجوكر متطابقين تماماً لدرجة أن يكونا ذات الشخص. وسيكون هذا عالماً محتملاً حيث يتواجد فيه باتمان والجوكر كشيء واحد متطابق. وبعبارة أخرى، فإن في بعض العوالم الممكنة، سيكون الشيء المنتقى والذي اصطلح عليه اسم "باتمان" هو مطابق للشيء المنتقى

الذي اصطلاح عليه أسم "الجوكر". إن هذا الحديث عن مصطلحات "انتقاء" الأشياء هو في الواقع اختزال لبعض فلسفة الكلام، وعلى الرغم من أن فلسفة الكلام معقدة، ولكن من المهم الوصول إلى عمق القضايا الشكلية في الطبيعة.

أولاً، مصطلحات مثل "الجوكر" و"باتمان" هي أسماء، والأسماء لها ميزة فريدة: فعندما تشير إلى، أو يتم انتقائها لتطلق على كائن معين، فإنها تشير إلى ذلك الكائن في كل عالم ممكن. هذه الميزة الفريدة لا تتشارك مع الوصف. ولمعرفة السبب، فكر بوصف "مفوض شرطة غوثام" ففي الأرض الجديدة، سيكون الكائن الذي يشير إليه هذا الوصف هو جيم غوردون. أما في عوالم أخرى محتملة، حيث سارت الأمور بشكل مختلف، فقد يكون ألفريد بينورث هو مفوض الشرطة في غوثام، لذلك، ففي بعض العوالم الممكنة، سيشير مصطلح "مفوض شرطة غوثام" إلى ألفريد وليس لغوردون. ولهذا السبب، يختلف الوصف تمامًا عن الأسماء بالطريقة التي تشير بها إلى الكائنات. لذا، فبينما يشير مصطلح "هارفي دينت" إلى هارفي دينت في جميع العوالم الممكنة، فإن مصطلح "المدعي العام السابق في غوثام" لا يشير لنفس الشيء دائماً.

ثانياً، إن السؤال الذي نناقشه لا يتعلق فقط عما لو كان سمّي باتمان بأسم "الجوكر" ولو سمي الجوكر بأسم "باتمان". فهناك سبب وجيه للاعتقاد بأن اللغة الإنجليزية يمكن أن تكون قد تطورت بشكل مختلف بحيث أن الكلمة المستخدمة بالفعل للإشارة إلى باتمان يمكن في الواقع أن تستخدم للإشارة إلى الجوكر. وما يهمنا هو الخصائص النموذجية للأشياء المعنية: باتمان والجوكر. ومثلنا أنا وأنت، فهذه الأشياء أيضاً تمتلك وتفتقر إلى خصائص مشروطة معينة. فعلى سبيل المثال، يعتقد العديد من الفلاسفة بأننا وإن كنّا نفتقر إلى الخاصية الشرطية لنكون بيضة مسلوقة محتملة، إلا أننا

نمتلك الخاصية الشرطية المحتملة لنكون أطول بإنشٍ واحدٍ مما نحن عليه في الواقع. ولا تؤدي حقيقة استخدام المصطلحين "باتمان" و "الجوكر" إلى تغيير الخصائص الشرطية لهذه الكائنات. وبدلاً من ذلك، فإن حقيقة أن هذه المصطلحات هي أسماء تساعدنا على فهم أفضل لما يجب أن يكون عليه الواقع في جمل مثل "ربما يكون باتمان متطابقاً مع الجوكر" لتكون صحيحة.

الهويات السرية بالضرورة

إن المنطق الشكلي هو لغة رسمية - شبيه بالرياضيات إلى حد كبير - ويستخدم لتبسيط الطريقة التي نفكر بها حول الإحتمالية والضرورة. في المنطق الشكلي، تكون بعض القواعد المنطقية (البديهيات) مقبولة عالمياً تقريباً. وفيما يلي بعض الأمثلة: إذا كان هناك شيء صحيح بالضرورة، فمن المحتمل أن يكون صحيحاً. وإذا كان هناك شيء صحيح، فمن المحتمل أن يكون صحيحاً. ومن الأمثلة الأكثر تعقيداً ما يلي: إذا كان هناك شيء من المحتمل أن يكون صحيحاً، فمن المحتمل أن يكون صحيحاً بالضرورة. والمثال المعقد على نحو سخيّف هو: إذا كان هنالك شيء من المحتمل بالضرورة أن يكون من المحتمل بالضرورة أن يكون صحيحاً بشكل محتمل، فهو صحيح بالضرورة!

إن خصوصيات وعموميات المنطق الشكلي ليست ذات أهمية حاسمة هنا، ولكن إحدى أطروحات المنطق الشكلي مهمة وهي: ضرورة الهوية. إذا كانت ضرورة الهوية صحيحة، فإن ادعاءات الهوية - التي تتضمن رمز الهوية «=» - هي صحيحة بالضرورة، إذا ما كانت صحيحة على الإطلاق. في الواقع، فإن ضرورة الهوية هي أكثر تحديداً حيث أنها تنطبق على إدعاءات هوية معينة فقط. فعلى وجه التحديد، تقول ضرورة الهوية أن ادعاءات الهوية التي لها أسماء على كلا جانبي «=» هي صحيحة بالضرورة إذا كانت صحيحة،

وخاطئة بالضرورة إذا كانت خاطئة. ولهذا السبب، تضمن ضرورة الهوية أن «هارفي دينت = ذا الوجهين» و الجملة المكافئة هي «هارفي دينت هو مكافئ لذي الوجهين» هي بالضرورة صحيحة. ومع ذلك، فإن ضرورة الهوية لا تضمن أن «هارفي دينت = المدعي العام السابق لغوثام» صحيحة بالضرورة. حيث لا تنطبق ضرورة الهوية على هذه الجملة، لأن «المدعي العام السابق لغوثام» هو وصف وليس اسماً.

لماذا يجب أن نصدق بضرورة الهوية؟ وذلك بسبب ات او الادعاء الواضح بالضرورة، أن كل شيء مطابق لذاته. تخيل أن S و V هما مثل المتغيرات في الجبر؛ حيث يمثلون أشياء ما. الآن، إذا كان كل شيء بالضرورة متطابقاً مع ذاته، إذن، ففي كل عالم ممكن، فإن $S = S$. وإذا كان $S = V$ في بعض العوالم المحتملة، فإن ات ايستتبع بأن S و V يجب أن يكون لهما نفس الخصائص. وهذا يعني أنه إذا كان باتمان متمثلاً بـ S و بروس واين بـ V وكان $S = V$ ، فإن ات اتضمن أن باتمان و بروس واين يشتركان في نفس الخصائص. إذاً، إن أي خاصية تمتلكها S ستكون متطابقة مع الخاصية التي تمتلكها S ذاتها بالضرورة؛ لذلك، يستلزم ات انه يجب أن يكون لـ S خاصية مطابقة بالضرورة لـ S . وفي حالة الوطواط، إذا كان «باتمان» و «بروس واين» متطابقين في بعض العوالم المحتملة، فبما أن باتمان يمتلك خاصية مطابقة بالضرورة مع باتمان ذاته، فيجب أن يمتلك بروس واين أيضاً خاصية مطابقة بالضرورة مع باتمان. والاستنتاج من خلف هذه الحجة المدججة، ولكن المعقدة، هو: أنه عندما تكون كيانات مثل بروس واين و باتمان متطابقة، فهي متطابقة بالضرورة.

إذا كانت ضرورة الهوية صحيحة و باتمان هو اسم، إذاً سيمكننا حينها أن نخرج بمحاجة تظهر بأن باتمان لم يكن ليتمكن أن يكون الجوكر: فباتمان والجوكر ليسا متطابقين في الأرض الجديدة. وبما أن باتمان والجوكر لا يتطابقان

في الأرض الجديدة، فإن «باتمان = الجوكر» ليس صحيحاً بالضرورة. ولكن، في ضوء ضرورة الهوية، فإذا كانت ضرورة الهوية صحيحة، يجب أن تكون صحيحة بالضرورة. ولأن «باتمان = الجوكر» ليس بالضرورة صحيحاً، فيمكننا أن نستنتج بأن «باتمان = الجوكر» لا يحتمل أن يكون صحيحاً. وبها أن «باتمان = الجوكر» لا يحتمل أن يكون صحيحاً، إذاً فباتمان لم يكن من الممكن له أن يكون الجوكر! (هل كان ذلك سهلاً؟).

«باتمان» و«روبن»

حسناً، نعترف بأننا قدمنا حجة معقدة إلى حد ما عن سبب عدم إمكانية أن يكون باتمان هو الجوكر. وهي حجة معتمدة على بعض الافتراضات غير المألوفة، رغم أنها معقولة، حول الهوية والضرورة. إذن، ها هنا يكمن اعتراض حول الحجة التي صغناها، والله الحمد، إنها تعتمد على أسس أقل تعقيداً. دعونا نسميها حجة روبن. لقد افترضنا أن «باتمان» هو اسم، وقد استنتجنا أن «باتمان» لم يكن أي شخص آخر غير بروس واين، ناهيك عن أن يكون الجوكر مثلاً. ومع ذلك، يبدو بأن «باتمان» و«روبن» هما من نفس النوع من المصطلحات، لذلك، فإذا كان أحدهما اسماً، فسيكون كلاهما اسماً. وإذا كان أحدهما وصفاً، فسيكون كلاهما وصفاً كذلك. وكمسألة تخص الأبطال الخارقين، فقد كان هناك أكثر من روبن واحد. حيث كان كل من ديك غرايسون وجيسون تود وتيم دريك (من بين آخرين) روبن في أوقات مختلفة، لذلك فإنه ليس بالضرورة أن يكون صحيحاً أن أسم روبن متطابق مع تيم دريك أو جيسون تود أو ديك غرايسون. وإذا كانت متطلبات الهوية التي تتضمن «روبن» غير صحيحة بالضرورة أو خاطئة بالضرورة، إذاً فلا يمكن أن يكون «روبن» اسماً، نظراً لما نعرفه عن الأسماء. لذلك فإن «باتمان» أيضاً لا يمكن أن يكون اسماً. وإذا لم يكن «باتمان» اسماً، فحينئذٍ ستفشل

حجتنا الأولى: حيث لا تنطبق ضرورة الهوية على الجمل التي هي مثل «روبين» أو «باتمان» لأنها أوصاف وليسوا أسماء.

هناك شيء مثير حول هذا الاستنتاج. حيث يبدو أنه يمكن للأفراد المختلفين اتخاذ هويات سرية مختلفة، ومن الطرق التي يمكن من خلالها شرح احتمالية ذلك هو اعتبار «باتمان» وغيرها من «الهويات السرية» هي أوصاف وليست أسماء. فعلى سبيل المثال، قد يكون «روبين» اختصاراً لـ «الرجل - أو الفتاة، في قضية ستيفاني براون - الذي يرتدي ملابس روبين». في الواقع، قد يعتقد المرء أن هذا الأمر واضح. فأولاً، غالباً ما يطلق على بروس واين اسم «باتمان»، وقد يتصور المرء أن «باتمان» هو مجرد اختصار لوصف معين. وثانياً، إن هنالك بعض (مثل جان بول فالي وديك غرايسون) من كانوا قد ارتدوا قناع وعباءة «باتمان» بدل واين ليشتغلوا مكانه في غيابه. وثالثاً، حقيقة أن «روبين» ومصطلحات أخرى تشبه إلى حد كبير مصطلح «باتمان» المستخدم، وأن «روبين» ومصطلحات أخرى قد لا تكون أسماء، توفر سبباً للتفكير بأن «باتمان» هو ليس اسماً.

ولكن هناك أسباباً وحيهة أيضاً للإعتقاد بأن «باتمان» ليس وصفاً، بل هو في الحقيقة اسم. أولاً، تمر معظم الأوصاف باختبار لغوي معين. وكما هو الحال في معظم الاختبارات اللغوية، توجد هناك استثناءات، ولكن مع ذلك فإن هذا الاختبار جيد بشكل عام. إذا ظهرت مصطلحات معينة في الوصف، فإن بعض الاستنتاجات تكون عادةً استنتاجات جيدة. أنظر في الوصف الآتي: «أقبح المجرمين في غوثام». إذا كان هذا الوصف يقصد به شخص معين، فسيمكنا بشكل معقول استخلاص استنتاجات معينة حول ذلك الفرد المعني. فعلى وجه الخصوص، سيمكنا أن نستنتج أن هذا الشخص قبيح، ومجرم، ويقطن في مكان ما من غوثام. يبدو أن «باتمان» يفشل في هذا الاختبار، حيث لا يمكنا أن نستنتج بشكل معقول أن ذلك

الشخص هو باتمان. وعلى الرغم من أن هذا الاستنتاج ليس قاطعاً، إلا أنه على الأقل يمنحنا سبباً جيداً للاشتباه في أن «باتمان» ليس وصفاً مُقنَّعاً. ووفقاً لبعض الفلاسفة، فإن الأوصاف المقنعة شائعة. فعلى سبيل المثال، إذا كان «بروس واين» وصفاً مقنَّعاً، فإن «بروس واين» سيكون مجرد نسخة مختصرة لـ «ابن مارثا واين والدكتور توماس واين».

ثانياً، والأكثر أهمية، تشير الأوصاف إلى أشياء محددة فيها خصائص معينة. فوصف «أقبح المجرمين في غوثام» يمكن أن يصف القاتل كروك Killer Croc لأن القاتل كروك قبيح الشكل، ومجرم، ويقطن في مكان ما في غوثام، غالباً في مجاريها. ولكن، إذا أراد شخص ما، فيمكنه السعي ليصبح أقبح من القاتل كروك، وأكثر إجراماً، ويسكن غوثام. وإذا أنجزت تلك الشروط الغريبة إلى حد ما، فإن هذا الوصف سيشير إليه. لاحظ أن «باتمان» لا يعمل بهذه الطريقة: فبغض النظر عن مدى جودة الزي الذي تقوم بصنعه، أو الكهف الذي تجهزه تحت منزلك، فسيشير «باتمان» إلى شخصية باتمان الخيالية بدلاً من أن يشير لأي شخص آخر. ولهذا السبب، يبدو أن عبارة «باتمان» لا تتصرف وكأنها وصف.

إذاً يبدو بأن حجة روبن تعطينا سبباً للاعتقاد بأن «باتمان» ليس اسماً، مما يعني أن الحجة التي تنطوي عليها ضرورة الهوية تفشل. ولكن هناك أيضاً سبباً جيداً، كما هو موضح في الحالتين اللتين تم النظر فيهما للتو، للاعتقاد بأن «باتمان» ليس وصفاً. ولهذا السبب، يبدو أن «باتمان»، أيا كان تصنيفه، هو مصطلح غريب بالفعل.

هناك بعض الطرق التي يمكن للمرء اتباعها لحل هذه المشكلة وتحديد ما إذا كان «باتمان» اسماً أو وصفاً. فقد يجادل المرء أنه على الرغم من فشل هذه الاختبارات، فإن «باتمان» هو في الحقيقة وصف، وبما أنه وصف، فإنه يمكن أن يشير إلى الجوكر في عالم آخر غير الأرض الجديدة. وقد

يجادل المرء أيضًا أنه على الرغم من أنه يبدو أن هناك عدة أفراد يشار إليهم بـ "روبين"، فقد كان هناك بالفعل العديد من الأفراد بأسماء مختلفة دائمًا ما يتم "اختصارها" بطريقة مُقنّعة. إذا كان باتمان والجوكر هما مجرد أفراد محتملين، فعند معرفة ما إذا كان من الممكن أن يكون باتمان هو الجوكر، سنحتاج إلى حل هذه المشكلة. ونحن سنقترب من حل هذه المشكلة من خلال مناقشة أي أنواع من الكيانات بالضبط هم باتمان والجوكر بدلاً مما إذا كان "باتمان" اسمًا أو وصفًا. وفي نهاية الأمر، سنقترح أن بعض الاعتبارات الميتافيزيقية تشير إلى أن باتمان كان يمكن له أن يكون الجوكر.

الخيال والعوالم المحتملة

حتى الآن، كنّا قد افترضنا أنه على الرغم من أن الأرض الجديدة وسكانها غير حقيقيين، إلا أنه كان من الممكن أن يوجدوا. ووفقاً لهذا الافتراض، فإن «باتمان» و «الجوكر» هما مجرد كيانات محتملة، مثل أخ توأم محتمل لك فقط، أو مجرد قطعة بحجم مجرة من التوست الفرنسي. لو كانت هذه الكيانات قد تواجدت بالفعل، فإنها تشبه إلى حد كبير الأشياء المادية التي تشكل عالمنا. حيث أنهم سيكونون أشياء مادية ملموسة مثلك أو مثلي أنا أو هذا الكتاب أو مبنى إمباير ستيت. إن معظم الأشياء التي نعرفها هي أشياء مألوفة؛ أشياء خاضعة لقوانين الفيزياء وتوجد ضمن المكان والزمان.

لكن الشخصيات الخيالية، مثل باتمان وروبين، ليست شخصيات مادية. فهي أشبه بالأرقام والقصص؛ فمن غير المنطقي القول إن لديك الرقم خمسة في جيبيك أو أن هاملت يسكن على جزيرة كوني. ولهذه الأسباب، تكون الشخصيات الخيالية كيانات مجردة كالأرقام بدلاً من كونها أجساما مادية مثل هذا الكتاب. وهناك سبب وجيه للاعتقاد بأن

الكيانات المادية تختلف كثيرًا عن الكيانات المجردة، ولكن الكيانات المجردة الخيالية، كباتمان والجوكر (ولكن ليس الرقم اثنين)، تبدو مختلفة بشكل خاص عن الكيانات المادية. إحدى الطرق التي قد تكون فيها الكيانات التجريدية الخيالية فريدة بشكل خاص هي في الطريقة التي تمتلكها خصائص مشروطة.

يتم تحديد الخصائص الشكلية أو النموذجية للكيانات المادية المتعارف عليها ضمن الحياة اليومية كالطاوولات والأحذية والكتب بحقائق موضوعية مستقلة عن ما يفكر به أي شخص. في حجتنا، كنا قد اعتبرنا باتمان والجوكر ككيانات مادية، ولكن كما أشرنا للتو، فإنها مختلفان تمامًا عن ذلك؛ فهم كيانات خيالية مجردة. ومع ذلك، إن لم تكن شخصيات مثل باتمان كيانات مادية تسكن عوالم محتملة، فمن غير الواضح كيف يمكننا أن نفهم الإدعاءات المشروطة التي نفترضها بشأنهم. وبالرغم من ذلك، يمكننا أن نقول أن من بين الادعاءات المشروطة حول الكيانات الخيالية، فأن بعضها صائب وبعضها خاطئ. كان يمكن لباتمان أن يقتل الجوكر. ولم يكن السيد فريز ليستطيع الاستمرار في المشي على الشمس (أو حتى على شاطئ ميامي). إذن، كيف نفهم الخصائص النموذجية للشخصيات الخيالية المجردة؟ ربما تكون الشخصيات الخيالية مثل باتمان لها خصائصها النموذجية بطريقة خاصة جدًا: فهي تمتلك هذه الخصائص لأنه تم صنعها بواسطة مؤلفين وفنانين مثل بوب كين Bob Kane وجرانت موريسون Grant Morrison وجيم آبارو Jim Aparo وجيم لي Jim Lee.

بتعبير أدق، في حين أن الشخصيات الخيالية المجردة ليست مجرد كيانات محتملة، فلا يمكننا استخدام العوالم الممكنة لفهم خصائصها النموذجية. هذا يعني أن هناك حاجة إلى طريقة بديلة لمعرفة كيف للشخصيات الخيالية أن تمتلك الخصائص الشرطية. وإليك إحدى تلك

الطرق التي توصلنا لها هي الخصائص المشروطة - خصائص شرطية أو ضرورية بطريقة معينة - للشخصيات الخيالية التي نص عليها المؤلفون الموثقون لتلك الشخصيات. إن الخصائص النموذجية لباتمان تختلف عن الخصائص النموذجية للزرافات وأبراج المراقبة: فالأولى مشروطة من قبل مؤلفين مثل بوب كين، بينما الأخرى يمكن معالجتها من قبل أي شخص بشكل مستقل. إذا كان هذا صحيحًا، فالأشياء التي يستطيع باتمان فعلها أو تلك التي تتعذر عليه لا تتحدد بما يمكن أن يكون موجودا في ذلك العالم، ولكن بما يعتقده مؤلفو قصص باتمان أنه ممكن بالنسبة له.

إن صياغة هذا الحل المقترح بشكل أكثر اكتمالٍ سيثبت أنه أمر معقد للغاية، ولكن نتيجة السؤال الذي كنا مهتمين به واضحة. لا يمكن تحديد ما إذا كان باتمان يمكن أن يكون الجوكر من خلال طرفنا المعتادة للتحقيق النموذجي. وللإجابة على هذا السؤال، نحتاج إلى معرفة الخصائص النموذجية التي يعتقد مؤلفو قصص باتمان أن باتمان والجوكر يمتلكها. يبدو، إذن، أن إحدى الطرق للإجابة على هذا السؤال هي من خلال التحقيق بالأسلوب القديم، وهو القراءة.

حسنًا، لقد قمنا بالقراءة - فبعد كل شيء، هذا ما نقوم به نحن - والنتائج هي أن باتمان والجوكر يمكنهما أن يكونا متطابقين. ولكن لماذا؟ لأنه في Batman: Two - Faces (1998)، يكون كل من باتمان والجوكر عبارة عن شخص واحد. تشرح هذه القصة من العوالم الأخرى - وهي قصة لباتمان يبدو أنها قد حدثت خارج الاستمرارية النموذجية لعالم DC، أو على أرض غير الأرض الجديدة - سيناريو حيث يكون فيه باتمان والجوكر متطابقين في الواقع، مثل الدكتور جيكل والسيد هايد. لذا فإن هذه الحالة الخاصة توفر لنا سبباً وجيهاً للاعتقاد بأن الهويات الخيالية (السرية أو غير ذلك) قد لا تكون ضرورية جداً كما كنا نعتقد.

أترك المزاح جانباً، فهذه الفوضى مشروطة

في البداية، شرعنا في الإجابة على السؤال حول «هل يمكن لباتمان أن يكون الجوكر؟»، افترضنا من البداية أن «باتمان» و«الجوكر» هما اسمان لأفراد محتملين فقط - أشياء موجودة في عوالم أخرى ممكنة - ونظراً لهذه الافتراضات، فقد جادلنا بأن هناك سبباً للتفكير بأنه لم يكن يمكن لباتمان أن يكون الجوكر. وعلى الرغم من هذا، فهناك بعض الأسباب للاعتقاد بأن «باتمان» قد يكون وصفاً حقاً، وإذا كان كذلك بالفعل، فمن الممكن جداً لباتمان أن يكون الجوكر. ثم اقترحنا بأن باتمان والجوكر قد يكونان كيانات غريبة، مجردة، خيالية أكثر من كونها مجرد أفراد محتملين.

قد يشكو بعض الفلاسفة من كلا هذين الخيارين. حيث يفضل هؤلاء الفلاسفة، الذين يطلق عليهم أحياناً الإسمانيون nominalists، مشهداً متناثراً كالصحاري شبيهاً بالواقعية. وينكرون أن هناك فقط أما أفراد محتملين أو كيانات مجردة. ويأخذون على محمل الجد الحكمة الميتافيزيقية التي تقول: «الأقل هو الأكثر» ويؤمنون بالكيانات الفعلية والأفراد الماديين فقط. في حين أن هناك سماتاً جذابة للصورة الميتافيزيقية الاسمانية، سيكون واجب على الاسماني أن يقوم على الأقل بشيء غير مريح ولكنه ضروري: بما أن الاسمانية تنكر وجود كيانات مجردة أو محتملة، فيجب على الاسماني أن ينكر أن باتمان، الجوكر، وروبين موجودون من الأساس. قد تجعل هذه النتيجة الفلسفة الاسمانية غير جذابة، ولكنها نتيجة مثيرة للاهتمام بشكل كافٍ، حيث قد تعتقد أن باتمان نفسه يجب أن يكون اسمانياً. فبعد كل شيء، إذا كانت الاسمانية صحيحة، فلن تكون هناك جريمة في غوثام. والأكثر من ذلك، لن تكون هناك غوثام على الإطلاق.²

- 1- "كواكب الأرض البديلة" في عالم DC (قبل Crisis on Infinite Earths) هي أكوان بديلة (وبعدها 52) هي شيء مشابه كثيراً لما يدعوه الفلاسفة بالعوالم المحتملة؛ هي أكوان بديلة منفصلة حيث ينحو الواقع منحى مختلفاً بطريقة ما على مسار التاريخ.
- 2- الشكر موصول من قبل المؤلفين لكون آرمسترونغ، باراك كراكوير، إيتان مانهوف، وكريس تيلمان لمناقشتهم وتعليقاتهم المفيدة.

أزمة هوية باتمان والتشابه مع عائلة فتغنشتاين بقلم: جيسون سوتبورث

ما الذي يعنيه لشخص ما أن يكون باتمان؟ هل هناك شيء مطلوب بالنسبة لنا لنحدد شخصا ما بصفته باتمان؟ هل هناك جودة أو خاصية إذا ما إمتلكها الفرد فإنها ستجعل منه باتمان؟ في هذا الفصل، سنتناول هذه الأسئلة. وعلى طول الطريق، سنرى أن كل طريقة مفيدة للوصول لمعنى وتعريف باتمان، أو أي شيء آخر نخصه، هو من خلال فكرة «التشابه الأسري».

القصص المصورة، الظروف، والأمثلة المضادة

إن للفلاسفة شروطا لأنواع الظروف التي تسمح لنا بالتعرف على شيء ما باعتباره ما هو عليه في الأساس، أو تحديده كجزء من مجموعة من الأشياء. فإذا كانت سمة أو جودة ما مطلوبة لتكون جزءاً من مجموعة، فنحن نقول

إنها شرط ضروري. فكر في تفاحة: إذا كان شيء ما هو تفاحة، فإن من الضروري أن يكون فاكهة، أو أن تكون فاكهة هو شرط ضروري لكونك تفاحة. لاحظ أن هذا لا يعني أن كونك فاكهة كافٍ لتكون تفاحة. حيث يجب أن يكون التفاح على شكل تفاح، له شكل مدور، وقصبة رفيعة من الأعلى، ولا يكون برتقالاً، ونستطيع هكذا تسمية بعض الشروط الأخرى المرتبطة بـ«عائلة التفاح». كل هذا يعني بأنه لا يمكن لشيء أن يكون تفاحاً دون أن يكون فاكهة؛ فجميع التفاح هو فاكهة، لكن ليست كل الفاكهة تفاح.

من ناحية أخرى، إذا كان الایفاء بمتطلب معين كافياً لیتم تضمينه في المجموعة، فإن هذا المتطلب سيكون شرطاً كافياً. إنظر في حالة الحيوانات، إن حقيقة أن شيئاً ما هو قطة سيكون كافياً بشكل وافٍ لكي يكون هذا الشيء حيواناً. لاحظ أنه يمكن أن يكون هناك العديد من الظروف الكافية ليكون الشيء حيواناً. يكفي أيضاً أن يكون الشيء حيواناً أو طيراً أو سمندلاً أو إنساناً؛ حيث أن كل القطط حيوانات، ولكن ليس كل الحيوانات قططاً.

إذاً هل يمكننا تحديد الشروط الضرورية والكافية لباتمان؟ بفضل القصص المقروءة على نطاق واسع مثل (Batman: Year One) (1987) و (The Dark Knight Returns) (1986)، بالإضافة إلى سلاسل الرسوم المتحركة المختلفة وأفلام الحركة الحية، فإن تحذف العديد من الاحتمالات تتبادر إلى الذهن على الفور: إن باتمان رجلٌ، وهو بروس واين، وهو يرتدي زياً يظهره كوطواط، ويحارب الجريمة. باتمان يعمل بهذه الطريقة للانتقام لموت والديه، اللذين قُتلا عندما كان طفلاً. ومنذ قتل والديه بواسطة مسدس، فإنه يرفض استخدام المسدسات، كما أنه لا يقتل خصومه أبداً. هذه هي صورة تقليدية إلى حد ما وغير مثيرة للجدل لسمات باتمان الرئيسية. لكن حل لي هذه المعضلة: هل هذه شروط ضرورية، وظروف كافية؟ أحدهما أم

الجواب البسيط هو... لا. لا يعتبر أي جزء من هذا التصور عن باتمان شرطاً ضرورياً أو كافياً لشخص ما لكي يكون باتمان. لغرض المحاجة سنستخدم طريقة يدعوها الفلاسفة "عكس المثال". في البداية سنأخذ مرشحاً للحصول على شرط ضروري أو ملائم، ثم سنقدم مثلاً أو اثنين توضح سبب فشل هذا المرشح. المثال المضاد للشرط الضروري سيكون مثلاً على افتقار باتمان لسمة ما، مما يبين أن هذا الشرط غير جوهري لباتمان. أما المثال المضاد للشرط الكافي فسيكون مثلاً لتلك السمة في حال وجودها في شيء آخر ليس باتمان، مما سيبين مرة أخرى أن تلك السمة ليست حصرية لباتمان.

لنبداً بالادعاءات القائلة بأن باتمان لا يقتل خصومه ولا يستخدم الأسلحة النارية. في ظهور باتمان الخامس يمكن العثور على مثال مضاد للطرح القائل بأن هذه الشروط ضرورية. Detective Comics 32 (تشرين الأول/ أكتوبر 1939) - فقط أبحث عن تلك النسخة، فأنا متأكد من أن لديك واحدة - تحتوي على الجزء الثاني من القصة والتي يحارب فيها باتمان مصاص دماء يدعى الراهب Monk. في هذه القصة، قام الراهب وشريكه بتنويم صديقة باتمان (جولي ماديسون) مغناطيسياً واحتجزوها كرهينة. يحل باتمان هذه المشكلة بإطلاق النار على كلاهما بالرصاص الفضي ويقتلهم بينما هم نائمون، مظهرين أن شخصاً ما يمثل باتمان قد استخدم مسدساً.¹ إذاً لا يعتبر أي من هذه الشروط كافياً ليكون الشخص باتمان أيضاً، حيث أن نقض بقية الشروط الأخرى سيكون أسهل من هذا الشرط الأخير حتى. من الواضح أن هناك العديد من الأشياء التي لا تقتل أو تستخدم البنادق ولكنها ليست باتمان، بدءاً من شخصيات القصص المصورة الأخرى، مثل الشمبانزي المحقق Detective Chimp، إلى أناس حقيقيين، مثل غاندي،

إلى الأشياء الجامدة، مثل كبّاستي.

غالبًا ما يقترح معجبو باتمان غير المتعمقين أن كون شخص ما بروس واين هو ضروري وكاف ليكون باتمان. ولكن قراءة القصص المصورة المتعمقين بباتمان منذ أوائل التسعينيات يعرفون عن هذا الأمر بشكل أفضل. فخلال قصة Knightfall (1993-1994)، يتخلى بروس واين عن رداء باتمان بعد كسر ظهره من قبل باين. وما أصاب وأرعب المعجبين في كل مكان أن بروس قد اختار جان بول فالي Jean Paul Valley (البطل عزرائيل Azrael) ليحل محله، وفي قصة Prodigal (1994 - 1995) التي تلتها، اختار ديك غرايسون (وهو نايتوينغ Nightwing، وروبن الأول، والذي كان المحبون للسلسلة أكثر سعادة بوجوده). لذلك، ولأكثر من عامين، كان شخص ما غير بروس واين يظهر كباتمان، وبموافقة بروس واين نفسه. كذلك، في تلك الفترة فأن بروس واين لم يكن باتمان، مبيناً أن بروس واين ليس ضروريا ولا كافيا ليكون باتمان.²

ولعل المرشح الأكثر احتمالا ليستوفي شرطاً ضرورياً ليكون باتمان هو من كان قد قُتل والديه. أولئك الذين قرؤوا قصة من عوالم أخرى تدعى Batman: Castle of the Bat (1994) يعلمون بأن هذا الشرط لا يمثل حلاً نهائياً. حيث تبدأ هذه القصة مثل بداية قصة باتمان المتعارف عليها بوفاة والدي بروس واين. في هذه القصة، وكمحاكاة لقصة فرانكنشتاين الكلاسيكية، يكبر بروس واين ليصبح عالماً عظيماً ويكرس الجزء الأكبر من بحثه لإحياء الأنسجة الميتة. وفي نهاية المطاف، يتمكن بروس من إحياء والده بمساعدة المواد الحيوية المستخلصة من الوطاويط. ثم يرسل بروس الرجل الوطواط خاصته والذي يدعوه (وهذا ليس بالأمر المفاجئ) بـ “باتمان” للانتقام لوالديه الميتين. إن والد بروس واين المقتول هو باتمان في هذه القصة، لذلك لم يتم موت والدي “باتمان” في هذا الإصدار تقنياً.

ومرة أخرى، تصبح قضية الكفاية شديدة الصعوبة مع هذا الشرط: فوجود والدين مقتولين أمر شائع في قصص الأبطال الخارقين. فعلى سبيل المثال لا الحصر، تم قتل والدي هيلينا بيرتينيلي Helena Bertinelli، ولكن هذا السبب قد دفعها لأن تصبح الصيادة Huntress، لا أن تنتهي لتصبح باتمان. وغالبًا ما يقال عن باتمان أنه منعزل، حيث أختار أن يعمل بمفرده، ويتعاون مع الآخرين عند الضرورة القصوى فقط. ولكن عند التفكير في هذا الأمر فإن هناك عددًا من الأمثلة المضادة لهذا الادعاء. في وقت مبكر جدًا من تاريخ باتمان كان قد بدأ بالعمل مع الآخرين. في فيلم Detective Comics #38 (April 1940)، تم تقديم روبن الفتى المعجزة Robin the Boy Wonder كشريك لباتمان، ليزيد بعدها عدد الحلفاء الذين إتخذهم إلى جانبه. وفي عالم قصص باتمان المصورة اليوم، سوف تقرأ في بعض الأحيان إشارة إلى "فريق باتمان" أو "عائلة باتمان"، وهي مجموعة كبيرة من الأشخاص الذين بات يعتمد باتمان عليهم (وهم روبن ونايتوينغ وأوراكل Oracle وغيرهم). وينبغي أن يكون قد بات من الواضح أن كون المرء وحيداً لا يكفي ليكون باتمان.

وبما أن أحد الأسماء المستعارة لباتمان هو "فارس الظلام"، فقد يقترح البعض أنه من الضروري أن يكون "باتمان" مظلماً وكثيراً. ولكن راجع قصص العصر الفضي لباتمان،³ فخلال هذه الفترة، وبفضل الهيئة التشريعية للقصص المصورة، كانت القصص المصورة للأبطال الخارقين لطيفة ومحبة، وكانت القصص عادة ما تدور حول المخادعين أو المحتالين. وأحد الأمثلة على تلك القصص هي Batman # 108، حيث تظهر باتوومان العصر الفضي (كاثي كين) لأول مرة. وهذه هي بداية سلسلة من القصص التي تتميز بالمغازلة بين باتمان وباتوومان، بإطار كوميدي رومانسي نموذجي: حيث يناضل باتمان للحفاظ على عزوبيته بينما تجذبه باتوومان للزواج.

سخيف؟ بالفعل، ولكن مظلّم؟ بالتأكيد لا.

ماذا عن حقيقة أن باتمان يحارب الجريمة بالضرورة؟ كما كنت قد خمنت مسبقاً، فهناك أمثلة مضادة لهذا أيضاً. ومثالي المفضل هو حول باتمان الذى يرتكب الجريمة بدلاً من محاربتها هو جزء من بين جزأين من Justice League of America #37 - 38 (August and September 1965). في هذه القصة، يتم تعريفنا بالأرض - A، وهي أرض حيث تكون فيها إصدارات أخرى من الأبطال الخارقين من العصر الفضائي لـ DC والذين يدعون فرقة الجريمة. في هذه القصة، تحارب فرقة العدالة (من الأرض - 2، لأولئك الذين يتبعون موطن كل فرقة) فرقة الجريمة في عالم DC الكلاسيكي - المعكوس. (والأمر الظريف في مظهر باتمان في هذه القصة هو أن باتمان الأرض - A يبدو تماماً مثل باتمان العصر الفضائي باستثناء أن لديه ظلال لحية خفيفة). لذا فمن الواضح أن كونك محارباً للجريمة ليس شرطاً ضرورياً لتكون باتمان. ومرة أخرى، فإن من الواضح أن المطالبة بالكفاية تسقط هنا، لأن جميع الأبطال الخارقين - ومن ضمنهم بوستر غولد - يحاربون الجريمة.

فتغنشتاين وألعاب اللغة

بدون أي شروط ضرورية وكافية، قد تتسائل كيف يمكننا تحديد ما يجعل شخصاً ما باتمان بنجاح. يمكن العثور على أحد إجابات هذا السؤال في تحقيقات لودفيغ فتغنشتاين (1889 - 1951) الفلسفية.⁴ يُقرّ فتغنشتاين أنه في محاولته لتعريف الأشياء مثل الـ "لغة"، فهو يضع نفسه في موقف شبيه بالذي نحن فيه مع باتمان حيث: «عوضاً عن التوصل إلى شيء مشترك بين الجميع ونسميه "لغة" فأني أقول بأن ليس لدى هذه الظواهر أي مشترك بينهم يدفعنا لاستخدام نفس الكلمة وتطبيقها على الكل، إلا أنها - أي تلك

الظواهر - ترتبط ببعضها الآخر بطرق عديدة مختلفة. وبسبب هذه العلاقة، أو كل تلك العلاقات، نستطيع تسميتهم جميعاً بالـ "لغة".⁵

إن العلاقة التي يكتب عنها هي علاقة تشابه. وما يجعل كل الأشياء المختلفة التي تسمى "اللغة" لغة هو أنها متشابهة مع بعضها البعض. سُمِّيَ هذا التشابه بالتشابه الأسري من قبل فيتغنشتاين، لأنك ترى هذا النوع من التشابه في العائلات فقط. فكر في عائلتك، إذا كنت مرتبطاً بيولوجياً، فسوف تشبه والديك وأشقائك إلى حد ما. إذا كان علينا إيجاد طرق نتشابه فيها جميعاً، فسوف نفشل. فعلى سبيل المثال، ربما تكون أنت وأحد أخوتك تملكون شعراً أحمر كوالدك، ولكن بقية أفراد عائلتك لا يملكون شعراً أحمر. وقد يكون لديك ولدى أخوتك وأمك أيضاً عيون بنية، ولكن والدك ليس كذلك. وقد يكون لديك أنف لا يبدو كالذي لأمك أو لأخوك أو لأختك. بالإمكان تطبيق نفس هذه الطريقة عند أخذك بعين الاعتبار شكل الجسم والوجه والبشرة وحجم الأذنين.

يستخدم فيتغنشتاين حالة الألعاب لحل هذه المسألة. حيث هناك العديد من أنواع الألعاب المختلفة. ما هو الشيء المشترك بينها جميعاً؟ إذا بدأت بالألعاب اللوحية، فقد تظن أن جميع الألعاب اللوحية تحتوي على قطع تتحرك حول اللوحات. وبإضافة ألعاب البطاقات إلى المزيج، ستلاحظ أن أي من تلك القطع في الألعاب اللوحية ليست ضرورية هنا. وترينا ألعاب الفيديو والسوليتير أنه ليس من الضروري أن يكون هناك أكثر من لاعب واحد. وقد تظن أن جميع الألعاب ممتعة، ولكن ماذا عن اللعبة التي يحاول فيها البالغون ملاعبة الأطفال، مثل قولك لمجموعة أطفال: «لنرى من الذي يمكنه أن يكون هادئاً لوقت أطول؟» وتتضمن بعض الألعاب إمتلاك مهارة اللعب بشكل جيد، كالتنس، في حين أن البعض الآخر، مثل الروليت، لا تستدعي ذلك. ماذا عن لعبة الروليت الروسية؟ هذا هو مثال على لعبة خطيرة للغاية

على عكس معظم الألعاب (على الرغم من أنه لا يزال هناك فائزون وخاسرون محدّدون فيها). بعض الألعاب، مع ذلك، ليس فيها فائزون وخاسرون حتى، مثل لعبة حلقة حول الورود ring - around - the - roses (هي لعبة غنائية يصنع فيها الأطفال حلقة حول الزهور ليدوروا حولها "المترجم"). لذا، يبدو أنه لا يوجد شيء مشترك بين جميع الألعاب، كل ما لدينا هو مجموعة من أوجه التشابه التي تشكل جزءاً من مجموعات مختلفة من الألعاب.

ولكن لحظة واحدة، قد يقول بعض الأشخاص أن بعض الأمثلة على الألعاب التي قدمتها ليست ألعاباً على الإطلاق، لا سيما ألعاب مثل الروليت الروسي والحلقة حول الورود. يبدو أن هناك سبباً جيداً لإعتبار الروليت الروسية على أنها لعبة. فبعد كل شيء، الروليت في الكازينوهات هي لعبة. إذا كان الرهان بالمال على عجلة تدور عشوائياً ثم تتوقف حيث تتمنى أنت هي لعبة، فلماذا لا يعتبر الرهان بحياتك بدلاً عن المال لعبة أيضاً؟ الحلقة حول الورود أيضاً تبدو كمرشحة مقبولة لتكون لعبة. حيث أن لديها العديد من العناصر غير الموجودة في الألعاب الأخرى الأقل متعة منها: فهي مادية وممتعة ولها مجموعة من القواعد. أما السبب وراء رغبتك في رفض حلقة حول الورود كلعبة هو لكونها لا يوجد فيها فائز، ولكن بهذا المعيار، فإن لعبة تريس الفردية لن تعتبر لعبة كذلك (تريس: لعبة فيديو ظهرت في الثمانينات ولا زالت مستخدمة حتى يومنا هذا، وهي ما تعرف عادة بلعبة ترتيب المكعبات "المترجم"). ولا يعني هذا عدم وجود ما يمنعك من رسم خط فاصل لأعتبار شيء ما ليس بلعبة؛ المقصود فقط هو إظهار أنه لا يوجد شيء حول الألعاب يحدّد مكان رسمنا لهذا الخط الفاصل. الفرق هو أنك قد تقول: "إن حلقة حول الورود ليست بلعبة"، ولكن سيكون ذلك مجرد ميزة خاصة بك تجعلك تحدّد ما يجعل الألعاب ألعاباً، ولكنها لا تعتبر ميزة خاصة بالمفهوم الفعلي لكون اللعبة لعبة.

يمكننا تقديم رد مماثل على الاعتراض الذي يقول بأننا لا ينبغي لنا أن نحتسب قصص العوالم الأخرى كحالات لباتمان. فعندما ترسم خطأً وتقول إن باتمان يمكن أن يفهم من مجموعة الحالات الضرورية حول باتمان في الاستمرارية السائدة للقصة، أو من المفهوم العام لدى محبي باتمان، فأنت تختار بذلك تحديد وصف لمفهوم باتمان. ومع ذلك، فإن هذا يختلف عن المفهوم الواقعي لأنه مجرد وصف ظاهري فقط.

وقد يعترض بعض القراء على أنه بدون حدود ثابتة لما هو لعبة وما هو ليس كذلك، فإن مصطلح لعبة لن يكون مفيداً على الإطلاق. ومع ذلك، يبدو أن هذا غير صحيح. فكلنا نستخدم كلمة «لعبة»، وكما رأينا، لا يمكن وضع مثل هذه الحدود. وهذا هو الحال أيضاً مع باتمان. ففي وقت سابق رأينا أنه لا توجد شروط ضرورية وكافية لكونه باتمان. ونظراً لأن هذه هي الحالة، فلا يمكننا تقديم تعريف ملموس لباتمان تماماً كما لا يمكننا تعريف كلمة «لعبة». ومع ذلك، فإننا نستخدم كلمة «باتمان» بسهولة، ونفهم ما يقصده الآخرون عندما يقولونها. لذا، يبدو أن المصطلح مفيد تماماً بدون وجود حدود ثابتة.

ولكن كيف يجب أن نشرح لأحدهم ماذا تعني «لعبة»؟ يقول فيتغنشتاين إننا نصف ألعاباً محددة ومختلفة للفرد، ثم نضيف قائلين «والأشياء المشابهة لتلك هي ألعاب». ⁶ يبدو أن هذا قد يكون جواباً مقنعاً ليس فقط لكيفية وصفنا للعبة بطريقة فيتغنشتاين، ولكن أيضاً لكيفية شرحنا الفعلي لماهية اللعبة. فإذا ما قام طفل ما بسؤالنا عن ماهية اللعبة، فسنشير إلى الأمثلة التي يعرفها الطفل، ونقول: «مونوبولي، كانديلاند (مدينة الحلوى)، والبيسبول هي ألعاب، وكل ما تشابهها هي ألعاب أيضاً».

دعونا ننظر الآن لهذا الأمر من جانب باتمان. إذا ما سألنا أحدهم عن ما ومن هو باتمان، فسنقدم قصة مختصرة عن أصول باتمان بنفس الطريقة

التي قمت بها في بداية هذا الفصل. قد نذهب بعد ذلك إلى إستعراض بعض القصص المثيرة للاهتمام التي كنا قد قرأناها. حينها سيكون هذا الشخص قادراً على رؤية الحالات الشائعة التي تحدث باتمان كباتمان. قد تواجه بعد ذلك بعض الحالات الغريبة بالنسبة لباتمان والتي كنت قد أشرت لها، وستضطر إلى النظر في "هل هذه الحالة تنطبق على باتمان؟" ثم سيتمكن الشخص من رؤية المشتركات بين هذه الحالات الجديدة لباتمان ومفهومه السابق عنه، تماماً مثل طفل يتوقف عن التفكير في ما إذا كانت المطاردة أو ماركو بولو كلاهما لعبة.

روبن؟ من يكون هذا؟

قد تستصعب فكرة أنه يتم فهم كل مصطلح في لغتنا من حيث التشابه الأسري، ولكن فيتغنشتاين لديه حجتين إضافيتين لإقناعك بذلك. أولاً، تحليل شخصاً ما يقول: «لا وجود لروبن». قد يعني هذا عدداً من الأشياء المختلفة. ربما يعني ذلك أن باتمان لا يملك أي شريك، ولكنه قد يعني أيضاً أن ديك غرايسون لم يعد شريكه. يعتقد بعض الفلاسفة أنه يمكن معالجة اسم «روبن» بسلسلة من الأوصاف. قد تكون بعض الأمثلة على ذلك «الصبي الذي قُتِل والداه عندما تم التلاعب بإرجوحتهم أثناء عرضهم في السيرك» و«الصبي الذي رفضت باربرا غوردون عروضه الجنسية». إن التبديل بين هذه التعريفات مع الادعاء القائل «لا وجود لروبن» يغير من هذا الإدعاء.⁷

ويستمر فيتغنشتاين بطرح هذه المسألة بطريقة مختلفة. لو تم تحديد تعريف "روبن" بواسطة هذه الأوصاف، ومن ثم تبين أن جزءاً واحداً من هذا الوصف غير صحيح، فهذا يعني أنه لم يكن هناك روبن. لذا، فإذا تم "إعادة ضبط" قصة حياة روبن بحيث يتم قبول تودده الجنسي من قبل باربارا غوردن (كما هو الحال في قصة Zero Hour المستمرة)، وكنا متمسكين بإدعائنا

السابق على أنها لن تفعل ذلك، فهذا يعني أنه لم يكن هناك روبن من الأساس! لكن ليس ذلك ما يحدث حين نصطدم بمعلومات متضاربة. ما يحدث هو أننا نتوقف عن الاعتقاد بصحة تلك المعلومة غير المؤكدة عن روبن. إن النقطة المستهدفة من هذه الحجة هي أن اللغة تستخدم في كل وقت دون معنى ثابت. وقبل قراءة هذا الفصل، ربما ظن بعضكم أنه شرط ضروري لباتمان أنه لم يقتل خصومه. ولكن بعد أن تبين أن هذا غير صحيح، لم تقم بإنكار أن هذه الشخصية هي باتمان. وبدلاً من ذلك، فقد قمت بتعديل تصورك لباتمان.

يعتمد فيتغنشتاين على مثال آخر لإثبات وجهة نظره. تخيل أحدهم وهو يقول: "هناك باترينغ (هو سلاح معدني حاد يكون على شكل وطواط، عادة ما يرميه باتمان تجاه أعداءه "المترجم")"، وكلما اقترب منه شخص ما، اختفى. قد نقول إن الباترينغ لم يوجد قط وأنه كان مجرد وهم. ولكن تخيلوا كذلك أن الباترينغ يظهر مرة أخرى، ونكون الآن قادرين على لمسه. يمكننا الآن أن نقول أن الباترينغ كان حقيقياً وأن اختفائه كان مجرد وهم. ولكن ماذا لو اختفى الباترينغ مرة أخرى، فقط ليعاود الظهور بشكل متقطع؟ هل هذا الشيء هو باترينغ أم لا؟ إذا كنت لا تعرف كيفية الرد على هذا السؤال، فلا تشعر بالسوء. فمعظم الناس ليس لديهم إجابة جاهزة لهذا السؤال. ومع ذلك فإن هذا سيكون كافياً لإيصال وجهة نظر فيتغنشتاين. إن حقيقة كوننا لا نعرف كيفية الحكم في هذه الحالة تظهر أنه يمكننا استخدام كلمة "باترينغ" دون وجود قواعد استخدام ثابتة. وإذا كان هذا صحيحاً، فنحن نستخدم اللغة بدون وجود معنى ثابت للكلمات، والسبب الوحيد المقبول لذلك هو أننا نفهم كل الأشياء عن طريق التشابه الأسري.⁸

يقدم باتمان والأبطال الخارقون بشكل عام حالات حقيقية لمثال الباترينغ المتكرر الإختفاء. حيث يتم كتابة قصص جديدة باستمرار، وبذلك يتم تضمين العديد من التغيرات على الوضع الراهن للشخصية. لاحظ قصة

The Dark Knight Returns. فقبل كتابة هذه القصة، كان الناس يعتقدون بأن باتمان و سوبرمان صديقان، وأن كلاهما خيّران. ولكن هذه القصة تضع الشخصيتين على خلاف، حيث يدافع كلاهما عن مواقف متعارضة يلتزمان بها أخلاقياً. وبالنظر لهذا الوضع، فلا يمكن لكليهما أن يكونا خيّرين. إذن ماذا فعلنا عندما قرأنا هذه القصة؟ لقد تركنا مفاهيمنا السابقة عن الشخصيتين تتغير نظراً للمعلومات الجديدة التي توفرت الآن.

إبقاؤه ضمن العائلة

في الختام، لننظر فيما تعنيه قيمة التشابه الأسري للمجالات الأخرى للفلسفة. بالنسبة للمبتدئين، فإذا كان فيتغنشتاين على حق، فسيكون هذا بمثابة اعتراض على النظريات الأخلاقية التي تحاول استخدام الشخصيات الخيالية كنماذج أخلاقية (كما في الفصل الذي قدمه كل من ديفيد كايل جونسون وريان رودس في هذا الكتاب). وإذا لم يكن هناك وصف ثابت يمكن إعطاؤه لشخصية، فلن تتمكن من الإشارة إلى سمات معينة لهذه الشخصية، أو إلى كيفية تصرف هذه الشخصية في موقف معين. بعبارة أخرى، فإن عبارة «يجب عليك التصرف مثل باتمان» لن تساعدنا في تحديد كيفية التصرف، لأن «باتمان» قد يتصرف بطرق مختلفة في ذات الحالة في إصدارات أو فترات زمنية مختلفة. يمكنك دومًا توضيح ما تعنيه بتعبير باتمان بالإشارة إلى سمات شخصية محددة، أو كيفية تصرفه في مواقف محددة. ولكن إذا قمت بذلك، فلا يوجد سبب للإشارة إلى باتمان كنموذج أخلاقي، حيث يمكنك الإشارة إلى السمات تلك. ومن النادر أن تقتصر الأفكار الفلسفية الكبرى على مجال واحد من الفلسفة، فكثيراً ما يمكن أن يؤدي السؤال في الفلسفة الأخلاقية، على سبيل المثال، إلى لغز ميتافيزيقي أو معرفي. وبهذه الحالة، فإن كل الفلاسفة هم محققون، لكن ليس كل المحققين. . . حسناً، أعتقد أنك قد فهمت قصدي الآن.⁹

1- ومع ذلك فإنك قد تجادل بأنه لم يقتل بالفعل، لأنه مصاص دماء، أي أنه ميت بالفعل. حسناً، ولكن في The Dark Knight Strikes Again (2001)، فإن باتمان يقتل ديك غرايسون بالفعل (والذي أصبح قاتلاً، وقتل أبطالاً خارقين مسنين) بإلقائه في حفرة مليئة بالحمم.

2- يظهر مثالي المضاد المفضل في الواقع أن كل من المطالبة بالضروريات والمطالبة بالترفيات هي غير صحيحة. في العدد #167 من World's Finest (يونيو 1967)، نشهد عالماً يكون فيه كلارك كينت باتمان وبروس واين سوبرمان.

3- العصر الفضي للقصص المصورة هو الفترة الرئيسية الثانية للكمومكس (العصر الذهبي كان الفترة الأولى)، والذي بدأ منذ نهاية الخمسينيات وحتى بداية السبعينات.

4- لودفيغ فيتغنشتاين، تحقيقات فلسفية، ترجمة ج. ي. م أنسكومبي (Blackwell: Oxford 1953). جميع الإستهادات في هذا الفصل مصدرها هذا الكتاب.

5- المرجع الأخير، الملاحظة 65.

6- المرجع الأخير، الملاحظة 69.

7- المرجع الأخير، الملاحظة 80.

8- المرجع الأخير.

9- أود شكر كل من روث تالمان وكلايس فيرغسون لتعليقاتهم المفيدة.

كيف هو الحال عندما تكون باتمان؟

بقلم: رون نوفي

«لقد حظيت بيوم سيء في وقت ما، هل أنا محق؟ أعلم أنني كذلك. أستطيع القول بأنك قد حظيت بيوم سيء، ومن ذلك الحين تغير كل شيء. فما الذي يمكن أن يدفعك لارتداء ملابس جرد طائر».

- الجوكر، The Killing Joke 1988

”لن أستطيع قتلك يوماً. أين ستكون المتعة بغياب نقيضي المستقيم؟“.

-الجوكر Batman#663 (فبراير 2007)

الرد على هاتف الوطواط

تخيل نفسك تفعل ما يفعله باتمان. هل ستجعلك تجربة الأمر تعرف كيف هو شعور أن تكون باتمان؟ فمثل الكثير من الأطفال مع دافعهم للقفز من الأثاث والعدو خلال مداخل المنزل، كان الأمر قد استغرق مني منشفة

حمام معلقة حول رقبتى فقط لأصبح باتمان. وكنت انزلق عبر أرضية المطبخ المشمعة ببجامتي، وكنت أصنع موسيقي التصويرية الخاصة منشداً: «ناه - نانا - ناه - ناه - نانا» وهي موسيقى من برنامج تلفزيوني في الستينيات. في ذلك الوقت، لم يكن لدي أي شك في أن هذه كانت تجربة باتمان كاملة. لكن وكما اتضح لاحقاً، فقد كنت مخطئاً.

في الواقع، إذا ما تمكنت أنت أو أي شخص آخر غير باتمان من معرفة ما يعنيه أن تكون «باتمان»، فستحتاج إلى تلبية شرطين على الأقل: أولاً، يجب أن تتضرر جسدياً ونفسياً بشكل فائق كما حصل لباتمان؛ وثانياً، يجب أن تكون لديك نفس التجارب والعلاقات مع العالم مثل باتمان. وكما سنرى، فإن الشخص الوحيد الذي يقترب من استيفاء هذه الشروط هو الجوكر، وحتى هو لم يكن يعرف حقيقة كيف يكون الشخص باتمان.

كيف هو الحال عندما لا تكون كباتمان

يشير مصطلح الظاهرة إلى التماثل الذاتي للأشياء المادية في تجربتك الواعية الخاصة. لذلك، وأثناء قراءة هذه الجملة، تسجل حواسك مجموعة متنوعة من المنبهات: كالعلامات الداكنة على منطقة مضيئة، أو وزن وتركيب معين في يديك، وربما أيضاً رائحة القهوة الطازجة وصوت المطر على النافذة. في حين أنه يمكن قياس وزن الكتاب أو أثر القهوة العربية في الهواء بشكل موضوعي، فإن تجربتك لهذه الظواهر تكون ذاتية، شيء لا يمكنك الوصول إليه إلا من خلالك أنت.

والآن، فإن التصرف كباتمان يختلف تماماً عن معرفة ما يعنيه أن تكون باتمان. ففي أحسن الأحوال، يمكن للمرء أن «يفعل ما يفعله باتمان» - أن يجلس في سكينه في كهف الوطواط، ويبدى إعجابه بجسد كاتومان المثير،

أو يلاحق بعض أتباع الجوكر في زقاق مظلم ما. وبقدر ما تعكس أفعالك ما يفعله باتمان، فمع القليل من الممارسة، سيمكنك التصرف بشكل يشابه جداً كيفية تصرف باتمان - ولكن هذا لا يشابه معرفة ما يعني لباتمان أن يكون باتمان. وحتى لو وصل الأمر لأن تضعك دورياتك الليلية التي تجربها مع مجموعة من أصدقائك وأنتم تتردون ملابس مقاربة لما يلبسه باتمان على الصفحات الأولى من الجرائد الرسمية لغوثام.

ومع ذلك، فإن تجاربك الاستثنائية هي ملكك أنت فقط، حتى تلك التي تحدث وأنت تتخيل نفسك باتمان وتؤدي «أعمال باتمان». ولتعرف حقيقة تجربة باتمان في مثل هذه الأحداث - أي معرفة ما يعنيه أن تكون باتمان - ستحتاج إلى معرفة خبرات باتمان الذاتية والمعرفة التي يبدو بأن باتمان لوحده (على ما يبدو) من يستطيع الوصول إليها.

أننا نجد أنفسنا جميعاً محدودين معرفياً بنفس هذه الطريقة فيما يتعلق بالتجارب الشخصية للكائنات الواعية الأخرى. لذا، ولتوضيح مسألة قد أصبحت مملة الآن، فعندما يُزعم بأنه لن يمكننا أن نفهم منظور شخص آخر لشيء ما حتى «نقطع ميلاً في حذائه» (أي أن نتجسّد في شخصيته ونتلبّس بها «الترجم»)، فهذا لا يعني أننا نستطيع أن نعرف ماهية الشعور بهذه التجربة في الواقع بنفس الطريقة التي يشعرها ذلك الشخص الآخر، بل يمكننا فقط تخيل ما قد تكون عليه هذه التجربة بالنسبة له. ومع ذلك، يمكن أن يؤدي ذلك في كثير من الأحيان إلى تحقيق الفهم المرغوب فيه، وليس لأننا قد اخترنا بالفعل كيف يكون الأمر عندما نكون ذلك الشخص، بل لأننا مخلوقات صاحبة خيال وعطوفة. حيث بإمكاننا أن نفهم بعضنا الآخر لأن الناس متشابهون بطرق عديدة: فنحن نشترك في خبرات وأعضاء جسمانية متشابهة، وما إلى ذلك.

وبهذه الطريقة، وعلى الرغم من أننا لم نتقابل أبداً، فلديك فرصة معقولة

للحصول على تجربة استثنائية شبيهة بتجربتي عندما، وعلى سبيل المثال، أصيب إبهامي بمطرقة. وأقول «معقولة» ليس لمجرد أنك قد اختبرت أو كنت تتخيل تجربة مثل هذا الشيء، ولكن لأننا نتشارك في ذلك النوع من الخلفية الفسيولوجية والنفسية والاجتماعية التي تخلق في مخيلتنا ألم ضربة مثل هذه، تلك الصرخة المدوية التي ترافقها، وبعض الإحراج الطفيف جراء ضربك لنفسك بالخطأ. يمكنك أن تتوقع بشكل معقول أني قد أمسك اليد المصابة بقوة وأطلق بعض الكلمات البذيئة، ومرة أخرى ليس لأنك كنت قد آذيت نفسك بنفس الطريقة بالضرورة، ولكن لأن لديك تجارب أخرى مماثلة بما فيه الكفاية لتخيل ردة فعلي في هذا الحادث.

هذا كله يبدو منطقياً إلى أن تكتشف أنك لا تشبهني بطريقة معينة: ربما يفتقر إبهامك إلى متحسسات الألم - وهي الخلايا العصبية الحسية التي تترجم المنبهات على شكل إشارات كهربائية وترسل هذه المعلومات إلى الجهاز العصبي المركزي - بينما لا يفتقر إبهامي لها. وبدون قدرة مشتركة على الشعور بالألم، فلن يكون لديك أي أسباب لإدعاء أنك تملك فكرة جيدة عما أشعر به جراء تلك الحادثة المفترضة، وحتى لو كنت قد تعلمت أن تحاكي ردود فعلي المتعلقة بالألم مثل القفز صعوداً وهبوطاً في نوبات جنونية، والبكاء، وترديد كلمات نابية.

وباتمان، مثلنا بالضبط، هو رجل عادي، بلا قوى خارقة: حيث لا يملك قوى مهداة من الآلهة الأسطوريين، ولا يملك جسداً فضائياً، ولم يتعرض الى حادث إشعاعي مفيد. ولكن بدلاً من ذلك، فإن جسده يشبه أجسادنا، حيث أن «قوته» هي نتاج تدريب جسدي صارم، وقدرته على تضيق الخناق على المجرمين، وإملاكه لما أطلق عليه الجوكر الذي مثل دوره جاك نيكلسون «تلك الألعاب الرائعة». ومع ذلك، فباتمان ليس مثلنا تماماً.

على حسب علمي، فإن توماس ناغل (مواليد 1937) ليس بطلاً خارقاً، ولم يتم اتهامه أبداً بأنه باتمان، ولكنه فيلسوف مشهور وكاتب مقالة «كيف سيكون الأمر إن أصبحت وطواطاً؟»¹ في هذه المقالة، يجادل ناغل بأنه حتى الاعتبار التام للشيء المادي الذي يدعى "الدماغ" سيفشل رغم كل شيء في وصف ما نعينه بكلمة "العقل". ولعل الأهم من ذلك، أن مثل هذا الإختزال لـ "العقل" إلى "الدماغ" لن يكون قادراً على تفسير السمة المركزية للوعي - الشخصية الذاتية لخبرتنا. وكما يقول ناغل: "إن للكائن الحي حالات ذهنية واعية إذا وفقط إذا كان هناك شيء مشابه لأن يكون ذلك الكائن الحي - شيء مشابه لذلك الكائن الحي".²

لاستخدام مثال ناغل، لا يمكننا أنا وأنت معرفة ما يعنيه أن تكون وطواطاً. إن خبرات عائلة الوطاويط Chiroptera في العالم تختلف إختلافاً كبيراً عنا نحن نوع الإنسان العاقل Homo Sapiens: فهو ينام متدلياً من سقف الكهف، ويطارد الحشرات بأجنحة جلدية، ويتنقل في مسارات طيران معقدة عن طريق تحديد الموقع بالصدى.³ في حين يمكننا أنا وأنت أن نتخيل كيف سيكون الأمر بالنسبة لنا - عندما يتظاهر البشر بأنهم وطاويط - أن يعلقوا رأساً على عقب أو يأكلون الحشرات وهم يطيطون، إلا أن تجاربنا لن تكون متطابقة مع تجارب الوطاويط أبداً. حيث تعتمد تجربتنا الذاتية، حتى بنفس الظواهر الفيزيائية التي يواجهها الوطاويط، على حواسنا الخاصة وعلى تاريخنا الخاص.

بالنسبة لناغل، فأن هذا العجز عن التقاط الخبرة الذاتية يعطينا بالضرورة جانباً منقوصاً من الوعي. وفي الحين الذي ركز فيه ناغل على مهاجمة الفرضية القائلة بأن التجربة الذاتية والوعي يمكن فهمهما بشكل كامل على أنها "مجرد" حدث مادي للدماغ، فإنه ينبغي التأكيد على أنه بالنسبة لمحدد المواقع

بالصدى، فإن وجوده أو غيابه عند البشر لا يعتبر نقطة حاسمة أو مركزية في نقاشه هذا. إن تركيز ناغل على قدرة الوطواط على تحديد موقع الأشياء بواسطة الصدى، وهو "حاسة" عادية بالنسبة إلى الوطواط ولكنه غريب تماماً بالنسبة لنا، يجعل عجزنا عن "معرفة ما يعنيه أن يكون المرء وطواطاً" واضحاً تماماً. ومع ذلك، فما لم نكن مستعدين للاعتراف بأن أي إنسان عاقل بإمكانه معرفة ما يعنيه أن يكون إنساناً عاقلاً آخر، فيجب أن يكون هناك شيء ما إلى جانب الاختلاف في نوع الأجسام كامن وراء هذه القضية. ومن المؤكد بأن الافتقار إلى الخبرة المشتركة، لا إلى الأجساد المتشابهة، هو المطلوب في هذه المسألة.

لنفترض بأن باربارا غوردون، المعروفة أيضاً باسم أوراكل، وهي قرصانة حاسوبية والعقل اللامع وراء Birds of Prey (ناهيك عن كونها باتغريل "المرأة الوطواط" سابقاً)، لم تبدأ حياتها المهنية كأمنية مكتبة ومحاربة للجريمة، ولكن كعالمة تدرس الفسلجة العصبية للرؤية.⁴ حيث إنها تعرف كل ما يمكن معرفته عن العمليات الفيزيائية التي تتسبب في الإبصار، بدءاً من فيزياء الفوتونات إلى الطول الموجي المرتبط بمصطلح "المارون"، ومن تشريح الشبكية إلى العمليات الكيميائية المعينة التي تشارك في نقل المعلومات البصرية إلى الدماغ. ولسبب غريب، فقد أمضت باربرا حياتها كلها في غرفة خالية تماماً من الألوان، وقد عاشت العالم الموجود خارج غرفتها فقط من خلال جهاز تلفزيون أبيض وأسود. لذلك، في حين أن باربرا تمتلك أعضاء بصرية متكاملة من القرنية إلى الفص القذالي، إلا أنها لم تشهد أبداً حقلاً من الإقحوانات الصفراء أو البرتقال في محلات البقالة أو المنقذين ذوي الأجسام البرونزية على ساحل المحيط.

والآن افترض أنه وبينما هي نائمة، قمت بوضع طماطم لامعة ناضجة على منضدة باربارا. وحتى مع معرفتها الكاملة بالعمليات الفيزيائية اللازمة

للرؤية، فعندما ترى الطماطم في الصباح، هل يجب أن نتوقع بأن تكون تجربتها "للحمرة" مشابهة للتجربة الخاصة بك أو بي؟ ذلك لا يبدو محتملاً بالنظر إلى عدد المرات الذي لا يحصى من الأماكن، والأزمان، وألوان "الاحمرار" التي مررنا بها أنا وأنت في الماضي مقارنة بتجربتها الوحيدة هذه. إذا كان هذا هو الاختلاف بين تجربة باربارا غوردون للاحمرار وتجربتنا نحن، فيبدو من المعقول أن نتوقع بأنك إذا كنت تعرف ما يعنيه أن تكون باتمان، سيتطلب منك ذلك أن تكون لديك تجارب تكوينية مشابهة لتجاربه. وبالنظر إلى أن باتمان والجوكر قد تحولوا إلى الكائنات التي هم عليها الآن نظراً للظروف النادرة والمرعبة المتشابهة التي مروا بها، وبالنظر إلى أن كلاّ منهم حاول فهم العالم من خلال هذه العدسة المشتركة المشوهة، فأنا أظن بأنه إذا كان هناك أي شخص غير باتمان يمكنه أن يعرف كيف هو الأمر في أن يكون باتمان، فإن ذلك الشخص سيكون الجوكر.

الحرية والصراع

«عند كل فرصة، تظهر الحقيقة للعلن، حقيقة الحياة والموت، لعزلي وربطي مع العالم... لتفاهة وأهمية سيادة كل رجل وجميع الرجال... لنحاول تقدير الغموض الجوهرى الذي يحيطنا. يجب علينا أن نستمد قوتنا للإستمرار بالحياة ودافعنا للإستمرار بالعمل من معرفتنا للظروف الحقيقية لحياتنا».

- سيمون دي بوفوار⁵

والآن لنخرج عن موضوع نقاشنا قليلاً، ونتحول من مناقشة الظواهر والوعي إلى مناقشة وضع الحرية والهوية، ولكن لسبب وجيه جداً. فتماً مثلما تختبر أنت وباربارا غوردون المحرومة من رؤية لون احمرار الطماطم

بشكل مختلف على الرغم من أن كليهما تمتلكان القدرة على رؤية اللون الأحمر، فإن باتمان والجوكر يجدان حياتهما مبنية على أسس متشابهة، وهو الأمر الذي نتج عن روايات مختلفة جداً أوصلت كل رجل إلى مكانه الحالي في الحياة.

إن كل من هوية باتمان والجوكر الذاتية ومعهما تصوراتهم عن الواجب والحق ترتكز بقوة على الحرية الظرفية، وهو مفهوم طورته سيمون دي بوفوار (1908 - 1986).⁶ حيث تشير الحرية الظرفية إلى فكرة أن قدرتنا على التصرف وفهم العالم رهينة دومًا بتجربتنا الحية للعالم. وبعبارة أخرى، فإن هناك ظروفًا موضوعية نعيشها، وتوفر هذه الظروف بعض الخيارات أمامنا في الوقت الذي تغلق فيه خيارات أخرى. وهكذا، وبينما من المحتمل أن يعيش باتمان في عهد إنسان نياندرتال في كهف الوطواط، فإنه لن يعرف ركوب الباتمويل ولن يفهم أي شيء عن الجوكر سوى حاجته لضربه. وبالمثل، فمن الصعب تخيل باتغريل من عصر الملكة إليزابيث يمكن أن تظهر علانية بدون مشد للخصر وتنورة من ذلك العصر، أو تتاح لها الفرصة لتطوير مهارات قتالية كالتي لباربرا غوردون أو كاساندرا كاين.

ويعني جزء "الحرية" من مفهوم الحرية الظرفية بأن الفرد في وضع يسمح له باستمرار بالقيام بخيارات مجدية تتلاعب بالعالم حوله، وهي خيارات ستحفّز بدورها ظهور خيارات أخرى في وقت لاحق. وبالنظر إلى أننا كائنات اجتماعية بمستقبل مفتوح بهذه الطريقة، فإن الخيار المتخذ من قبل شخص ما قد يغير من الخيارات المتاحة لشخص آخر. لذا فإن أصغر قراراتنا حتى تحمل معها بعض المسؤوليات الأخلاقية.

وعلى سبيل المثال، فإن قرارك في الانضمام كأحد أتباع البطريق سيعمل على توسيع فرصك المستقبلية من جانب وتقييدها من جانب آخر في الوقت ذاته. حيث ستلتقي بأشخاص وتزور أماكن لم يكن من

المحتمل أن تصلها لولا خيارك هذا، بينما ستضحى في الوقت ذاته بكل فرصك للانضمام إلى أكاديمية الشرطة. كما أنه سيظهر تأثير قرارك هذا على عائلتك: فالثروة والقوة التي ستأتي مع كونك تابعاً للطريق قد تدفع طفلك للانضمام إلى أكاديمية بريتنوود Brentwood مع تيم درايك Tim Drake وسليبي عوائل عريقة أخرى في غوثام. وبالمثل، فقد لا يتمكن أحد أصحاب المتاجر المديني للسيد كوبل بوت من العزف ثانية على الكمان بسبب عنفك ووحشتك التي ستقود لتحطيم أصابع يديه.

إن القول بأن هذه الحرية هي ”ظرفية“ هو اعتراف بأننا جميعاً قد ولدنا بالفعل في عالم مليء بالمباني والأيدولوجيات والقصائد والتجارة وأخصائيي صحة الأسنان والأساطير والبكتيريا والقبعات. حيث لم يبدأ العالم من جديد مع ولادتنا، بل هو منتج مستقل ومعقد من الماضي يجب أن نتعلم كيفية التنقل خلاله. وعلى هذا النحو، فهناك حقائق حول وجودنا نحن لا نملك سوى القليل من السيطرة عليها أو لا نملك سيطرة عليها مطلقاً، بدءاً من جنسنا الذي ولدنا فيه وضعف بصرنا وحساسيتنا للفراولة وصولاً إلى متى وأين ولمن ولدنا. إن من الواضح على الأقل بأن بعض هذه الحالات الطارئة يمكن أن تؤثر على الخيارات المستقبلية المتاحة لنا.

إن إدراك ظرفية الحرية هو إقرار أيضاً بأن المستقبل لم يُكتب بعد، وكذلك بأننا نترنح على حافات العنف. وبينما نشاطر جميعنا الرغبة في أن نعيش حياة إنسانية قدر الإمكان، فإن القرارات التي يتخذها الأشخاص المرتكزون على ظروف مختلفة لن تؤدي بالضرورة إلى فتح أو غلق الخيارات المستقبلية نفسها. وبما أنه لا يمكن أن تتحقق جميع الاحتمالات المستقبلية في وقت واحد، فإننا سنتعارض حتماً مع بعضنا البعض. وبالتالي فإن العنف هو وجود دائم يترصد بحافات الحرية الإنسانية.

«كل ما يحتاجه الأمر هو يوم سيء واحد ليصل أعقل إنسان الى حافة الجنون. . . لقد مررت بيوم سيء، وقد قادك لتكون مجنوناً كأى شخص آخر هنا، أنت فقط لا تعترف بذلك!

عليك أن تستمر بالإدعاء بأن للحياة معنى، وبأن هنالك قصد خلف كل هذه المعاناة!

يا إلهي، إنك تشعرني بالقرف».

– الجوكر The Killing Joke

لقد ولد كل من باتمان والجوكر بسبب العنف، حيث أن كلاهما هو نتاج تحول شخص عادي إلى ما هو عليه الآن بعد مروره بـ “يوم سيء واحد”. إن العلاقة الغريبة بينهما هي بسبب الجنون الذي يشترك فيه ملاكان للموت مختلفان بما أختبراه من ظروف ضرورية للحرية الإنسانية.

إن قصة باتمان معروفة، حيث شهد بروس واين وهو طفل قتل والديه بدم بارد من قبل أحد صغار السراق. وعلى الرغم من تعاونهم معه، يفقد السارق أعصابه ويطلق النار على الزوج. وفي تلك اللحظة، لم يخسر بروس والديه فقط، بل وفهمه الوهمي للعالم أيضاً. إذ يدرك فجأة بأن ليس كل الناس محترمين ولا يهتم الجميع بسعادته؛ وبأن بعض المشاكل لا يمكن حلها من خلال ما تملكه من رصيد ضخّم في حساب مصرفي؛ وأن الكراهية التي تحملها داخلك والعنف المتفجر يمكن أن يحرّرك؛ وأن العالم المضيء لمؤسسة واين مبني على أساس لا تصله الشمس حيث المعاناة والعوز موجودان فيه.

أمّا “اليوم السيء الواحد” للجوكر فهو معروف بشكل أقل: حيث يفشل مهندس كيميائي غير مرموق بتحقيق حلمه بأن يصبح ستاند أب كوميدى. ويفقد زوجته الحامل في حادث سيء الحظ، ليضطر إلى الإشتراك

بسرقة فاشلة من صاحب عمله السابق، ثم يسقط داخل حاوية للمواد الكيميائية السامة أثناء فراره من الشرطة.⁷ هنا كان الجوكر قد خرج مُعمّداً: بشعر أخضر، وجلد شاحب، مصاباً بالجنون. وبملاحظة الشبه مع تجربة باتمان في الإنهيار والبعث من جديد، فأن الجوكر مذهول من التزام باتمان بمحاربة الفوضى:

”عندما رأيت ان العالم ليس سوى مزحة سوداوية مريعة، اصبحت لحظتها بالجنون! أنا أعترف بذلك! لماذا لم تستطع أنت؟ أعني، إنك لست بالشخص الغبي! يجب أن ترى حقيقة الوضع... كل شيء هو مزحة! كل ما يثمنه أو يكافح من أجله أي شخص هو مجرد هراء بشع! فلماذا لا ترى الجانب المضحك؟ لماذا لا تضحك؟“⁸.

بالنسبة لكل من باتمان والجوكر، اسقط العنف الصورة المتناسكة للعالم دون توفير بديل؛ إنها يتشاركان هذا الإدراك ويرتبطان ببعضهم البعض في محاولة لفهمه. ومثل غاصبي معبد اليهود أو زائري أوز، فكل منهم كان قد ألقى نظرة خلف ستار المظاهر، أي إلى ما هو أبعد من العالم الظاهر ”المجرد“. إن إدراك أن ما نسميه ”العالم“ هو مجرد مظهر أنشأته عقولنا من خلال البيانات الحسية المتلقاة، وهذا هو أيضاً اعتراف بأن هناك عالماً ”خارجياً“ لم تصله أنظارنا أو نلمسه. هذا العالم الآخر الذي يقبع خلف المظاهر - والذي يطلق عليه إيمانويل كانط (1724 - 1804) اسم العالم القائم في ذاته (العالم النوميئالي) noumenal world - هو عالم مرعب.⁹ وهو بمثابة المحرك الذي تبنى عليه معرفتنا. ومع ذلك، لا يمكننا أن نعرف إلا القليل عنه بصرف النظر عما يمكن استنتاجه من تلك المظاهر الوهمية.

إن هذه التجربة في التحرر من الوهم والحصول على هذه المعرفة السرية تربط بين باتمان والجوكر، على الرغم من أن كلاهما غير متأكد تماماً مما تم الكشف عنه حول ”حقيقة“ العالم. وبالرغم من أن لديهما آمالاً مختلفة بشأن

طبيعة هذا العالم وراء المظاهر، فإنهم يمتلكون فقط بعضهم البعض للتعبير عن الإدراك المرعب بأن هذا العالم، عالمنا من رجال الشرطة واللصوص - صافرات الإنذار والمقابر، غير موجود بالنسبة لهما.

وحتى مع الاعتراف بأن هذا العالم الظاهري هو احد تلك المظاهر، فإن باتمان والجوكر، على الأقل بالنسبة لهما شخصياً، يتصرفان فيما لو كان هذا العالم مهماً. لقد أنهى باتمان الكثير من سلاسل قصصه وهو يعيد الجوكر الى مصحة أركام، وهو أمر قد لا يتوقعه المرء بالنظر إلى عدد الجرائم التي ارتكبتها الجوكر والفرص العديدة التي قدمها باتمان لمدينة غوثام لتوفير "حل أكثر ديمومة" لعلاج مشكلة الجوكر.¹⁰ ومع كشفه للسيد زاسز، وهو مغتصب وقاتل متسلسل والذي يحتفظ بذكرى كل عملية قتل بوضع علامة على جسده، فإن باتمان يحتاج إلى مواصلة علاقته مع من يحاربهم. ومن خلال صراعه معهم يكتسب إدراكاً بأن هناك شيء منفصل عن العالم الظاهر: "هل تريد أن تعرف ما هي السلطة؟ السلطة الحقيقية؟ إنها ليست بالقدرة على إنهاء حياة، وإنما بإنقاذها. إنها في البحث في عيني شخص ما ورؤية شرارة إدراك وفي تلك اللحظة يدركون شيئاً لن ينسوه أبداً".¹¹

يعترف الجوكر أيضاً بهذه العلاقة المتبادلة مع باتمان، العلاقة التي من دونها، سيتوقف كلاهما عن أن يكونا ما هما عليه. وكما يشرح ذلك لباتمان: "لا يمكنك قتلي دون أن تصبح مثلي. ولا أستطيع أن أقتلك دون أن أفقد الشخص الوحيد الذي يستطيع مواكبتني. ألا ترى بأن هذا مثير للسخرية؟!"¹² بالنسبة للجوكر، خلف الواجهة التي ذابت في خزان السموم الكيميائية، فلا توجد إلا الفوضى. وفي حين أن الفوضى ليس لها معنى بالمعنى الحرفي للكلمة، إلا أن الفوضى هنا محررة بالكامل، ففي الفوضى، لا خوف يكبح جماحك ولا شروط قد تحد من خياراتك. ووفقاً لمعالجته في مصحة أركام، فإن الجوكر "يخلق نفسه كل يوم. إنه يرى نفسه سيداً للفوضى والعالم مسرحاً للسخرية".

¹³ أمّا بالنسبة لباتمان، فهذا العالم الواقع خلف المظاهر هو عالم منظّم، وإن لم يكن منظماً بالطريقة التي يمكنك قراءتها في كتاب فيزياء مبسط. بل هو نظام أخلاقي علينا أن نصارع ونكافح من أجل إيجاده وإقامته من خلال الاعتراف بتأثير خياراتنا وقراراتنا على مستقبل الآخرين المشترك.

كيف يبدو الأمر حين تكون خارجاً من المصححة

ومع ذلك، وبالرغم من جميع الأحداث المشتركة، الجنون، والفوضى، والمآسي، والانتصارات التي حظي بها كل من باتمان والجوكر، إلا أنهما لم ولن يستطيعا معرفة ما يعنيه أن يكون أحدهما مكان الآخر. إن تجربة باتمان الظاهرية وحرите الظرفية هي ملكه الخاص بالكامل؛ وبالمثل فإن تجربة الجوكر الظاهرية وحرите الظرفية هي ملكه بالكامل أيضاً؛ وكل واحد منهما ليس بقادر على تجربة العالم بأي طريقة أخرى. ومع ذلك، فإن كل من باتمان والجوكر ملتزمان بالمهمة العبيثة رغم جديتها والمتمثلة برؤية العالم كما هو حقاً. يبدو أن كلاهما يدرك بأن هذا يتطلب نوعاً من الاختبار، وبالتالي مشاركة الآخر، رغم عجز الآخر التام عن تجربة العالم بنفس الطريقة.

ومع أخذ ذلك في الاعتبار، ضع في اعتبارك النكتة التي يرويها الجوكر لباتمان في نهاية The Killing Joke بينما ينتظرون وصول الشرطة. يقرر نزيلين أنه يجب عليهما الهروب من مصححة المجانين معاً. ثم يتدافعون صعوداً إلى سطح المصححة وينظرون إلى العالم المتسع أمامهم تحت ضوء القمر. قفزة واحدة فقط فوق حافة سطح المبنى المجاور للمصححة ويصبحون أحراراً من المصححة منطلقين نحو ذلك العالم. يقفز الأول عبره ثم يلتفت ليرى شريكه مجمداً على الجانب البعيد الآخر. وكما يقولها الجوكر: "صديقه لم يجرؤ على القفز. فكما ترى هو يخشى السقوط". يقف السجناء هناك، الحرية تنتظر في جميع الاتجاهات فقط لو أن الرجل الثاني قفز فوق ما يراه صديقه فجوة

صغيرة، ولكنه ينظر إليه على أنه هاوية قاتلة. يقترح الرجل الأول حلاً:
يقول الرجل الأول: ”هيا! أنا أملك مصباحاً يدوياً معي. سأقوم بإضاءة
الفجوة بين المبنيين، يمكنك تتبع الضوء للحاق بي.“
لكن الرجل الثاني يهز رأسه قائلاً: ”هل تظن بأنني مجنون؟ ستقوم
بإطفائه حال وصولي لمنتصف الطريق.“

وعندما يبدأ المطر بالإنهيار وتظهر أضواء الشرطة من على مسافة مرئية،
يضحك كل من الجوكر وباتمان. ثم يتضاعف ضحكهم المكبوت ليتحول إلى
قهقهة عالية، لتغلب عليهما لا منطقية سرهما المشترك. الأول غير قادر على
معرفة كيف هو الأمر حين تكون باتمان. والثاني غير قادر على معرفة كيف
هو الأمر حين تكون الجوكر.

1- توماس ناغل، "ما معنى أن تكون وطواطاً؟" مقابلة فلسفية 83 العدد 4 (أكتوبر 1974) الصفحات 435-450. تم نسخ المقالة منذ نشرها في العديد من المختارات المعنية بفلسفة العقل، مثل "العقل الأول: الأوهام والتأملات في النفس والروح" تحرير دوغلاس ر. هوفستادر ودانيال دينت (1981 Basic Books: New York).

2- ناغل "ما معنى أن تكون"، الصفحة 436.

3- لا يحدد ناغل أي تفاصيل حول وطواطه أكثر من القدرة على تحديد الموقع باستخدام صدى الأصوات. لكن الجوكر، بعد عثوره على كهف الوطواط، أستخدم الكمبيوتر الموجود هناك لتحديد تصنف باتمان بين عائلة الخفافيش. مقررأ أن "من الواضح أنه من عائلة ذوات وجه الشبح"، ولم يتمكن الجوكر من كبح نوبات الضحك خاصته على أسماء أجناس الخفافيش. (رواية الجحيم لآليكس إيرفن [New York: Del Rey Books 2006]، الصفحة 73).

4- يعتبر هذا السيناريو تبايناً في تجربة فكرية تمت مناقشتها كثيراً طورها الفيلسوف فرانك جاكسون في مجلة Philosophical Quarterly 32 العدد 127 (1982): الصفحات 127-132؛ و"ما لم تعلمه ماري؟" في مجلة الفلسفة 83 العدد 5 (1986): الصفحات 291-295.

5- سيمون دي بوفوار، أخلاقيات الغموض، ترجمة بيرنارد فريتشمان، (Secaucus: Citadel Press 1948).

6- أنظر الجنس الآخر لسيمون دي بوفوار، ترجمة هـ.م. بارشلي (1949 repr.; New York: Penguin 1972)، للإطلاع على معالجة بوفوار الكاملة لـ "الحرية الوضعية".

7- هذه النسخة من أصل الجوكر - حيث هنالك الكثير - تظهر كذكرى في The Killing Joke (1988).

8- المرجع السابق.

9- مصطلحات "phenomena" و "noumena" هي مصطلحات فنية أستخدمها

- إيمانويل كانط في كتابه "نقد العقل المحض" 1781، ترجمة نورمان كيب سميث (New York: St. Martin ' s Press 1929)، الصفحة 9.
- 10- راجع مقالة مارك د. وايت في هذا الكتاب للمزيد عن لماذا لم ينهي باتمان حياة الجوكر.
- 11- "ندوب" في قصة Batman: Black and White المجلد الثاني (1996).
- 12- سلسلة Batman العدد #663.
- 13- قصة Arkham Asylum (1989).

أن تكون الوطواط: تأملات من الوجودية والطاوية

14

آلفريد، فارس ظلام الإيمان: باتمان وكيركغارد

بقلم: كريستوفر م. درويان

القديس

آلفريد بينيورث رجل بشخصية استثنائية. وبصفته خادماً للشهير بروس واين، فهو يدير بمفرده جميع شؤون بروس الداخلية. هو كذلك المؤتمن على أسرار بروس واين، وربما يقترب من مكانة الأب بالنسبة له. ومنذ أن رأى الطفل بروس والديه مقتولين أمام عينيه، كان آلفريد موجوداً هناك لرعايته. وكان آلفريد هو الشاهد الوحيد على الكوابيس المروعة التي تطارد بروس واين، وعلى شخصية باتمان التي ولدت من خلالها.

وبناءً على ذلك، يحمل آلفريد مجموعة أخرى من الواجبات توازي

عمله كمدير للمنزل. فعلى مستوى مختلف جداً، علينا أن ننظر في الدور الذي يلعبه ألفريد مع علمه بأن بروس واين هو أيضاً باتمان، لأن ألفريد هو الذي يعدّل زيه، وهو من يجلس خلف شبكاته المعلوماتية، وهو من يجهز أدوات باتمان العديدة قبل كل مرة يخرج فيها لقتال أعدائه. وعندما يكون «باتمان» في الميدان، فهو من ينتظر طوال الليل لأجله، ويراقب بصبر كاميرات وأجهزة الكمبيوتر الخاصة بباتمان، حيث أنه مستعد لمساعدته بأي طريقة ممكنة. وعلاوة على ذلك، يقوم ألفريد شخصياً بحراسة أمن كهف الوطواط والقصر الموجود فوقه، ولو عنى ذلك أن يصارع المتطفلين ويطرّحهم أرضاً.¹

يقوم ألفريد بمهامه بنشاط جسدي وروحي مذهلين. إن إخلاصه لواين يكشف عن إيمانه بواجب أعلى، وهو التزام أخلاقي بخدمة شخص آخر بتكريس أفضل قدراته من أجله. إن ذلك الأمر يغذي روحه؛ فبعد كل شيء، كيف يمكن أن يحقق الكثير في وقت قصير، متجاهلاً صحته، وأمنه، وتحقيقه لمكاسب شخصية؟ كان ألفريد على استعداد لفقدان عقله، وحتى الموت من أجل باتمان.² حيث يقول في مرة بأنه قد تم اختطافه سبع وعشرون مرة أثناء فترة خدمته! وبعدم كسب ألفريد لأي قدر من شهرة بروس واين أو باتمان، فهو لا يفعل ذلك من أجل الشهرة بالتأكيد. بالأحرى، فإن تواضعه هو شيء مذهش بالنسبة لنا، فعلى الرغم من أن ألفريد يعرف بالتأكيد الدور الحيوي الذي يلعبه في مهمات باتمان، إلا أنه لا يبحث عن الثناء. وبدلاً من ذلك، فهو يبقى متواضعاً لدرجة أنه في نفس اليوم الذي قام فيه بتغيير إطارات الباتمويل، ونظم الأمن في نظام قصر واين، وتطوير حزام أدوات باتمان، قام بتنظيف المراحيض بسعادة بعدها، كما لو لم يكن هناك فرق بين تلك المهام.⁴

خلال كل ذلك، أظهر ألفريد مستوى نادراً من الالتزام والإيمان الذي

يذكرنا بالأبطال الأسطوريين: الفرسان الطوافين، أو الشهداء المجاهدين، أو حتى القديسين. ومع ذلك، لا يوجد ما هو وهمي أو مثالي حول مهمته، ولا نفكر به أبداً ولا نرى فيه أبداً تابعا ساذجا لطائفة الوطواط. فآلفريد شديد الثقة بنفسه ليكون هذا النوع من الرجال. في الحقيقة، هو يقضي معظم وقته في توبيخ بروس بسبب تهوره، مبيّناً أن اهتمامه الوحيد هو رفاهية سيده. وفي حين أن آلفريد قلق بشكل واضح من أساليب باتمان، إلا أن إخلاصه له يكشف عن أنه يؤمن في نهاية المطاف بقناعة باتمان بأن العدالة يمكن أن تتحقق بشكل عملي، وأن السلام يمكن أن يعم غوثام يوماً ما.

في هذا الفصل، سيساعدنا الفيلسوف واللاهوتي الدانماركي العظيم سورين كيركغارد (1813 - 1855) في فهم ولاء آلفريد لباتمان. وسنركز على وجه الخصوص على عمل كيركغارد "الخوف والرعشة"، والذي يقارن فيه بين أمرين أخلاقيين مختلفين تماماً. فمن ناحية، هناك أشخاص مثل باتمان، والذين يناصرون العدالة المطلقة كمثلهم الأخلاقي، بينما من جهة أخرى، هناك أشخاص مثل آلفريد، والذين يناصرون الحب الشخصي، والتفاني، والإخلاص كمثلهم الأخلاقي الأعلى. وعلى الرغم من أن النوعين من الأخلاقيين نبيلان بطريقتهما الخاصة، إلا أننا في النهاية سنرى أن عدالة آلفريد أعلى، لأنه، وكما يشير كيركغارد: "إن الإيمان معجزة، ومع ذلك فلا يستثنى أي إنسان منه؛ ولذلك فإن ما يوحد كل الحياة البشرية هو الشغف، والإيمان هو شغف".⁵ وفي حين أن البشرية قد لا تدرك أبداً العدالة المطلقة، إلا أننا جميعاً قادرون على أن نكون مخلصين لبعضنا البعض. وعليه، فإن آلفريد، مثله مثل كيركغارد قبله، يدرك أن السلام يبدأ على أساس فردي وأن العدالة لن تسود إلا عندما نتعامل مع بعضنا البعض باحترام.

العدالة: القانون والنزاهة مقابل الحب والإخلاص

بالنسبة لباتمان، فالعدالة هي أولاً وقبل كل شيء سياسية اجتماعية. حيث يتم توفير العدالة عندما تكون الحياة والحرية محميتين، وتحديدًا من خلال القوانين والمؤسسات القانونية التي تأسست باسم العدالة. وتحدد هذه الهياكل حدودًا واضحة لسلوك الناس وتوقفهم إذا تجاوزوا هذه الحدود. وبناءً على ذلك، يعمل باتمان يدًا بيد مع الشرطة ونظام العدالة، وحماة القانون ونظام المحلفين، لأنهم في نهاية المطاف هم المسؤولون عن الدفاع عن عدالته. ومع ذلك، فإن باتمان هو أول من سيخرق القانون إذا رأى بأنه غير عادل، وأول من سيعمل ضد الشرطة إذا تجاوزت حدود أي من القوانين أو العدالة التي تحميها. يدرك باتمان بأن العدالة شيء شديد الصعوبة بحيث لا يمكن لأي نظام قانوني أن يوفره تمامًا. فهناك دائمًا حالات تتجاوز القوانين المجردة الموضوعية، لحظات تكون فيها القوانين إما متساهلة جدًا أو ضيقة جدًا. فعلى سبيل المثال، قد يجادل قليل من الناس بأن سرقة الطعام لإطعام عائلة تتضور جوعًا أو تجاوز إشارة المرور هو أمر لا يستحق الشجب من الناحية الأخلاقية. ومع ذلك فهي غير قانونية، وخاضعة للمحاسبة القانونية الكاملة.

وبالنظر إلى أن القانون يستمد قوته من العدالة، فإن التزام باتمان الأخلاقي ينتمي في المقام الأول إلى تلك العدالة ذاتها. حيث يعرف باتمان (مثل أي محلف أو قاض أو ضابط شرطة) أن كل جريمة تنطوي على متغيرات لا يمكن تفسيرها من خلال قوانيننا المجردة، وأنه يجب تفسير القانون من أجل الحفاظ على تفويضه العادل. وعندما يفشل القانون في توفير العدالة، كما هو الحال في بعض الأحيان، يضطر باتمان إلى تجاوزه من أجل استعادة التوازن بين العدالة والقانون والجريمة والعقاب.

ومثل باتمان، يؤمن ألفريد أيضًا بالإنموذج الواقعي وغير التجريدي

من العدالة. بالنسبة إلى ألفريد، فإن العدالة ليست مسألة تتعلق بالبنية الاجتماعية، ولكنها مسألة شخصية تتعلق بمعاملة الناس باحترام ولطف ومحبة. وتعكس تصرفات ألفريد اعتقاده الجوهري بأن الناس مسؤولون عن بعضهم البعض، وأن العدالة تعمّ عندما يخدم المرء الآخرين بأفضل ما في قدرته. ولكن ألفريد ينظر أيضاً إلى العدالة كواجب، حيث يفى هو بوعوده، ويعتني بأولئك المسؤولين عنه، ويقدر العمل الذي كان قد اختاره. وهكذا، فعندما وافق ألفريد على خدمة أسرة واين، كان إلزامه ذلك بمثابة قسم دموي، وهو التزام دائم لا يمكن كسره إلا بفصله عن العمل أو بموته. وعلى الرغم من أنه يمكن القول بأن الفرق بين باتمان وألفريد هو الفرق بين العدالة الاجتماعية والعدالة الشخصية، إلا أن هذا من شأنه أن يخطئ الهدف تماماً. ففي حين يبين لنا باتمان العدالة كقانون وسلام ومؤسسات عادلة، فإن ألفريد يُظهر لنا عدالة أكثر رفعة بكثير، وهي العدالة كمحبة وإخلاص. وهذا النوع من العدالة غير منصف بطبيعته، لأنه لا يوجد ضمان على الإطلاق بمبادلة الفعل الطيب. في الواقع، وبالنسبة لألفريد، فنادرًا ما كان هذا غرضه من معاملته. فعلى الرغم من أن بروس واين يعامل ألفريد باحترام شديد، فإنه لم يعامل ألفريد أبداً بذات الطريقة التي كان ألفريد يعامله بها. بل على العكس من ذلك، فقد كان ألفريد متقبلاً بأن حياته ليست سوى وسيلة لخدمة أهداف واين، وأن عدالته كانت خاضعة لمهمة باتمان في فرض النظام الاجتماعي.

عشية كل شيء

وعلى الرغم من هذه المفارقة، يجب على ألفريد أن يعطي نفسه وعدالته لباتمان طوعية حتى يمكن تحقيق عدالته. إن هذا الوضع عبثي تماماً! فكثيراً ما يشعر ألفريد بأن عدالة باتمان هي عدالة مضللة، ولكن لكي يقوم بتعليم

الشاب بروس واين كيفية توجيهها بشكل إيجابي، يجب أن يتبع ألفريد أوامر واين حتى لا يتخلى عنه هذا التلميذ شديد العناد بشكل تام. في الواقع، وعلى الرغم من ذلك، فإن ألفريد مُقاد من واين ظاهرياً فقط. أمّا ضمناً، فإنه لا يمثل البوصلة الأخلاقية لواين فقط، بل ويقوم بحمايته أيضاً، وبتغذيته وتحضير ملابسه ورعايته كما لو كان طفلاً صغيراً.

وعلى الرغم من عبثية هذا الوضع، إلا أن ألفريد لا يزال يحتفظ بإيمانه ببروس، مع العلم أن تعليمه لواين سيكون عملية مستمرة مدى الحياة. وبصفته معلمه، فآلفريد يمتلك حكمة فائقة لا تأتي إلا مع التقدم في السن، ولذا فإن حكمه دائماً ما يكون متقدماً على واين، حيث يوجه متدربه الشاب نحو السلام الداخلي. وبغض النظر عن الطريقة التي يقابل بها بروس محبته ودعّمه له، فإن ألفريد كان يعطيه كل ذلك دون قيد أو شرط، ولم يشك ولو للحظة واحدة بأنه غير قادر على مساعدته على تهذبة شياطينه الداخلية. فالإيمان بالرغم من ضعف الاحتمالات والإيمان وسط اللامعقول، هي الحالة الوجودية لآلفريد.

لقد حاول العديد من الفلاسفة أن يصفوا «وضعنا الوجودي». وكان كيركغارد هو من لاحظ أنه منذ اللحظة التي نولد فيها، ف«الإنسان لا يمثل ذاتاً بعد»: ⁶ إذ أن كل منا يناضل من أجل اكتشاف ماهيته وعلاقته مع العالم حوله. وبناءً على هذه الفكرة، فقد لاحظ هايدغر (1889 - 1976) أن وضعنا الوجودي هو بالتالي مسألة «وجود في العالم»، والتي هي «كما هي عليه». ⁷ وبغض النظر عما إذا كنا نولد في حياة من الامتيازات والرفاهية، أو حياة يهيمن عليها الألم والبؤس، فنحن جميعاً قد تم «إلقاؤنا» إلى العالم ويجب أن نحصل منه على ما نستطيع. ويشكل هذا «الإلقاء» حالة دائمة من القلق بالنسبة لنا، فنحن نحاول تعريف أنفسنا من بيئتنا ومن كتلة الآخرين المحيطين بنا بوضوح. وهذا هو ما أسماه كيركغارد «المرض حتى الموت»،

وهو مصطلح استعاره من إنجيل يوحنا 11: 4. نحن "نشعر باليأس" من المفارقة السخيفة المتمثلة في محاولة تشكيل هوية فريدة وسط الأماكن والتواريخ التي كانت موجودة قبلنا، ورغماً عن الآراء والهويات التي يفرضها علينا الآخرون.⁸ ومع ذلك، فإن اللحظة التي نُعرف فيها أنفسنا لأجل الآخرين هي اللحظة التي نستسلم فيها لتاريخهم وتقاليدهم، من دون أن نصل أبداً إلى شخصية خاصة بنا. وهكذا فإن، "الفرد المستمر بوجوده هو مستمر بعملية التشكل"، كما يقول كريكغارد.⁹

لقد قام جان بول سارتر (1905-1980) بتفسير هذه الفكرة بإيجابية. فكوننا نولد بدون هوية، يمنحنا حرية الاختيار في أن نصبح مهما كان ما نرغب ومن نريد أن نكونه حيث يقول: "أولاً وقبل كل شيء، يوجد الإنسان، يتحول، ليظهر إلى الصورة، وبعد ذلك فقط، يعرف نفسه. إذا كان الإنسان، كإدراك وجودي لماهيته، غير قابل للتعريف، فذلك لأنه ومنذ البداية لا يمثل شيئاً، ثم فقط بعد ذلك سيصبح شيئاً، وهو نفسه سيصنع ما سيكونه".¹⁰ إن "المرض" أو "اليأس" في الحياة ينشأ من حقيقة أننا جميعاً "محكوم علينا بأن نكون أحراراً".¹ ومع ذلك، فكوننا أحراراً سيجعلنا نتحمل المسؤولية الكاملة لاختيار المسار الأخلاقي الذي سيوجه حياتنا، وهو خيار ينطوي دائماً على درجة معينة من العبثية. فعلى سبيل المثال، من العبث أننا لن نعرف أبداً التأثير الكامل لقراراتنا الأخلاقية، وكم هو كثير أو قليل تأثيرها على الآخرين. ومن العبث أن يتغير وجودنا أثناء خوضنا للحياة، وحيث أننا نواجه باستمرار قرارات أخلاقية جديدة، في الوقت الذي يلاحقنا فيه أولئك الذين صنعناهم في الماضي. ومن العبث أن نموت يوماً ما وتذهب جميع قراراتنا الأخلاقية سدى. ومن العبث أننا نعيش مع الإيمان بأن حياتنا لها معنى، دون أن نعرف ذلك المعنى في نهاية المطاف.

ومثل ألفريد، يتصارع بروس واين مع مأزقه الوجودي العبثي. فبادئ

ذي بدء، تخيل كيف شعر الطفل بروس بينما قتل والداه أمامه من قبل جو شيل. وبينما كان والداه ينزفان حتى الموت عند قدميه، يمكننا أن نتخيل مفهوم الطفل للعالم وهو يتحطم. ومن بعد ذلك، سيعيش حياة يبدو أنها محكومة بالأسى. إننا نتساءل كيف يمكن لشخص تعرض لصدمة نفسية أن يجد في نفسه الدافع لتكريس حياته سعياً لتحقيق العدالة للآخرين، وهي العدالة التي لم يمكنه أبداً أن يحصل عليها لنفسه. حين يقابل شيل أخيراً ويحصل على فرصة لقتله، فإنه يشفق على الرجل بدلاً من ذلك، مدركاً بأن شيل مدمن مثير للشفقة، وبأن حياته بأكملها ملعونة.¹² يجب أن يواجه باتمان حقيقة أن قتل شيل لن يشفيه من ماضيه، ولن يحقق نوع العدالة التي يبحث عنها. وهذا الإدراك يصبح أكثر عبثية عندما يضطر باتمان للتحالف مع شيل من أجل إيقاف الحصاد The Reaper، حيث ومن دون قصد جعل من شيل أداة لنفس العدالة التي يسعى باتمان لها.¹³ وعلاوة على ذلك، فقد تكون والدته شيل، السيدة شيلتون، قد ساعدت حتى في تربية بروس واين، مما يتركنا نتساءل ما إذا كانت رعاية بروس قد تسببت بإهمالها في تربية ابنها، وإذا ما كان ذلك من الممكن أن يكون ما أدى به إلى حياة الجريمة.¹⁴ وبغض النظر عن كل هذه التقلبات، فإن باتمان يسعى نحو العدالة، ويحاول يائساً تحقيق بعض الخير في حياته المأساوية، لكي لا تذهب وفاة والديه عبثاً.

العبثية، السخرية، والإيمان

إن العبثية والسخرية التي يواجهها كل من ألفريد وباتمان، والطريقة التي يستخدمان بها إيمانها الشخصي ومعتقداتها للتغلب عليها (أي العبثية والسخرية)، تذكرنا بالشخصية التوراتية إبراهيم، الذي استخدمه كيركغارد في الماضي كنموذج فلسفي لرجل الإيمان المثالي. فكما تقول القصة، كان

إبراهيم وزوجته سارة يحاولان ولسين طويلة أن ينجبا طفلاً، بحيث يكون وريثاً لاسم العائلة وثروتها. ومع اقترابهم من سن الشيخوخة، بدا من المستحيل أن تحمل سارة طفلاً. ومع ذلك، يخبرنا الكتاب المقدس أنه كمكافأة على تمسكه بعهدته للرب، ولعبادته له وحده، قام بمباركة إبراهيم وسارة أخيراً بابنهما إسحاق.

فبعد سنوات عديدة من المحاولة، كان الزوجان مذهولين من هذه الهدية في الحياة، وأحبا إسحاق حباً جماً. ومع ذلك، ودون علم إبراهيم، كان الرب يخبئ له إختباراً آخر لإيمانه. ففي أحد الأيام أوحى الى إبراهيم قائلاً: «خذ ابنك إسحاق، وحيدك الذي تحبه، واذهب إلى أرض موريا. وأصعده هناك مُحَرَّقَةً على أحد الجبال الذي أقول لك» (التكوين 22: 2). فدهش إبراهيم، لأن الرب كان يطلب منه التضحية بالهبة التي منحها له، ابنه الوحيد، الذي أحبه أكثر من أي شخص آخر على الأرض. وعلى الرغم من عبثية الطلب، فقد خضع إبراهيم لإختبار الرب.

يعلق كيركغارد على هذه اللحظة من حياة إبراهيم قائلاً: «لقد أعتقد بما يملك من إيمان بعبثية هذا الطلب، إذ لم تكن هناك أي مساحة لحسابات بشرية، في الواقع، كانت العبثية التي يطلبها الرب منه هي الاختبار المهم التالي له. ثم تسلق الجبل، وحتى اللحظة التي لمعت فيها السكين... بقي مؤمناً بأن الرب ليس بحاجة الى إسحاق».¹⁵ عندما أخبرنا كيركغارد أنه من خلال "الفضيلة العبثية" التي آمن بها إبراهيم، فإنه يعني أن إبراهيم كان قادراً على الوثوق بالرب لأن ما طُلب منه أن يفعله كان متعذراً على الفهم. حيث إنه لم يجد سبباً لإعطاء الرب مثل هذه المهمة المستحيلة له؛ وبدلاً من أن يشني عن فعل ذلك، فقد جعله ذلك يعتقد بضرورتها أكثر. وبدلاً من التكهن بدوافع الرب، فقد كان إبراهيم يثق بالرب بدلاً من ذلك بكل بساطة، لأن الرب لم يخذله أبداً ولم يخن طاعته العمياء أبداً.

ومثلما سلّم إبراهيم إرادته تماماً للمهمة الرهيبة التي طلبها الرب منه، فباتمان، أيضاً، يؤمن إيماناً مطلقاً بالعبث.¹⁶ كان بإمكان ألم فقدان والديه أن يدمره، لأن "الحزن يمكن أن يشوه عقل الإنسان"، ومع ذلك، ومثل إبراهيم، استطاع إيجاد "قوة الإرادة القادرة على إخضاعه ومنعه من التصرف بما لا تحمد عقباه، فأنقذت عقله وإن بقي يتسم بقليل من الغرابة".¹⁷ من الناحية النفسية، يعاني بروس واين من العصبية والندوب النفسية، على الرغم من أنه يمتص صدمته ويعيد تشكيلها. فتتحول إضطراباته العصبية إلى سلاح، حيث يستخدم ما كان سيهزم إرادته كوسيلة لدفعها إلى الأمام. ومن خلال تقبله لمخاوفه واتخاذها كوقود له، فإن باتمان ينقلها من قلبه إلى قلوب أعدائه. وعليه، يجب أن ننظر إلى بدلته، وسيارته، وإشارة الوطواط الضوئية، وغيرها كابتكارات فنية وعلاجية، يقوم بروس واين بواسطتها بتحويل مخاوفه الداخلية إلى أشياء خارجية، حتى يتمكن أولئك المعادين للعدالة من رؤية الإرهاب الذي ينشرونه هم بدورهم بحق، مما يجعل هؤلاء الأشرار يعانون نفس الصدمة العنيفة التي يحاولون تسليطها على الآخرين.

وبإظهار وتنظيم ألمه بهذه الطريقة، يستطيع بروس واين أن يتصرف بثقة عالية بالنفس. وفي مواجهة العبثية، فهو يسلم نفسه لقناعته بعدالة مطلقة أعلى. ونخبرنا كيركغارد بأن "التسليم يقوم مقام الإيمان"¹⁸، لأن الشخص عندما يسلم نفسه إلى ما هو عادل بشكل مطلق، فإن تلك العدالة ستصبح جوهر وجوده ذاته، وأرضية لإيمانه. وسيشعر حينها بأن لحياته معنى، وهو ينظر إلى ما هو أبعد من آلامه ومعاناته نحو تخفيف آلام ومعاناة الآخرين. يستعيد بروس واين ثقته بنفسه في اللحظة التي يكرس نفسه فيها لمساعدة الآخرين، مدركاً بأنه لو كان الناس أكثر اهتماماً بحماية العدالة وتقوية سلطتها، فربما ما كانت مأساة موت والديه لتحدث.

وبمجرد أن يكتسب الناس مثل هذه الثقة بمعنى حياتهم، فإنهم سيتحررون الى حد ما. فلن يعودوا يكتفون بالمشاركة السلبية في العالم؛ وبدلاً من ذلك فإنهم سيسعون إلى السيطرة على حياتهم، واستخدامها كوسيلة لهدف أسمى. وبهذه الطريقة، يقول كيركغارد إن هذه النفوس الواثقة هي أشبه بالفرسان، لا تتزعزع في مهمتها ومكرسة تماماً لقضيتها العادلة. وباتمان هو أحد "فرسان التسليم اللامحدود" هؤلاء، فقد كرس حياته لنشر العدالة المطلقة. اتزانة يكشف عن مهمته من دعوته بـ: "يمكن لفرسان التسليم اللامحدود أن يُميزوا بسهولة: فمشيتهم هادئة وواثقة".¹⁹ وبعد العثور على سبب أسمى للحياة، ينسل هؤلاء الفرسان نحوها مثل الوطاويط في الليل محلقيين من سقف إلى آخر، يطوفون فيها على نحو أعمى، ولكن دون خوف أيضاً، لأنهم لا يخافون من الموت باسم ما هو مجيد. وما حياتهم الآن إلا وسيلة لغاية مطلقة، غاية تفوق كل المخاوف الأخرى، بما فيها مخافة الحفاظ على الذات.

آلفريد، فارس الإيمان

في المقابل، فإن آلفريد بينيورث هو فارس من سلالة مختلفة. فهو لم يكرس حياته لأجل فضيلة مثالية مطلقة، بل لأجل هدف متواضع. هو لا يسعى لتحويل المستحيل إلى حقيقة، بل للحفاظ على رجل واحد فقط: بروس واين. لماذا؟ لأنه بذلك يخدم غرضين. أولاً، طالما تم الحفاظ على بروس واين وباتمان، فقد تم الحفاظ كذلك على عدالتهما. وهكذا يحقق آلفريد ذات العدالة التي يبتغيها باتمان، ولكنه يفعل ذلك بشكل غير مباشر. وثانياً، فهو يتخطى العدالة هذه بإدراك الحب تلقائياً في ذات الوقت، مما يعني عدالة محسوسة في لحظتها. وفي حين أن العدالة المطلقة لباتمان لا تكتمل أبداً، حيث دائماً ما يطرأ شيء ما يبسطها أو يقوضها، فإن عدالة المحبة لآلفريد تكون

دائماً في متناول اليد، وتظهر حقيقةً في الوقت ذاته، دون إنتظار آثارها في المستقبل. إن العدالة بوصفها حياً تستوفي نفسها في اللحظة ذاتها التي تُصنع فيها: كالابتسامة التي تلي لمسة؛ أو الشعور الذي يبعث الراحة في النفس بمعرفة أن هناك شخصاً آخر موجوداً بجانبك؛ أو الثقة التي تأتي من وجود أشخاص من حولك يمكنك الوثوق بهم. وتبعاً لذلك، يرى آلفريد العدالة في كل ما يفعله: كيف يمكنه تخفيف ألم باتمان مع القليل من الرعاية الطبية؟، أو كيف يمكنه تهدئة روح باتمان المعذبة بكلمات لطيفة قليلة وساندويتش حضره بنفسه؛ أو في واحدة من ملاحظاته الذكية، والتي تساعد على تهدئة باتمان وتذكره بالسيطرة على ميله لرد الفعل المبالغ فيه؟.

إن المفارقة في هذه القيم الأخلاقية العليا هو أنه لو تم تناولها بصورة سطحية لبدت جد عادية وتافهة. ففي حين أن فرسان التسليم اللامحدود يبدوون شديدي الثقة بأنفسهم، «فإن أولئك الذين يحملون جوهره الإيمان من ناحية أخرى غالباً ما يكون مظهرهم مضللاً، فمظهرهم الخارجي يشبه بصورة لافتة للنظر ذاك الذي يحتقره بشدة كل من أولئك ذوي التسليم اللامحدود وأصحاب الإيمان العميق، أولئك هم الفلسطينين^(١). ومن الغريب أن فرسان الإيمان لا يبدوون أي علامة على عزيمتهم الأخلاقية، ولا يعبرون عن أنفسهم بالطريقة الصاخبة التي يستخدمها فارس التسليم اللامحدود. وبدلاً من ذلك، فإنهم يبدوون ويتصرفون مثل الناس العاديين وغير المستنيرين - الفلسطينين. ويصف كيركغارد الفارس النموذجي للإيمان قائلاً:

”في اللحظة التي وضعت فيها عيني عليه صرفته عني فوراً، تراجعت الى الوراء، وشبكت يدي مع بعضهما قائلاً بصوت نصف جهوري: ”يا إلهي، هل هذا هو الرجل؟ هل هذا هو حقاً؟ لماذا يبدو وكأنه جامع ضرائب!“.

(١) الفلسطينية: هي فئة من الناس الجهلاء الذين ازدراء للفن و الجمال و الثقافة و الرقي و لا يهتمون بمظهرهم الخارجي. [المترجم]

كنت أنفحص شخصيته من رأسه حتى أخصى قدميه لمعرفة ما إذا كان هنالك صدع أو عيب فيما يدعيه. لا! فقد كان صلباً في كل جزء منه. ومشيته؟ لقد كانت مفعمة بالحياة، وخطاه واسعة بشكل واثق؛ لم يكن يبدو كأحد سكان المدينة الذين يرتدون ملابس أنيقة ويمشون متبخرتين، فهو ينتمي إلى العالم وترابه بشكل كامل، ولا يوجد فلسفي أكثر منه. لا يستطيع المرء أن يكشف شيئاً عن هذه الطبيعة المنعزلة والمتفوقة كما يفعل حين يرى فارس الالمحدود. إنه يستمتع بكل شيء، وكلما رآه شخص ما سيشاركة بجزء معين من متعته، حيث يفعل ذلك بالثابرة التي هي علامة الإنسان الدنيوي الذي تُمنص روحه في مثل هذه الأشياء. إنه ميال إلى عمله. لذا، فعندما ينظر المرء إليه قد يفترض أحد أنه كان كاتباً فقد روحه في نظام معقد من حفظ الكتب، لذا فهو دقيق. يأخذ عطلة في يوم الأحد، ويذهب إلى الكنيسة".²⁰

إن فارس الإيمان يشبه جامع ضرائب، أو كاتباً، أو في حالة باتمان خادماً، يرتدي ملابس بسيطة مثل أي أحد، ويستمر بجهاذه اليومي. يرتدي ملابس محافظة، ولكنها أنيقة، سلوكه لطيف، ومنظم جداً، تماماً مثل رجل كريكغارد المؤمن.

في المقابل، فإن فرسان التسليم الالمحدود مدهشون، فدرعهم مطابقة لثقتهم بنفسهم، وأعمالهم تعبر عن براعة لا محدودة. إن زي باتمان وأدواته تعلن عن حضوره البطولي بقدر ما تعلن عن العدالة المطلقة التي يمثلها، مملكة سلام ما أخيرة على الأرض. وفي حين أن أعماله ليست أقل من مذهلة، وملحمة بكل أبعادها، لكن كم سيبدو فرسان الإيمان هزيلين في ظل كيان عظيم مثل هذا! فلا شيء مميز في ملابسهم، أو أعمالهم الروتينية.

غير أن الاختلاف الحقيقي بين هذين الاثنين لا علاقة له بالاهتمام الذي يسلطونه على أنفسهم. ففي حين أن فرسان التسليم الالمحدود ينتظرون دائماً بعض الحالات المثالية في المستقبل، فإن فرسان الإيمان قد وجدوها

ويعيشونها في الزمن الحاضر. فخلودهم ليس مستقبلياً، بل هو موجود هنا، الآن، حيث أنهم يدركون أنهم في محبة وخدمة الآخرين يمارسون نوع الخدمة التي ستدعم الإنسانية بلا حدود. وبالنسبة لهم، يجب أن يكون السلام على الأرض مرافقاً لكل حركة وكل عمل. ويبدأ ذلك بالالتزام مع شخص آخر وبمساعدة ذلك الشخص بكل طريقة ممكنة.

يعرف ألفريد أنه إذا تعاملنا جميعنا مع الآخرين بهذه الطريقة فلن تكون هناك حاجة إلى باتمان، أو أي نوع من العدالة القسرية لهذه المسألة. ولذا فهو بمثابة نموذج لباتمان، مثل حكيم ما يتبع بروس واين أينما ذهب، ولو لمجرد تذكيره بالوجه الحقيقي للعدالة في اللحظة الحالية، وليس بالعدالة ذات النتائج المستقبلية. وهذا هو السبب في أن عزلة ألفريد لا تشعره بالضيق، حيث أنه "يفرح بكل شيء".²¹ فكل فعل بسيط يقوم به لبروس واين يعزز من إيمانه، لأنه لا يساعده فقط على البقاء، ولكنه أيضاً يلهم واين ببراعة بتقديم نفسه كمثال جيد.

ومثله مثل فارس كيركغارد المؤمن، "[هو] ليس أحقاً"،²² كي يختار مهنته ليخدم رجلاً أضل الطريق على الرغم من كونه رجلاً جيداً. فإذا كان يوجد هناك أي أحق فهو باتمان، حيث يطارد المجرمين بتهور إلى الحد الذي يهدد حياته بالقتل. من ناحية أخرى، فإن ألفريد واقعي حول نوع العدالة التي يمكن له أن يحققها في حياته. وكما يكتب كيركغارد:

"إن الحمقى والشبان يثرون بإمكانية الحصول على كل شيء بالنسبة للرجال. وهذا، مع ذلك، هو خطأ كبير. فمن الناحية الروحية، كل شيء ممكن، ولكن في هذا العالم المتناهي هناك الكثير مما هو غير ممكن. غير أن الفارس يجعل من هذا المستحيل ممكناً من خلال التعبير عنه روحياً، لكنه يعبر عنه روحياً بالتنازل عن مطالبته به".²³

وعلى عكس باتمان، فإن ألفريد لا يبحث بحماسة عن عدالة ما للجميع،

ولكنه ينشد فقط العدالة للشخص الذي يهتم به، وهو بروس واين. هو يتخلى عن المطالبة بالعدالة الجلية التي ألزم بها باتمان نفسه، لمعرفة بانه غير قادر على مكافحة الجرائم مثل باتمان. وبدلاً من محاربة المجرمين في الشارع، فقد اختار أن يقاتل طغيان الروح التي جعلت بروس واين منهك النفس للغاية، وحطمت إيمانه بالإنسانية.

ومن أجل تحقيق هذه الغاية، يقدر ألفريد حياته كلها وإيمانه غير المحدود وشرفه الآتي من نذره هذا. ولا يزال ألفريد فارساً لأنه لا يتخلى أبداً عن التزامه بمساعدة باتمان. فيما لو قام بذلك، فإنه سيتخلى عن الواجب الأخلاقي لصالح الإحتمالية الأخلاقية moral speculation. لقد أصبحت حياة باتمان منذ ذلك الحين وسيلة لسعادة ألفريد، بدلاً من أن تكون غاية في حد ذاتها. وبخدمة باتمان دون قيد أو شرط، فإن ألفريد يتجنب هذا التناقض الأخلاقي. وبقائه مخلصاً لباتمان، فإن ألفريد يبقى مخلصاً لنفسه، ولليمين السابق الذي قطعه لأداء واجبه، وإلى معتقداته الأخلاقية. وهذا، كما نخبرنا كيركغارد، في النهاية هو "الحب".²⁴ فمن خلال التضحية بحياته من أجل تحسين حياة بروس واين، يثبت ألفريد أنه يحب حقاً بروس واين بطريقة رائعة خالية من الأنانية. هذا هو نوع الحب الذي "يفترض تواجده في شخصية دينية"، عقيدة للحب، حيث أنه يهتم بأخلاص بروس من كل قلبه، ولأجله يبذل كل جهده.²⁵

المفارقة والسلام

لم يتوقف ألفريد لثانية واحدة عن تذكر الالتزام الذي قطعه للشباب بروس واين في الليلة التي توفي فيها والداه، ولا كيف أقسم سراً هناك للوقوف بجانب صبي حتى يصبح شخصاً كاملاً مرة أخرى. هذا اليمين وهذه الذكرى تتسبب بألم مستمر لألفريد، لأنه هو الذي يجب أن يقف إلى

جانب باتمان ويشاهده يناضل من أجل تحقيق ما يؤمن به، وهو إيمان لا يزال باتمان جاهلاً به بسبب تسليمه الكامل لنفسه للعدالة المطلقة والمثالية (وبالتالي المستحيلة). إن ألم ألفريد يشبه ألم الأب الذي يراقب نمو طفله، ورؤية سذاجة ومثالية الشباب آملاً بأنه في يوم ما ستصبح تلك النظرة للحياة أكثر واقعية. وبنفس الحب والعاطفة التي سيعطيها الأب، يحاول ألفريد دون كلل تعليم بروس واين العدالة كمحبة، آملاً لما هو أبعد من الأمل نفسه في أن يقود ذلك عمله الإيماني يوماً ما.

في النهاية، فإن قصة باتمان وألفريد، مثلها مثل قصة إبراهيم وأخلاق كيركغارد، تشبه صراعاتنا الداخلية لإيجاد هدف ومعنى في الحياة. إنها قصة كفاح ضد الاحتمالات المستحيلة، والإيمان على الرغم من المعاناة والمآسي، الإيمان الكامل بأن حياتنا يمكن أن تحدث فرقاً حقيقياً في العالم. يجب أن نطمح إلى أن نصبح «فرساناً للإيمان»، والذين يقترب إخلاصهم المتفاني إلى التدين، حيث يقودنا ذلك إلى أخلاق الأمل والبهجة: «الإيمان بالتالي ليس عاطفة جمالية، بل شيء أعلى من ذلك بكثير، لأنه يستلزم التسليم كإفترض مسبقاً تحديداً؛ إنه ليس غريزة لحظية للقلب، بل هو مفارقة للحياة والوجود».²⁶

إن مفارقة إبراهيم هي لوالد شديد الإيثار، يحب ابنه على الرغم من معرفته بأن ابنه قد يكون مصمماً للمعاناة من قوى لن يستطيع أبداً حمايته منها. أمّا مفارقة باتمان فهي أنه سلّم حياته لصالح عدالة غير عملية، هي عدالة مثالية تماماً، بحيث لا يمكن لأي شخص أن يقوم بها بمفرده على الإطلاق، في حين أن مفارقة ألفريد هي مفارقة الإيمان الملموس، حيث محبته وإيمانه بروس واين على الرغم من أخطائه، على أمل أن يوماً ما سينعم كلاهما بالسلام، وأن باتمان سيحقق العدالة التي يسعى إليها.

- 1- أنظر Batman العدد #16 (أبريل-مايو 1943)، وهو العدد الذي يظهر فيه ألفريد أيضاً للمرة الأولى.
- 2- يتقذ ألفريد كل من باتمان وروبين بدفعهما بعيداً عن صخرة ساقطة في Detective Comics العدد #328 (يوليو 1964)، ويتم إحياءه من قبل عالم مجنون في العدد #356 من نفس السلسلة (أكتوبر 1966).
- 3- أنظر Batman: Gotham Adventures العدد #16 (سبتمبر، 1999).
- 4- أقرأ المقابلة مع بات تزوي في الفصل 20 من هذا الكتاب للمزيد عن تواضع ألفريد.
- 5- سورين كريغفارد، الخوف والإرتعاش والمرض حتى الموت (Princeton NJ: Princeton Univ. Press 1970)، الصفحة 77.
- 6- نفس المرجع، الصفحة 146.
- 7- مارتن هيدغر، الكينونة والزم (San Francisco: HarperSan Francisco 1962)، الصفحة 84.
- 8- كريغفارد، الخوف والإرتعاش، الصفحة 146.
- 9- سورين كريغفارد، Concluding Unscientific Postscript (Princeton NJ: Princeton Univ. Press 1941)، الصفحة 176.
- 10- جان بول سارتر، الوجودية (New York: Philosophical Library 1947)، الصفحة 18.
- 11- جان بول سارتر، الوجود والعدم (New York: Gramercy Books 1956)، الصفحة 439.
- 12- قصة The Drak Knight Returns (1986).
- 13- قصة Batman: Year Two (1987).
- 14- العدد #1 من The Untold Legend of the Batman (يوليو 1980).
- 15- كريغفارد، الخوف والقشعريرة، الصفحة 47.

- 16- المرجع السابق.
- 17- المرجع السابق.
- 18- المرجع السابق، الصفحة 46.
- 19- المرجع السابق، الصفحة 49.
- 20- المرجع السابق، الصفحات 48-49.
- 21- المرجع السابق، الصفحة 49.
- 22- المرجع السابق، الصفحة 52.
- 23- المرجع السابق، الصفحة 47.
- 24- المرجع السابق.
- 25- المرجع السابق، الصفحة 54.
- 26- المرجع السابق، الصفحة 58.

الليالي المظلمة ودعوة الضمير

بقلم: جيسون ج. هاورد

هل يملك باتمان ضميراً؟

قليلة هي الأشياء التي حافظت على نفس مستوى جاذبيتها وتأثيرها عليّ منذ أن كنت مراهقاً وحتى اليوم، مثلما يفعل باتمان. فهو دراكولا الحديث، لطيف، فارس ظلام، وروح انتقام، إنه شخص ستجده عاجلاً في قصة تراجيدية يونانية بدلاً من إيجاده في قصة مصورة. إن طريقة باتمان هي ترويع أعدائه إلى حد الجنون، وبترويعهم فإنه يجبرهم على مواجهة ما أصبحوا عليه. بالنسبة لي، كان السؤال المركزي دوماً هو أن باتمان يستخدم نفس تكتيكات الترهيب والخدع المستخدمة من قبل أعدائه، إضافة لكونه شخصاً معطوباً داخلياً، فكيف ينجح في المحافظة ويظل البطل دون أن يتحول إلى الشرير. إن سعيه لتطهير غوثام من الجريمة والانتقام لموت أبويه يتم على أساس المعادل الأخلاقي لحد الشفرة. (لمعرفة مدى الحدة التي يمكن لهذه الحافة أن تحقق بها في قصة فرانك ميلر "The Dark Knight Returns"، 1986). ما الذي يمكن باتمان من السير على هذه الحافة، والنظر

في هاوية أرواح الرجال، والاستمرار في ذلك؟ وأفضل طريقة للإجابة على هذا السؤال هي بمعرفة ما إذا كان لدى باتمان ضمير.

إن مشكلة الضمير - من أين يأتي، وكيف يبرر السلوك الأخلاقي، وما إذا كان موجودًا - قد نوقشت في الفلسفة الأخلاقية لأكثر من ألفي عام. ولكي نقدر كيف يلائم باتمان هذه المناقشة، فإننا سنحتاج إلى تجاوز الخط المعتاد للتعليل الأخلاقي، والذي سيركز على نبل نواياه وسلطته الأخلاقية باعتباره "بطلاً خارقاً". وهذه الأسئلة تبرز بالتأكيد تعقيد سلوك باتمان، ولكنها ذات فائدة محدودة في توضيح الأصل الضمني وشرعية الضمير كشكل من أشكال التحفيز. بدلاً من ذلك، سنحتاج للتفكير بتلك الأسئلة على خلفية نضال باتمان لعيش "تجربة وجود حقيقية". وكما أن معظم خياراتنا الأخلاقية مصممة، على الأقل جزئياً، على من نكون كأفراد، فإن خيارات باتمان تنبع أيضاً من صراعه الوجودي الأعمق لعيش حياة أصيلة. ولأن باتمان يدرك مدى تعقيد حياته المزدوجة والطابع المشكوك فيه لخياراته الشخصية، فإن حياته عبارة عن صراع وجودي. الكيفية التي يكافح بها مع هذه المسائل لا يمكن أن يفسر فقط الفرق بين الضمير الأصيل وغير الأصيل، بل يمكن أن يساعد أيضاً في تفسير جاذبيته المستمرة باعتباره بطلاً خارقاً.

الضمير والسلطة

أن فكرة عيش حياة أصيلة، كذلك فكرة وجود ضمير حقيقي، هو موضوع ظهر مع محاكمة واعدام سقراط (470 - 399 قبل الميلاد). ولكن مع وجودية القرن العشرين تم تعريف الأصالة بمجدها الكامل. فالوجودية هي مدرسة بارزة في الفلسفة تؤكد على غموض وعشية الوجود الإنساني. وهي تركز اهتمامها على الغربة التي تتخلل الكثير من الحياة اليومية، بينما

ترفض إلى حد كبير أي تفسير عالمي صريح للسلوك البشري، سواء كان دينياً أم اقتصادياً أم سياسياً أم أخلاقياً.

وقد يبدو غريباً أن تلجأ باتمان للحصول على بعض الوضوح حول معنى الضمير الحقيقي. حيث من المؤكد بأن الرجل الذي يختبئ وراء قناع في الليل يبدو غير أصيل على أقل تقدير! ولكن إذا فهمنا المصطلح بمعناه الوجودي كما طوره مارتن هيدغر (1889 - 1976)، فإن مفهوم الأصالة مناسب تماماً. إن القول بأن شخصاً ما أصيل يعني شيئاً على الأقل: أولاً، إنه صادق مع نفسه حول ما هو ليس في حدود سيطرته، وخاصة عندما يتعلق الأمر بحتمية الموت. وثانياً، يتحمل المسؤولية الكاملة عن اتجاه حياته ومحاولة جعل معنى وهدف ما يقوم به واضحاً جلياً. وقد تمكن «باتمان» من الارتقاء إلى هذه المعايير على الرغم من التحديات العاطفية والنفسية والجسدية.

إن الناس يناشدون ضمائرهم باستمرار. سواء كان مارتن لوثر كينغ أم أسامة بن لادن، إذ أن هناك اعتقاداً شائعاً بأنه في مكان ما من اعماقنا، ولو فقط منحنا أنفسنا وقتاً للاستماع، فسنكتشف بوصلة أخلاقية لا تخطئ. إن هذه النظرة السائدة تؤيد شكلاً «استبدادياً» أو «جوهرياً» للضمير، حيث أن واجبنا الأخلاقي الأكثر أهمية هو اتباع قناعاتنا الأخلاقية. لقد كان هناك العديد من الفلاسفة المناصرين لهذا الرأي، وأبرزهم هو جان جاك روسو (1712 - 1778) في كتابه إميل أو في التربية 'On Education'. إذا كانت النظرة الفطرية للضمير هي التي اعتنقها باتمان، حيث يتألف الخير الأخلاقي من الاستماع إلى قلب المرء، فلن يكون هناك الكثير الذي يمكن تعلمه منه. بيد أن باتمان ليس سوبرمان، وكخبير في علم النفس الجنائي، فهو أكثر خبرة من أن يتبنى مثل هذه النظرة الساذجة للسلوك الأخلاقي. هذا لا يعني أن باتمان ليس لديه أي موقف أخلاقي، لكن موقفه الأخلاقي هذا لا يستند

على "معرفة قبلية" (خالدة وعالمية) للحس الأخلاقي. وبدلاً من ذلك، ينبع موقف باتمان الأخلاقي من تقدير تعقيد السلوك البشري والأشكال المتطرفة التي يمكن أن يتخذها مثل هذا السلوك.

بالنسبة لهيدغر، بالإضافة إلى المفكرين الوجوديين الآخرين مثل جان بول سارتر (1905 - 1980) وألبير كامو (1913 - 1960)، فإن الحياة هي ما تصنعه أنت منها.² فكل واحد منا كأفراد يحدد معنى وجوده من خلال الخيارات والمواقف التي يتخذها. ولا يمكننا تجنب هذا العبء إذا أردنا تقدير حقيقة حرية الإنسان وعلاقتها بالنزاهة الأخلاقية. ولكن كيف يرتبط هذا النضال من أجل الأصالة بباتمان؟

لقد كان الشاب بروس واين فاقداً للأمل والثقة بنفسه قبل أن يكتشف رمز الوطواط، ليسافر حول العالم ويطور مهاراته في التحقيق البوليسي لما هو أكثر من مجرد دوافع انتقامية في عقله. ولكن إذا كان رمز الوطواط أكثر من مجرد اختراع للتغلب على الحزن على وفاة والديه، فما الذي كان الوطواط يعد به بروس الشاب مما لم يكن يملكه بالفعل؟ تكمل شخصية باتمان هوية بروس واين من خلال غرسها شعوراً جديداً بالضمير الأصيل، لا يغمره الانتقام، وغير مثقل بتوقعات الآخرين، ولا مرتكزاً على أي رؤية أخلاقية شاملة، بل يتحدث عن تحقيق الحرية والإمكانات البشرية. (أعتقد أن هذا يكفي، أليس كذلك؟).

الأموال، الحمائم الساخنة، وقرارات الحياة الصعبة

أحد المفاهيم الأساسية لفلسفة هيدغر، والتي تطورت في كتابه «الكيونة والزمن Being and Time» (1927)، هو مفهوم "الضعف". وفقاً لهيدغر، فمن المحتم أن نأخذ في الاعتبار اهتمامات وتوقعات الآخرين.

لكن حين يحدث هذا، فأنا غالباً ما نستغرق بهذه الانشغالات والمخاوف لدرجة فقدان أنفسنا في خضم آراء ونمط حياة الأغلبية. وينطبق هذا بشكل خاص عندما يتعلق الأمر بآراء الآخرين بشأن المسائل الأخلاقية. وفي هذه الحالة من "الضعف"، كما يسميها هيدغر، أن نتخلى عن إمكاناتنا الأصلية في أن نكون أنفسنا، لأن الآخرين قد قرروا معنى كينونتنا، ولذا فإننا ببساطة نمثل المكتوب لنا في الحياة.

بالنسبة لهيدغر، كما هو الحال بالنسبة لمعظم الوجوديين الآخرين، فإن الحياة البشرية منفتحة باستمرار على إعادة التأويل. وللتأكيد على الطابع التفسيري للوجود الإنساني يوظف هيدغر الكلمة الألمانية دازين Dasein عند مناقشة البشر. عند استخدام هذا المصطلح، يسترعي هيدغر انتباهنا إلى الطريقة الفريدة التي يدرك بها البشر "كينونتهم" (Sein) كموجودات دائمة "هناك" (da) في مكان محدد، ومنشغلين بعمل ما. تحديداً لأن دازين (أو الكائنات البشرية) تمتلك قدرة الإدراك، ليس لمجرد المشاريع العملية (مثل بناء الجسور وكسب المال) بل كذلك ادراك معنى ان نوجد هو ما يجعل أمر الضمير ممكناً.

ولأننا دازين، فأن معنى كينونتنا لم يحسم وغير ثابت. إلا أن المجتمع يعمل على إفترض أن الكينونة قد حُسم أمرها، وأن الغرض من الحياة هو أن يكون الإنسان طبيئاً، أو يكسب الكثير من المال، أو تكون لديه عائلة، أو مجموعة أخرى من الكليشيهات. وكما يشرح هيدغر: "ان ذات دازين اليومية هي في الحقيقة ذات الآخرين - والتي تختلف عن الذات الأصلية - أي عن الذات التي ترسخت بطريقتها الخاصة." ³ أنت ربما على دراية بـ "ذات الآخرين they - self" من خلال عدد من الحكم التقليدية مثل: "يقولون بأنه لا يجب عليك ارتداء الأبيض بعد عيد العمال" و "يقولون أنه لا يجب أن تسبح إلا ما بعد مرور عشرين دقيقة بعد تناول الطعام".

وعندما نتبع "ذات الآخرين"، فنحن لا نفكر أو نتصرف لأجل أنفسنا. بدلاً من ذلك، فأنا نكتفي بالموافقة وقبول ما يقوله لنا "آخرون" المجتمع المجهولون. ومن العديد من النواحي فإن حياة الشاب بروس واين هي مثال لتجربة الإنهيار والصعوبة التي يمكن أن يواجهها المرء في تأكيد هويته الخاصة الفريدة. (نحن نبحت جميعاً عن نماذج يحتذى بها، وموت والذي بروس كان من شأنه أن يجعل هذا البحث مؤلماً ومربكاً بشكل خاص، على الرغم من أن ألفريد كان قد قدم بديلاً ممتازاً له).

غير أن حياة بروس واين ما كانت لتكون سيئة للغاية، أليس كذلك؟ فبوسامته اللافته والثروة الهائلة التي حظي بها، كان بإمكانه صنع أسم لنفسه بطرق لا تعد ولا تحصى. والمفارقة هي أنه لو كان هدفه الوحيد في الحياة هو القيام بشيء يعتبره والداه نبيلاً، لكان من الأفضل له أن يكون مجرد بروس واين، ويدير شركة Wayne Enterprises كمؤسسة خيرية.⁴ لكن بغض النظر عن مدى الخير الذي كان يمكن لبروس واين تقديمه، فإن حياته لن تكون حرة، لأن اختيار إدارة شركة Wayne Enterprises لم يكن خياره الحقيقي الأصيل. وعلاوة على ذلك، فإن وفاة والديه كانت من الممكن أن تصبح مجرد حدث عابر، وبروس مجرد مدير تنفيذي آخر مجهول. وبدلاً من الاستسلام لعالم "الآخرين" وأحكامه وتوقعاته، فقد قرر بروس واين النضال ضد هذا العالم لاستيعاب آلام ضميره. وبذلك، لم يواجه بروس معنى وجوده فحسب، بل وأيضاً المعنى الأعمق لوفاة والديه.

رؤية الأشياء بوضوح بعيني وطواط أفضل

إن الحكمة التقليدية بين محبي باتمان هي أن الموت المأساوي لوالديه قد حوّل بروس واين إلى باتمان. أمّا بالنسبة لهيدغر وسارتر وكامو، فإن كل التحولات والتغيرات ذات المغزى في حياة الناس تأتي من إدراك تأويلنا

للوجود. إن معنى الحياة والموت لا يتم حسمه والبت فيه بصورة نهائية، مثل بعض المعادلات التي يمكن ببساطة حفظها وترديدها كالبيغاء. ففي قضية باتمان، وعلى الرغم من عدم وجود شك في أن قتل والديه كان العامل المحفز للتغيير، فإن فعل تأويل معنى موتهم هو ما كان قد بدأ هذا التحول الوجودي من بروس واين إلى باتمان. وبتتبع رؤية هيدغر في هذه المسألة، يمكننا القول أنه من خلال «الرغبة في الحصول على ضمير»، يتم اكتساب أي فكرة جوهرية عن معنى الكينونة.⁵ هذا المزيج الفريد من الرغبة في الحصول على ضمير بينما يواجه المعنى الكامل لوفاة والديه هو الذي بدأ عملية تحويله من شاب متعطش للدماء إلى مكافح للجريمة.

ولكن ماذا يعني أن يرغب بإمتلاك ضمير؟ وفقاً لهيدغر، فإن الكثير مما يعتبر سلوكاً بشرياً ناتج عن تضليل الذات، سواء عن قصد أم غير قصد. إذ يهرب الناس باستمرار من إمكانياتهم الخاصة، وماضيهم، وحتمية موتهم، نحو ما هو مألوف ومريح. وحالة الفرار هذه هي السمة المميزة للسقوط. نحن نريد أن يكون الوجود شيئاً راسخاً ومكتوباً، وأن نعرف أنه ليس لدينا خيار حقيقي في إخفاقاتنا أو مصائبنا، وأن الحياة لها غرض واضح لا نحتاج إلا للعثور عليه. ونتيجة لذلك، فإن الكثير من الحيوانات الاجتماعية ينتهي بها المطاف لأن تصبح سلسلة مفصلة من الالهاءات هدفها تشتيتنا عن التفكير بواقع فئتنا. وكما يرى هيدغر، فلا يمكننا أن نرغب مطلقاً في الحصول على ضمير طالما وافقنا وتقبلنا فكرة العيش في عالم تم فيه تسوية كل ما يخص الحياة، والموت فيه حدث غامض وبعيد، وحينئذ فأن الغاية الوحيدة التي يمكن أن يسعى إليها الضمير في ظل هذه الظروف هي الرقابة على فردانيتنا.

إن الرأي الشائع عن الضمير الذي يجسده غضب الشاب بروس واين وشعوره بالذنب ليس هو الضمير "الأصيل"، بل هو استيعاب للتفاعلات والتوقعات المألوفة. وهذا التقمص، على الرغم من كونه تعبيراً شائعاً

للضمير، ينتهي به المطاف إلى فرض الطريقة التي يجب أن نتصرف ونشعر بها، مما يجعل أي قرار أو تصور توصلنا له فيما يخص معنى الكينونة زائداً عن الحاجة. قد يكون من الصعب إمكانية التمييز بين هاتين الطريقتين لتجارب الضمير الأصيلة وغير الأصيلة. فمن ناحية، لدينا شعور بالضمير الأصيل الذي يؤكد الفردية، بينما من ناحية أخرى، فلدينا شعور بالضمير غير الأصيل الذي ينكر أي دور للبصيرة الشخصية والإبداع. وما يجعل شخصية باتمان مثيرة للاهتمام لهذا الحد هو أنه على الرغم من كونه بطلاً خارقاً، إلا أنه يوضح التمييز بين هذين الإحساسين للضمير بطريقة مفيدة جداً.

في Batman: Year One (1987) يظهر جلياً أنه على الرغم من سنوات التدريب الطويلة، فقد فشل بروس واين كمقاتل للجريمة إلى حد كبير دون شخص باتمان لتوجيهه. لكن السؤال المثير هنا هو: لماذا؟ إن الأمر ليس كما لو أن تدريباته قد تحسنت بشكل كبير بمجرد أن ارتدى الزي، أو أن هويته يمكن أن تكون مخفية بما فيه الكفاية فقط من خلال قناع وعبائة. وكما يقول بنفسه، معلقاً على الأشهر القليلة الأولى له كمحارب للجريمة: "لدي الوسائل والمهارة ولكن ليس الأسلوب... لا، هذا ليس صحيحاً. لدي مئات من الأساليب، ولكن شيئاً ما مفقوداً. شيء ما غير صحيح. لا بد لي من الانتظار". من المؤكد هنا أن بروس لا ينتظر شخصاً ما أو شيئاً ما بالمعنى المعتاد، ولا يتوقع أن يحدث شيء ما، فما الذي ينتظره هو بالضبط؟ كما يشرح هيدغر، فـ "الضمير يستدعي ذات الدايزن من ضياعها وسط الآخرين".⁶ لا يتم التعبير عن هذا "الاستدعاء" بالكلمات، أو الأوامر الأخلاقية، فلو كان الأمر كذلك، فإن الضمير سيكون مجرد حافز إضافي للوفاء بتوقعات الآخرين. على النقيض من ذلك، فإن الضمير يُكسب للناس فرادة عن طريق سحبهم بعيداً عن عالم الآخرين بجعلهم يواجهون

إمكاناتهم الفريدة. إن النقطة الحاسمة هنا هي أن تجربة الضمير الأصيل نابعة من التفرد الشديد، حيث ندرك أنه في نهاية المطاف لا يمكن لأحد أن يشارك في حدث موتنا، ولا أن يمنعه. وكما يجب أن نلتزم بحتمية موتنا، يجب أن نتحمل المسؤولية المباشرة عن "معنى" حياتنا أيضاً.

في تلك الليلة المصيرية عندما طار وطواط وحيد إلى غرفة واين، مجيباً عن بحث بروس واين عن هوية جديدة، كان قد حظي بما يسميه هيدغر: "لحظة تجلي". هذه اللحظة من التجلي مميزة من حيث أنها ليست تعبيراً عن أوامر دينية، أو هدف أخلاقي بسيط. ولا هي الحل لجميع مشاكل الحياة. ولكن بدلاً من ذلك، فإننا في لحظة التجلي هذه نواجه المعنى الكامل للضمير، الذي "يدعونا للوصول إلى موضع" من خلال الكشف عن أعماق لغز في وجودنا، مما يكشف لنا أن مسألة من نكون ومن نحن هي دوماً شيء "خاص" بكل واحد منا.⁷

ومن خلال اتخاذه لرمز الوطواط، يكشف بروس عن قلقه ويواجه مهمته الفريدة. كما هو مقترح في Legends of the Dark Knight # 1 (نوفمبر 1989)، فإن الوطواط يُعرّف كطوطم بروس واين، ومع ذلك فنحن نفوّت الأهمية الكاملة لهذا الطوطم إذا ما أختزلناه بمحتوى أو برسالة محددين. وهذا من شأنه أن يقلل من اكتشاف بروس واين لما يخص "الضمير العام". إن تعريف الوطواط كطوطم لبروس واين يكشف عن ضميره الأصيل في لحظة التجلي، والتي يواجه فيها بروس قوة الإمكانات. فكرر في الوصف التالي من "الرجل الذي يسقط"، والذي يعلق على إدراك بروس للوطواط كرمزه الشخصي: "كان يعلم. ففي تلك اللحظة، فهم الطريق الذي كان عليه أن يسلكه كل تلك السنوات، ما كان ممكناً له، ما كان يجب أن يكون عليه. للحظة، تذوق بهدوء عواطف جديدة. للحظة، كان سعيداً".⁸

الشعور بالذنب (أو "كيف تحارب القلق")

إن وجود باتمان هو محاولة مستمرة لتحديد وإعادة تأكيد معنى تمرده. فبدلاً من إنكار جنون فقدانه لوالديه وجهوده غير المجدية لإحباط الجريمة في غوثام، يؤكد باتمان عبثية مأزقه كمنفذه الوحيد. فلو نظرنا للصورة بشكل عام وشامل، فإن مهنة باتمان كمحارب للجريمة بالتأكيد موضع شك. فمعدل الجريمة في غوثام لا ينخفض أبداً، وكل شرير رئيسي ينجح باتمان في إلقاء القبض عليه ينتهي به الأمر بالهروب. وعلاوة على ذلك، وكما تظهر الإصدارات الأولى من مسلسل *Legends of the Dark Knight*، فإن مآثر باتمان تسببت بظهور "محاربي الجريمة" المقلدين الذين يتسببون بالفوضى لعامة الناس.⁹ والأهم من ذلك، فإن وجود باتمان في غوثام يعمل كمنارة لتوجيه كل طائش ومجنون في المنطقة. إن القواعد الأخلاقية الصريحة الوحيدة التي يتبعها باتمان هي رفضه لإراقة دماء الأبرياء ونذره بعدم سلب حياة الآخرين عمداً، ولكن حتى هذه المواقف قد تعرضت للتهديد في بضع مناسبات. ولكن إذا كان صحيحاً أن نجاح باتمان كمحارب للجريمة هو أمر مشكوك فيه نظراً للأضرار الجانبية التي يخلقها وجوده، فأى نوع من التوجيه أو الحكمة يتم الحصول عليها من إمتلاك ضمير أصيل؟

إن كينونة باتمان تعني تحرره وتعذيبه في الوقت ذاته، والطريقة التي يؤكد من خلالها كلا الأمرين مع الاعتراف بلا جدوى مهمته هو ما يبقيه أميناً وصادقاً في سعيه. وعلى عكس العديد من الأبطال الآخرين، ليس لدى باتمان أي أو هام حول الطبيعة المريبة لما يفعله.¹⁰ في الإصدارات المبكرة من *Legends of the Dark Knight*، فإنه يفكر مراراً وتكراراً في التقاعد. وما هو أكثر من ذلك، فإنه في *The Dark Knight Returns*، وبعد 10 سنوات من التقاعد فأن نداءات شخصيته الأصدق، باتمان، هي التي تنتشله من حالة "الإنبيار" كمدمن للكحول. وكما يوضح هيدغر، فإن نداءات الضمير الأصيل "يشكل ولاء

الكينونة لذاتها".¹¹ غير أن هذه الذات الأصلية ليست شخصاً أو صوتاً خالداً في أعماقنا، كما هو الرأي الشائع عن الضمير، بل هي الرغبة الحازمة في التمييز بين ما هو سطحي وعرضي في الحياة وبين ما هو محتوم وواقع. ويمكن رؤية هذا الكفاح لاكتشاف أعمق التزاماتنا ودوافعنا بالطريقة التي يتعامل بها بروس واين مع حقيقة وفاة والديه.

فتحوله لباتمان يحدث حين يواجه بروس ضميره المذنب لوفاة والديه من خلال إدراك معنى ذنبه بطريقة مختلفة، وهو ما يدعى هيدغر بأنه يميز "لحظة التجلي" كشكل من أشكال الصحة. ويظهر ذنب بروس الشخصي، الخائق والمربك، على مستوى أساسي من الكينونة باعتباره ذنب الكينونة. فالقضية هنا ليست نوعاً من "المديونية" أو "الواجب" في المقام الأول، بل هي شعور المرء بـ "تفاهته" وسلبيته.¹² وهذا يعني اقرار المرء بتأثير المشاشة التي تحد من إمكانيات الحياة وتذكر في الوقت ذاته بأن هذه المشاشة تحمل داخلها القدرة لتغيير الحياة. فيتحول الشعور بالذنب من لوم بسيط للنفس إلى إدراك أن الجميع مذنبون إلى المدى الذي يتعين علينا جميعاً أن نتخذ موقفاً فيه حول من نحن وكيف ينبغي لنا أن نعيش.

وفي اختياره لتحرير نفسه من رد الفعل المعتاد على مأساته، تلك الغضبة العمياء وذلك الانتقام، يرى بروس حادث مقتل والديه كدعوة للثورة ضد حياة مليئة بالاستغلال والاستسلام والسخرية. وبذلك يستعيد بروس مأساة لا معنى لها من خلال مواجهة العنف الخالي من المعنى ذاته. ومع تجربة هذا الشعور بالذنب الذي أدانه ليكون بمثابة استدعاء له ليكون نفسه، وهكذا يصبح باتمان الضمير الأصيل لبروس واين. لقد مكّن اتخاذ شخصية فارس الظلام بروس من مواجهة عبثية وفاة والديه من خلال الكشف عن طريقة أخرى للشعور بالذنب، من خلال تقبله لإمكانية فئاته. أن قبوله لذلك وما يعنيه لشرعية خياراته هو ما يمنح باتمان الشجاعة لرؤية حتمية موته كتحدٍ في "أن يكون".

الليالي المظلمة ودعوة الضمير الأصيل

إن باتمان مستعد للموت. فقد تصالح مع حتمية الموت، ولكن هذا وحده لا يجعله أصيلاً؛ فالكثير من الناس على استعداد للموت من أجل قضية ما. إذًا، ما الذي يمكن أن يعلمنا إيّاه باتمان عن الأصالة، وهو «مجرد» شخصية قصص مصورة خيالي؟ إن إحدى النقاط الحاسمة التي يجب أخذها في الحسبان هي أن اختيار باتمان للمجازفة بحريته في سبيل قضية مستحيلة هو ليس هروباً من واقع العالم، بل هو تأكيد له. حيث لا يسعى باتمان إلى أن يحوّل الناس لتبني قضيته، ولا يحسد أولئك الذين يختارون محاربة الجريمة بطرق أخرى أكثر تقليدية. وبالمثل، فإن مهمته لن تكتمل، ولا نهاية مناسبة لها، ولا خلاص، فقط إعادة تقييم مستمرة لخياراته الخاصة. وبقبول خياراته في الحياة كمصيره المحتوم، يظهر باتمان كشخص قد قبل العالم على ما هو عليه، بكل عبثيته ومآسيه، مع أنه يبقى متسامحاً ومتعاطفاً مع الجميع باستثناء أولئك الذين تنتهي أعمالهم بعنف لا معنى له.¹³

لا يعارض باتمان إنقضاض العنف الخالي من أي معنى استناداً لقانون أخلاقي واضح أو عقيدة دينية، بل من ادراكه الحازم بحريته في قبول الموت، والذي يمثل الضمير الأصيل. هذه الحرية لقبول الحياة بكل غموضها المحير، وتقرير كيفية التعامل معها بنفسه، هو ما يجعل باتمان من هو، وليس زيه. إذ يعيش باتمان بقراره في "أن يكون"، معترفاً بواقع قلقه بينما يتنبأ باللاشيء الذي يطارد كل واحد منا:

"يسمح التوقع لدازين بأن يفهم أن إمكانية الكينونة في معناها الأقصى هي مشكلة، يجب أن تعالج من قبل الدازين وحده... يمكن أن يكون دازين نفسه أصيلاً إذا استطاع فقط جعل هذا ممكناً من تلقاء نفسه.

عندما يصبح المرء، عن طريق الحدس، متحرراً من موته، ومتحرراً من ضياعه في تلك الاحتمالات التي قد تندفع إليه دون إرادة منه؛ فسيتم تحرير

المرء بطريقة تسمح له للمرة الأولى بالاختيار بين الاحتمالات الواقعية التي تنتظره".¹⁴

إن "الحرية تجاه الموت"، كما يسميها هيدغر، هي السمة المميزة للضمير الأصيل. إن قول أن أي شخص حر في توقع موته لا يعني رغبته في الموت، كما أنه لا يعني ولعاً مرضياً بـ "النهاية". إنها الإدراك المتغلغل بأن نقطة الكينونة هي شيء يجب على كل واحد منا أن يتعامل معها كفرد من خلال إعادة التأكيد باستمرار على معنى فنائه. وهذا الموقف من الأصالة هو الذي يضمن أن تكون حياتنا شفافة قدر الإمكان من حيث أنفسنا، مما يحررنا من "أوهام الآخر" وهوسهم بالآلفة والهدوء والإلهاء".¹⁵ إن هذا ليس سهلاً. فهو يتطلب أن نعترف بضعفنا، إلى جانب رفض أي نوع من الإيمان بحتمية القدر أو التهرب من الواقع، وأن قبول "أن نكون" هو أن نكون قلقين بشأن من نحن.

لو افترضنا بأن الناس "يولدون" ببساطة بضمير، بدلاً من أن يكافحوا من أجل الحصول على واحد، كما يوضح هيدغر، فلا يوجد مجال للناس لممارسة حريتهم في اتخاذ قراراتهم الخاصة في الحياة. وهذا لا يعني أن وجود ضمير أصيل يستلزم التخلي عن الأخلاق. بل على العكس من ذلك، فإنه يمنع الأخلاق من أن تصبح نوعاً آخر من الخضوع، حيث يتم تبادل ممارسة الحكم الأخلاقي الحر والعفوي من أجل الالتزام والتعصب الأعمى.

بالطبع، فإن باتمان ليس هو المثال الوحيد للضمير الأصيل، ولكنه بالتأكيد مثال تعليمي. وعلاوة على ذلك، فما يجعله تعليمياً للغاية هو التعقيد الوجودي لهويته، وليس مجرد حقيقة كونه بطلاً خارقاً. إنه استعدادده للتأقلم مع ماضيه، ورفضه لجميع الأعذار الواضحة، وشغفه للتعامل مع الواقع بشروطه الخاصة الذي يميز باتمان عن المتعصب الأخلاقي، والذي يجعل من نوعه البطولي ذا أهمية كبيرة. وكما يقول باتمان نفسه: "إنك تتصرف بما تمتلكه

من إمكانيات... ما أكونه، هو ما اخترته لنفسى. لا أعرف ما إذا كنت سعيداً، ولكنى راضٍ¹⁶.

الإستنتاجات والعباءات والأقنعة

إن خيار عيش حياة أصيلة يعود معه ببعض الليالي المظلمة، ولكن هذا هو الثمن الذي يتعين علينا دفعه لعيش حياة خالية من الأوهام. قبول باتمان لهذا يعزز بطولته. حيث يعتمد على إرادته في الحصول على ضمير أصيل، وليس على قوة خارقة. وبالتالي، فإن الغرض من العباءة والقناع ليس لإخفاء من هو. ولكنها، بدلاً من ذلك، تقف شاهداً على الخيارات التي اتخذها والرجل الذي أصبحه. وعلى الرغم من أنه لا يمكننا محاكاة باتمان حرفياً والمخاطر التي يتحملها - فهو بعد كل شيء، بطل خيالي لقصص مصورة - إلا أن معاركه الداخلية ليست غريبة على أي منا بأي حال. إنه شخص يكافح لتأكيد ثقل خياراته وعيش وجود حقيقي. في عالم يتفشى فيه الخضوع اللاواعي، والجهل هو القانون اليومي، والخوف هو أكبر طواغيتنا، فإن دعوة باتمان إلى الضمير هي مثال على كيفية أن استعدادنا لمواجهة معنى كينونتنا الخاصة يمكن أن يكون أيضاً الطريق لتحررنا الشخصي.¹⁷

- 1- جان جاك روسو، حول التعليم (1762)، ترجمة آلان بلوم (London: Penguin Books Ltd. 1991). ومن الأمثلة البارزة الأخرى هما: القديس توما الأكويني (1225-1274) والأسقف بتلر (1692-1752).
- 2- مقدمة جيدة لسارتر هي الوجودية الإنسانية (New Haven CT: Yale Univ. Press 2007)، بينما المقدمة الجيدة لكامو هو أسطورة سيزيف ومقالات أخرى (New York: Vintage 1991).
- 3- مارتن هيدغر، الكينونة والزمن، ترجمة جون ماكوارى وإدوارد روبنسون (New York: Harper & Row 1962)، الصفحة 167.
- 4- أقرأ مقالة ماهيش أنانث وبين ديكسن في الفصل الثامن من هذا الكتاب حول أخلاقيات قرار بروس الشاب في أن يصبح باتمان.
- 5- هيدغر، الكينونة والزمن، الصفحة 342.
- 6- المرجع السابق، الصفحة 319.
- 7- المرجع السابق، الصفحة 347.
- 8- "الرجل الذي سقط" من قصة Secret Origins (طبعة عام 1989)، المعاد طبعها في Batman Begins: The Movie and Other Tales of the Dark Knight (2005).
- 9- على سبيل المثال، راجع "الفريسة" (من قصة Legends of the Dark Knight الأعداد #11-15 1990)، و"إيمان" (الأعداد #21-23 1991).
- 10- أنظر في شهادة باتمان أمام اللجنة الفرعية الحكومية بشأن مسألة الأبطال الخارقين: "نحن مجرمون بالتأكيد، ودائماً ما كنّا كذلك. بل علينا أن نكون كذلك". (The Dark Knight Returns).
- 11- هيدغر، الكينونة والزمن، الصفحة 443.
- 12- المرجع السابق، الصفحة 332.
- 13- كأمثلة على هذا التعاطف، لاحظ علاقته المعقدة مع كاتوومان وذوي الوجهين.

14- هيدغر، الكينونة والزمن، الصفحة 308.

15- المرجع السابق، الصفحة 311.

16- قصة Legends of the Dark Knight، الأعداد #23، 26 (أكتوبر 1991).

17- أشكر كل من رولف سامويلز وكين لي لمراجعتهم للنماذج الأولية لهذا الفصل.

مواجهة باتمان ضد الموت والفرع والحرية

بقلم: ديفيد م. هارت

باتمان عاقد العزم؟

في بانثيون أبطال القصص المصورة الخارقين، لا توجد هنالك شخصية أكثر تركيزاً وتصميماً من باتمان. فقد حظي سوبرمان بوقت من أجل علاقته مع لويس لين، ودائماً ما يكون سبايدرمان قلقاً حول العمة ماي ووظيفته في الديلي بوغل، ودائماً ما ينشغل فريق فانتاستيك فور بالمشاحنات العائلية. ولكن يبدو أن باتمان يكرس كل لحظة من حياته لأجل حربه الشخصية على الجريمة، وهو يسعى يتخذه ليكون سبب وجوده. وحتى في المناسبات القليلة التي يقوم فيها باتخاذ خيارات قد تبدو أنها تمنحه ما يشبه الحياة الاجتماعية «الطبيعية»، كحضور أحد الحفلات الخيرية برعاية مؤسسات واين، حيث دائماً ما يكون مع امرأة جميلة كعشيقة، فإن باتمان يبرر قيامه بتلك الأفعال كجزء من مهمته الأهم. فعلى سبيل المثال، يساعد ظهوره مع عارضة الأزياء، على الحفاظ على سمعته كرجل لعوب وتزليل الشك حول إمكانية كون بروس واين هو باتمان. والذهاب أيضاً إلى حدث عام بصفة بروس واين قد يتيح الفرصة له لجمع

معلومات داخلية وسماع الشائعات. إن ربط كل عمل بحربه الشخصية يمنح مشروع حياة باتمان وحدة متماسكة؛ حيث أن كل ما يفعله يخدم هدفاً واحداً أعظم.

لكن مكمّن الصعوبة في شخصية تلتزم بشدة بهدف واحد هو أن الشغف «المفرط» يمكن أن يبدو أحياناً كالجنون بعض الشيء. في الواقع، ومنذ منتصف ثمانينيات القرن العشرين، اختار العديد من الكتاب دفع تفاني باتمان المتطرف إلى أقصاها لدرجة أن الشخصية غالباً ما تبدو وكأنها تقف على حدود الاختلال العقلي، فلم يكن يبدو مدفوعاً بنية إثارية لخلق عالم أفضل، بل بإكراه لا يستطيع مقاومته ناجم عن صدمة الطفولة. يبدو أن محبي باتمان قد سئموا هذا التفسير في السنوات الأخيرة، واستجابت قصص دي سي المصورة بالتركيز على نسخة «أكثر لطفاً واعتدالاً» من الشخصية. حيث يبدو أن الإجماع الجديد بين مؤلفي باتمان ومحبيه هو أن جعل دافعية باتمان للإقتصاص من المجرمين مجرد ناتج بسيط عن نفسية متضررة ربما نال من الجانب البطولي لشخصية باتمان. إذ يبدو بأن النسخة «الشرسة والحازمة» من باتمان تسعى إلى ما لا نهاية للانتقام بدلاً من العدالة، وبالنسبة لثقافتنا الحالية على الأقل، فلا يبدو كون المرء مدفوعاً بعوامل انتقامية عملاً بطولياً البتة.

يثير قرار محرري القصص المصورة الخاص بتطهير باتمان من بعض شياطينه النفسية - حرفياً، في 52 #30 (29 نوفمبر 2006) - وإعادته إلى مظهر بطولي أكثر تقليدية، بعض الأسئلة الفلسفية المهمة المتعلقة بمشكلة حرية الإنسان. فعلى سبيل المثال، هل يفعل باتمان ما يفعله لأنه اختار طريقاً يؤمن أنه الصواب، أم أنه ببساطة يفعل ذلك لأنه يشعر وكأنه لا يستطيع فعل أي شيء آخر؟ بطرح هذا السؤال بصورة فلسفية، قد نسأل ما إذا كان سلوك باتمان قد تقرر سلفاً من خلال ماضيه، أو إن كان هناك جانباً يجعل بالإمكان القول أن خياراته تتم بحرية. وعلاوة على ذلك، إن لم يكن ماضيه قد قرر سلوكه سلفاً،

فهل لنا أن نفسر تفاني باتمان في مهمته بأي طريقة أخرى غير القانون الميكانيكي للسبب النفسي والنتيجة، والتي قادت فيها صدمة طفولته إلى حتمية حاجته لمعاقبة الأشرار؟ وهل يمكن لهذا التفسير البديل أن يسمح لنا بالاحتفاظ بمفهوم تقرير المصير الذي يبدو مرتبطاً بنبل البطل؟

سيقدم هذا الفصل بعض الإجابات المحتملة على هذه الأسئلة إستناداً لفلسفة مارتن هيدغر (1889-1979). وعلى طول الطريق، سوف نستكشف مشكلة فلسفية كلاسيكية تعرف باسم «الإرادة الحرة مقابل جدلية الحتمية». ومن خلال دراسة دوافع باتمان وأفعاله عبر إحدى الشخصيات الرئيسية في الفلسفة الحديثة، سوف نسلط بعض الضوء على الطريقة التي أتخذ بها فارس الظلام خياره للحياة (إذا كان لديه بالفعل خيار).

ألفريد والمظهر

يميز هيدغر نفسه عن سابقيه من خلال التغلب على الفارق الفلسفي بين المظاهر وبين ما يوصف بأنه «حقيقي». هذا الفارق، الذي سيطر على الخطاب الفلسفي منذ بداياته الأولى، يتم التعبير عنه عادة في الفلسفة الحديثة بـ«ثنائية الذاتي والموضوعي». ففي الحياة اليومية، نستخدم هذا التصنيف عندما نقول أن الرأي الفلاني «ذاتي فقط»، على عكس الموضوعية المفترضة للعلوم التجريبية. يوجد في صميم هذا الفارق تصورٌ عن الكائن البشري كذات مستقلة، يتواجد فيما يشبه «عالمًا داخلياً» للعقل، والذي يُعتبر منفصلاً تماماً عن عالم الموجودات الخارجي. المشكلة في هذا الرأي هي أن رسم خط ثابت بين العالم الداخلي الذي يظهر للذات، والعالم الموجود موضوعياً خارجنا، يؤدي إلى قطيعة جذرية. حيث يصبح من المستحيل على ما يبدو إثبات أن المظاهر في أذهاننا تتوافق في الواقع مع أي شيء خارج أنفسنا في العالم «الموضوعي». وإذا

تتبعنا هذا المسار من التفكير، فربما سيبدو (من الناحية النظرية) أن الطريقة التي يبدو بها العالم لنا لا يمكن أن تكون أكثر واقعية من الهلوسة التي يواجهها باتمان عندما يصاب بغاز الخوف الخاص بالفزاعة!

في الاستجابة المتطرفة بالتأكيد للذاتي / الموضوعي، فإن مشكلة العالم الداخلي / الخارجي التي طُورت في كتابه الأهم الكينونة والزمن، فإن إدعاء هيدغر الأساسي هو أنه ببساطة لا يوجد فارق في العالم الداخلي / الخارجي ذو معنى بالنسبة للوجود الإنساني.¹ وعلى العكس من ذلك، يجادل هيدغر بأن الوجود الإنساني (الذي يطلق عليه الاسم التقني دازين، المفردة الألمانية التي تعني "الكينونة" أو، بمعناها الأكثر حرفية، "أن يكون هناك") هو دائماً "كائنٌ هناك في الخارج" بالفعل، في العالم، وبين الأشياء، وخارج ذاته.

كيف يمكن لهيدغر أن يخرج بمثل هذا الادعاء؟ إن من الواضح، ومن منظور علمي، بأننا موجودون في أجسامنا ومن خلالها؛ فإذا ما أخذ كيلر كرور قضمة هائلة من أدمغتنا، فلن يعد بإمكاننا الوجود. ولكن رد هيدغر على خط الإستنتاج هذا هو أن النهج الطبي يسترشد بنفس التفسير الفني للكينونة الذي قاد الفلاسفة إلى التمييز بين الذات والموضوع. وفي حين أنه قد يكون صالحاً وجيداً لأغراضه الخاصة (للعلوم الطبية أو لأجل تصميم قناع لكروك مقاوم للوطاويط)، فإن إعتبار الدماغ عالماً داخلياً في مواجهة العالم الخارجي لا يتضمن في جوهره حقاً ماذا يعني أن تكون إنساناً. وبدلاً من ذلك، يدعي تحليل هيدغر للوجود الإنساني أن نوعنا المعين من الوجود هو في الأساس "في العالم"، وهذا لا يعني فقط التواجد ضمن مساحة من الفضاء، ولكن أيضاً بمعنى المشاركة أو الانخراط الدائم في العالم.

لتوضيح إدعاء هيدغر حول أن الوجود الإنساني هو دائماً "الكينونة في العالم" وبالتالي دائماً خارج ذاته، فلننظر إلى طريقة ألفريد في الكينونة. كشخص عمل كرئيس خدام لسنوات طويلة، فإن لآلفريد نوعاً معيناً من الوجود، ووفقاً

لذلك، فإن عالمه موجود بطريقة محدّدة جداً. فعندما ينظر حول غرفة ما في قصر واين، فإن ألفريد لا يرى مجرد مجموعة "موضوعية" من المادة، مجرد ذرات متخذة تشكيلات معينة. بدلاً من ذلك فهو يرى ساعة الجدد التي يغطيها الغبار، وقطعة القماش التي سينظف بها الساعة من الغبار، والصينية الفضية التي سيحمل بها الشاي إلى السيد بروس، وهكذا دواليك. إنه لا يرى العالم من ناحية علمية موضوعية ولكنه يراه بدلاً من ذلك وفقاً لوجوده الذاتي. وما هو أكثر، ووفقاً لحجة هيدغر، فبقدر ما تكون هذه الأشياء "ما هي حقاً" أي شيء، فإنها في الحقيقة ليست سوى ما يفهمه منها ألفريد وفقاً لأفق التفسيري فقط. فإذا قمنا بسؤاله: "ما هي الصينية الفضية؟" فإن رده المتوقع سيكون: "إنها أداة أحمل بها الشاي إلى السيد بروس". أمّا بالنسبة لهيدغر، ومن منظور علمي، فيمكن تعريف الصينية الفضية بـ "أداة فضية مصقولة بالأبعاد الفلانية والفلانية"، وهذا هو أحد التعريفات المحتملة وفقاً لأحد الآفاق التفسيرية من بين العديد فقط؛ ففي الحين الذي يكون هذا التعريف مفيداً من الناحية التي نخدم أهدافه، فهو لا يزال ليس بأكثر صلاحاً إطلاقاً من ذلك النابع من منظور ألفريد (أو أي شخص آخر).

إن الاستنتاج الرئيسي الذي يمكننا استخلاصه من هذا الموقف هو أنه بالنسبة لهيدغر، فإن الإجابة الأساسية على سؤال معنى الكينونة هي أن ما هو كائن هو ما يبدو. فموجودات معينة في هذا العالم هي في الحقيقة ما تبديه من مظهر للملاحظين، بحيث يمكن أن توجد صينية ألفريد الفضية كأداة لنقل الشاي وكنموذج للدراسة العلمية، وذلك اعتماداً على الأفق التفسيري للملاحظ؛ ولا يوجد تفسير أصح من الآخر. ولإعادتنا لمشكلة الذات/ الموضوع، فإذا كانت الكينونة مظهرًا، فهذا يعني أيضاً أنه لا يوجد ببساطة عالم "موضوعي" محض لكي نفصل عنه. وبدلاً من عالم داخلي للذات بالإمكان فصله عن العالم الخارجي، يجادل هيدغر بأننا من الأساس دوماً خارجاً، في

العالم، وتعامل مع الأشياء كما تظهر أنفسها (أو كما نستطيع القول، كما توجد) من خلال آفاقنا التفسيرية؛ فالبشر موجودون ككائنات تهتم دائماً بالأشياء (وبالتالي ترتبط بها)، وتوجد الأشياء بمظاهرها ومن خلالها.

ومع ذلك، فالتفكير بصورة أعمق بشأن وجود ألفريد يقودنا لما يدّعي هيدغر حول أن هذه هي طريقة أكثر جوهرية ليكون فيها الوجود الإنساني دائماً خارج نفسه. كنّا قد قلنا بأن الأشياء تظهر نفسها لألفريد وفقاً لأفقه التفسيري، ولكن ما الذي يحدد هذا الأفق التفسيري؟ تكمن الإجابة في قضية ألفريد في كونه كبير خدم. حيث لا يرى باتمان الغبار فوق ساعة جده كشيء عليه القلق بشأنه؛ فهو ربما لا يلاحظ ذلك من الأساس. لكن، ولأن ألفريد كان قد اختار عيش حياته كخادم، فإن الغبار يمثل مشكلة بالنسبة له؛ حيث أنه شيء يجب أن يهتم به. إذ وفقاً لتوصيفات هيدغر، أن يكون خادماً هو مشروع بالنسبة لألفريد، حيث أنها طريقة للحياة لا تحدد فقط كيف يبدو العالم من حوله، ولكن كيف يربطه ذلك بمستقبله. ولأن ألفريد قد قبل بهذا المشروع، فإن الساعة شيء يجب أن يتم تنظيفه على الفور، والعشاء هو شيء يجب إعداده في الوقت الذي يصل فيه السيد واين إلى المنزل فوراً، والعيش كمساعد وفي لبائمان هو ما يخطط لأن يعيشه لما تبقى من حياته.

رُمي إلى عالمنا

مثلنا جميعاً، يرتبط ألفريد دائماً بمستقبله انطلاقاً من الحياة التي اختارها لنفسه، والمشاريع التي قام بها. علاوة على ذلك، فهذا يعني أيضاً أنه مرتبط دائماً بماضيه. ففي مرحلة ما من حياته، اختار ألفريد بين الإمكانيات المتاحة له وقرر أن يصبح خادماً. ولهذا السبب يصف هيدغر الوجود الإنساني بأنه «مشروع مرمي». لكوننا نجد أنفسنا أساساً مرميين في عالم ما، فأن عدداً من الإمكانيات المحددة سلفاً تقدّم نفسها لنا.. فعلى سبيل المثال، ربما يكون

ألفريد، كشاب، قد أتاحت له الفرصة ليصبح ممثلاً محترفاً أو موظفاً في السلك العسكري البريطاني. ولكن خياره لأن يصبح كبير خدم هو خيار قد أتخذه من بين العديد من الخيارات التي رُميت إليه كشخص ألقى في حال معين. وبعد اختياره للحياة التي سيعيشها، فإنه يرتبط الآن بمستقبله بطريقة تناسب مع (ويحددها) هذا الاختيار. وبهذا المعنى بالذات أدعى هيدغر أن الوجود الإنساني نشيط مؤقتاً. نحن البشر نعيش كما هو الحال دائماً خارج أنفسنا في الوقت الحاضر، متطلعين نحو المستقبل حتى نكون دائماً، إلى حد ما، سبّاقين من خلال الخطط التي وضعناها، وفي الوقت نفسه، يتم إلقاؤنا إلى حاضرنا من ماضي معين.

والأهم من ذلك بالنسبة لغرضنا، أن الطريقة النشيطة المؤقتة لوجود البشر تعني هيدغر أننا نمثل إمكاناتنا في الأساس. وتحدد الإمكانيات التي اخترناها في الماضي الإمكانيات المحددة المتاحة لنا في الوقت الحاضر والطريقة التي تظهر بها لنا، في حين أن توقعاتنا للمستقبل تحدد مدى ارتباطنا بتلك الاحتمالات الحالية. ولمواصلة مثالنا، فبعد أن اختار في وقت من الأوقات أن يكون خادماً، يجد ألفريد نفسه بين خيارين وهما إما أن ينظف الساعة من الغبار أو أن يحضر العشاء. ولأنه يريد الإستمرار بكونه خادماً فعلاً لبأتمان في المستقبل، فإن ألفريد سيختار الأفضل من بين تلك الخيارات التي ستأتي بالفائدة على مستقبله.

وبدلاً من ذلك، يمكننا أن نتخيل قصة من عوالم أخرى والتي يسأم فيها ألفريد من الخدمة بوفاء ويقرر أنه يريد أن يقضي بقية حياته في هدوء وسلام دون الحاجة إلى القلق بشأن ما إذا كان صاحب العمل سينجو ليلة أخرى من القتال ضد الجريمة. في هذه الحالة، فإن قرار ما إذا كان يجب أن ينظف أو يطبخ أولاً لن يكون له أي أهمية بالنسبة إلى ألفريد («يمكن لبأتمان أن ينظف ساعاته الخاصة، فلم تعد تلك الأشياء تهمني!»)، وهناك احتمالات أخرى ستقدم

نفسها بدلاً من ذلك (مثل ما إذا كان يجب الانتقال إلى مدينة أقل خطورة أم لا). في نهاية المطاف، تتمثل وجهة نظر هيدغر في أن مكان وزمان وجود شخص في أي وقت من الأوقات هو أقل أهمية في فهم الوجود الإنساني من ماضي ذلك الشخص وخطته للمستقبل. حيث يمكن أن نخبرنا دراسة علمية عن ألفريد أنه يعاني من الصلع ولديه شارب، لكنها لن تمكننا أبداً من فهم من هو حقاً دون معرفة الخيارات التي قام بها لنفسه والطريقة التي يريد للأمر أن تكون عليها غداً، أو الشهر المقبل، أو بعد عشر سنوات من الآن. بالنسبة لهيدغر، يتطلب فهم هذه الأشياء فهم وجود الفرد عن طريق الاحتمالات المختلفة التي اختارها لنفسه والإمكانات التي إنبثقت من المستقبل المخطط له.

فارس الظلام والموت

إذن ما علاقة هيدغر بمهمة باتمان؟ بكلمة واحدة: الموت. وكما يعرف حتى أقل متابعي لباتمان، فإن تجاربه مع الموت تلعب دوراً رئيسياً في جعله من هو. حيث تتضمن كل رواية لأصل باتمان المشهد الذي يشهد فيه بروس واين الشاب القتل المأساوي لوالديه، وعلينا نحن القراء أن نفهم أن هذه التجربة المؤلمة قد وضعت في طريقه لأن يصبح باتمان. لكن القصص المصورة (والأفلام) لا نخبرنا بالضبط كيف تشكل هذه التجربة الطريقة التي يختار بها باتمان أن يعيش حياته. وإذا ما تجاهلنا الفكرة عن باتمان كشخص عاجز عن مقاومة هواجسه ومهووس بالانتقام، (كما وعد رؤساء التحرير DC أن يفعلوا)، فما هو بالضبط تأثير مشاهدة بروس واين لعملية قتل والديه عليه؟ وكيف أدت هذه التجربة به لتولي مهمته هذه؟

وهنا يبرز تحليل هيدغر للوجود الإنساني. فبالنسبة لهيدغر، يتكون الوجود الإنساني أساساً من إمكانات الإنسان الخاصة، وبالطبع، سيكون الموت هو الحد الأقصى لتلك الإمكانات. ولكن بالنسبة إلى هيدغر، لا تكمن أهمية

الموت في كونه نهاية حياة المرء حرفياً، مثل نقطة على نهاية خط ما، بل لكونه يجعل البشر يدركون حقيقة أن حياتهم، وإمكانياتهم، لها حد معين. وعلى الرغم من أننا موجودون بطريقة نشطة دنيوياً، إلا أننا محدودون دنيوياً أيضاً، وما هو أكثر من ذلك، هو معرفتنا بهذا الأمر. وكما قد يقول هيدغر: "في البداية وإلى حد كبير"، لا يفكر البشر في موتهم؛ حيث أننا نجد طرقاً للتغطية على الموت وتجنبه. فنشغل أنفسنا بمشاريعنا، بالتعقيدات التي نواجهها، ونفكر بالموت عموماً كشيء يحدث لأشخاص آخرين. إن الاعتراف لأنفسنا بأن "الناس يموتون" هو أمر سهل بما فيه الكفاية، ولكن هناك شيء يثير القلق بشأن التفكير بـ "إنني سأموت". حيث يصف هيدغر الشعور غير المريح للمواجهة الأصلية للاحتمالية المؤكدة لموت الفرد بالقلق الوجودي، وعلى الرغم من أننا كمعجبين بباتمان على دراية بالقصص المصورة للأبطال الخارقين "التي تثير فينا القلق الوجودي"، إلا أن هيدغر معنى دقيقاً جداً لهذه الكلمة.

في اختبار القلق الوجودي، يجادل هيدغر أن الموت يبدو كما هو حقاً: إمكانية فنائي. فبمجرد أن أموت، لن يكون لدي أي إمكانيات. وبعد الموت، ستكون كل خياراتي قد تمت ونفذت بالفعل، وستكون قصة "من أنا" مكتملة. لهذا السبب يدعي هيدغر أن المواجهة الحقيقية مع الموت في القلق الوجودي هو ما يضيفي فريدة للوجود الإنساني. إذ عندما أواجه موتي، فأنا أرى أنه شيء لا يمكن لأي أحد أن يساعدي أمامه، شيء يتعين عليّ مواجهته بنفسي. وهذا بدوره يلقي بضوء جديد على حياتي كلها. إن إدراك موتي باعتباره النهاية التي لا مفر منها لحياتي يظهر لي أن وجودي هو ملكي وحدي. حيث ستكون قصة حياتي المكتملة نتيجة للإمكانيات التي اخترتها لنفسي من الوضع الذي كنت قد ألقيت إليه عند الولادة. وسأكون وحدي مسؤولاً عن كل ما كنته ومن كنته. وعلاوة على ذلك، ففي الخوف والقلق من الموت، تحتفي معاني جميع الأشياء العادية في العالم، بحيث لا يعود للأشياء في العالم صلة ببعضها بالمرة. إذا تخيلنا

ألفريد قلقاً وجودياً، فلن تكون الصينية الفضية وساعة الجد من الأمور التي تهمة. فعندما يتعلق الموضوع بموته بحق، فبكل بساطة، لن تبقى تلك الأمور تعني شيئاً له على الإطلاق.

لماذا يجب أن تكون المسألة هكذا؟ وذلك لأن مواجهة موتي يضع كل مشاريعي موضع تساؤل. فالأشياء تظهر لنا من حيث صلتها بمشاريعنا، ولكن عند النظر إلى حياة الفرد ككل والتي يجلبها قلقه الوجودي، فستظهر لنا مشاريعنا على حقيقتها: كامكانيات قمنا بأختيارها لأنفسنا. وفي طريقة حياتنا اليومية المعتادة، لا يسأل الناس غالباً عن الخيارات التي اتخذوها من أجل حياتهم. فآلفريد لا يستلقي على الفراش كل صباح ويتساءل عما إذا كان لديه أي سبب حقيقي للنهوض لأنه في معظم الوقت يفكر ببساطة بنفسه على أنه خادم، ويستيقظ الخدم في الصباح لأداء وظائفهم. ومع ذلك، في القلق الوجودي، فإن كونه خادماً سيظهر كخيار اتخذته آلفريد لنفسه، وفي إظهار ذلك كاحتمال، فإن كونه خادماً سيظهر كشيء قابل للتغيير. وبمعنى آخر، فلم يُكتب في لوحة الأقدار أن آلفريد يجب أن يكون خادماً لبقية حياته؛ حيث أنه يمكن أن يختار خلاف ذلك ويبدأ حياة مختلفة تماماً. بإختصار، يسمح القلق الوجودي للعالم كما هو عليه أن يتهشم، مما يجعل مشاريعك موضع تساؤل من خلال إظهارها كاحتمالات، والسماح للمرء بحرية اختياره حياة (وبالتالي عالماً) لنفسه.

يجب أن أصبح وطواطاً

مع إدراكه لفنائه، فإن باتمان سيكون قادراً على الحفاظ على عزيمته بشأن مهمته، ورؤية حياته وعالمه حصرياً من خلال المشروع الفريد الذي اختاره لنفسه. فبدلاً من الشعور بالذنب بسبب وفاة والديه (حدث لم يكن له سيطرة عليه حقاً) أو بسبب الحاجة العنيفة للانتقام من تلك الخسارة المؤلمة من مجرمين

لا علاقة لهم بها، فربما كان التأثير الحقيقي لتلك الليلة المصيرية أن تغرس في بروس واين الشاب فهماً حقيقياً لحياته على أنها محدودة وفانية. إذا كانت إدعاءات هيدغر حول علاقتنا بالموت صحيحة، فإن النظر في وفاته كقلق وجودي كان سيسمح لبروس بأن يقرر أي نوع من الحياة سوف يعيشها لنفسه دون أي اعتبار لما ينتظره منه ما يسمى بالمجتمع الطبيعي. ولأنه حر في تنظيم وجوده بالكامل حول مهمة من اختياره، ومقيد بالإمكانات التي وجد نفسه مرمياً في وسطها فقط (والتي لا تقيدك كثيراً عندما تكون وريثاً للمليارات)، فإن اعترافاً حقيقياً بموته المحتوم قد يكون سمح لبروس واين أن يصبح باتمان بدافع الإحساس بالمسؤولية عن وجوده بكل معنى الكلمة.

إلى حد ما، يتم دعم هذا التفسير الهيدغري لباتمان من قبل القصص المصورة. حيث توضح نهاية الفصل الأول من (1987 Batman: Year One) لفرانك ميلر بشكل جميل فكرة القلق الوجودي بأنها تمنح المرء حرية اختياره لحياته. فبعد أن أنهى سنواته التدريبية في الخارج، يعود بروس واين إلى غوثام. وعلى الرغم من أنه يريد اتخاذ موقف ضد المجرمين والفساد في مدينته، إلا أنه لم يجد بعد الوسائل المناسبة لتحقيق هدفه. وبعد محاولة فاشلة لمساعدة بائعة هوى دون السن القانونية، يجلس بروس بمفرده في الظلام، وينزف بغزارة، خائضاً حواراً خيالياً مع والده. وعلى الرغم من أنه يدرك أن جروحه شديدة لدرجة أنه من الممكن أن يموت، إلا أنه لا يشعر بالقلق الشديد حيالها. وبدلاً من ذلك، فهو يكون قلقاً من احتمال ألا يجد أبداً طريقة لفعل ما يشعر بأنه يجب عليه فعله. حيث يفكر داخل نفسه: "إذا قرعت الجرس، سيأتي ألفريد. وسيمكنه أن يوقف التزيف في الوقت المناسب"، ولكن بعد أن فقد صبره في انتظار تجلّي الحل المناسب له، يفضل بروس أن يموت الآن بدلاً من الاستمرار بعيش حياة لا تفي بالتوقعات التي وضعها لنفسه.

وبعد مواجهة فعلية مع الموت وتذكر الليلة التي توفي فيها والداه، يسترجع

بروس كل الإمكانيات التي يمكن أن يستفيد منها، إذا كان لديه فقط خطة ومشروع لتنظيمها: "لدي ثروة. ويقع قصر عائلتي فوق كهف ضخم سيكون مقراً مثالياً... حتى أنني أمتلك خادماً ذا تدريب في مجال الطب الحربي". ومع ذلك، فلا شيء من هذا سيكون مفيداً دون وجود مشروع منظم للاستفادة منه؛ فكما يقول بروس، لقد مرت ثمانية عشر عاماً "منذ بدأ كل شيء"، حيث كان قد خسر كل شيء ذي معنى في حياته مستسلماً لليأس تماماً دون أي أمل بمشروع يعيد المعنى لعالمه. ثم، ودون سابق إنذار، يقتحم وطواط نافذته، ليعيد تنظيم كل شيء. حيث أن إمكانية وجود مشروع من شأنه أن يعطي معنى لحياته ليظهر نفسه فجأة، قد وفر له إمكانية الاختيار. ففي اللحظة التي يقول فيها بروس لنفسه: "سأصبح وطواطاً"، سيمتلك معنى لوجوده وعالمه الجديد، ومن هذه النقطة وما بعدها، سيتم تحديد كل الأعمال التي سيقوم بها من خارج هذا العالم، من اختيار أصيل للحياة.

الحتمية وفارس الظلام

إذا ما عدنا الآن إلى الجدال بين الإرادة الحرة والحتمية في ضوء هذا المثال، فسيكون من السهل بما فيه الكفاية أن نرى لماذا لا يمكن لأي من هاتين الفئتين أن تحيط بجميع نواحي تحليل هيدغر لحرية الإنسان. ففي المقام الأول، تركز الإرادة الحرة أو الحتمية على نفس ثنائية الذاتي-الموضوعي حتى أن هيدغر يصمم على نقدها والتغلب عليها. حيث تعتمد نظريات الإرادة الحرة على فكرة أن الذات البشرية مفصولة جذرياً عن العالم «الخارجي»، بحيث لا يمكن تحديد اختيارات المرء من قبل أي شيء خارجي. 2

من ناحية أخرى، فإن الفهم النفسي والعلمي للحتمية يفسر الوجود الإنساني بنفس الأوصاف التي نطبقها على الأشياء التي يمكن أن تكون موجودة في متناولنا، بحيث لا يتم بأي حال من الأحوال استثناء الخيارات

البشرية من نظام السبب والنتيجة. وبما أنه لا يوجد أكثر من لحظات قليلة في سلسلة السببية الكبيرة، فإن الحتمية تتعامل مع الخيارات البشرية باعتبارها مجرد وهم تقرير المصير. وكما رأينا، فإن تفكير هيدغر يعقد بعمق هذا الانقسام الثنائي البسيط بين الوجود الإنساني والعالم من خلال إعادة تفسير مفهوم "العالم" نفسه. وعندما يواجه بروس محدوديته في قلقه الوجودي بشكل أصيل، فإن العالم الذي كان موجوداً بالنسبة له ينجرّف بعيداً، ويترك خياراته غير محددة بشكل جذري.

وعلى الرغم من ذلك، فإن خياراته تكون محدودة بسبب الاحتمالات المحددة المتاحة له والتي تظهر له الآن على أنها إمكانيات خالصة في ذات الوقت. لو لم يصطدم الوطواط بالنافذة، لربما لم تخطر على بال بروس فكرة أن يصبح باتمان، ولكن في نفس الوقت، فلا هذا الحدث، ولا وفاة والديه، يجبرانه على القيام بمهمته بالطريقة التي يقوم بها. في الواقع، تتيح تجربة القلق الوجودي لجميع إمكانياته إظهار نفسها كما هي. وهذا يعني أن إمكانية تحمل المسؤولية عن حياته الخاصة تظهر إلى جانب الاحتمالات التي تسمح له بالهرب من تلك المسؤولية بالضبط. حيث يمكن أن تنتهي تجربة الوفاة بقلق وجودي دائماً بهروب المرء من محدوديته والمسؤولية التي ورثها. كان يمكن لبروس أن يدفن تجربته مع القلق الوجودي بسهولة من خلال عيش حياة الرفاهية المتوقعة لكل ملياردير لعب. ولربما كان هذا الاختيار فقط، هذا الرفض للهروب من نفسه، ما جعل من باتمان بطلاً عظيماً. حيث عندما كان بإمكانه أن يسلك الطريق السهل، وعندما لم يجبره شيء على فعل ما فعل، اختار بروس واين بأصالة طريقة حياته الكليّة. لقد اختار أن يصبح باتمان عندما لم يكن هنالك شيء يطالبه بضرورة ذلك.

- 1- مارتين هيدغر، الكينونة والزمن، ترجمة جوان ستامباش، (Albany: SUNY Press 1996)؛ أقرأ أيضاً مقالات في دليل كامبريدج حول هيدغر، تحرير تشارلز غويغنون، (Cambridge: Cambridge Univ. Press 1993).
- 2- أقرأ، على سبيل المثال، المقالات الموجودة في كراسة أوكسفورد للإرادة الحرة، تحرير روبرت كين (Oxford: Oxford Univ. Press 2004).

الباب السادس

الصديق، الأب، . . المنافس؟ الأدوار الكثيرة التي يقوم بها الوطواط

17

لماذا باتمان أفضل من سوبرمان

بقلم: غالين فوريسمان

محبو باتمان وتاريخهم المؤلم

أحد النقاشات الأساسية المعتادة في عالم القصص المصورة هو المقارنة بين اثنين من عظماء الأبطال الخارقين وربما هي المقارنة الأكثر شهرة من بين جميع المقارنات، هي تلك التي بين باتمان وسوبرمان. ولسوء الحظ، ففي كثير من الأحيان يتم إقصاء باتمان دون محاكمة بسبب افتقاره إلى أي قوى خارقة، تاركين عشاق باتمان وهم يتباكون. في هذا الفصل - وكبطل خارق عظيم - سيساعد باتمان هؤلاء العشاق على تقديم مقدمة مختصرة عن نظرية القيمة، وتحديدًا حول فكرة «التفضيل».

وكما كنّا قد شاهدنا في (Batman: Year One 1987)، فقد انتهت ليلة باتمان الأولى في شوارع غوثام بشكل كارثي. حيث دخل بروس واين المعركة غير مهياً تماماً. صحيح أنه كان قد تدرّب على فنون القتال لسنوات، ولكن بغض النظر عمّا تعرضه لنا الأفلام، فإذا هاجمه عدد كاف من الرجال في وقت واحد، فلن يكون كل هذا التدريب كافياً. تعلم بروس درساً من تلك المغامرة الصغيرة، ومنها طور شخصية باتمان. ونحن بدورنا يمكننا أن نتعلم من هذه المغامرة الصغيرة أيضاً أن لا نورّط أنفسنا في مشاجرة ضد أنصار سوبرمان المخلصين دون تبني شخصية خاصة بنا.

عرف بروس أن المجرمين جنّاء ويؤمنون بالخرافات، وأن أفضل طريقة للقبض عليهم هي بتخويفهم. إن تجربة الطفولة خاصته في البئر (الذي أصبح فيما بعد كهف الوطواط)، واشتباكه مع وطواط في إحدى غرف منزله، قد أقنعت بروس بإرتداء عباءته وقناعه الشهيرين.

في مملكة الجدالات والخلافات، ليس هناك شخصية أفضل من الفيلسوف. من المؤكد أنه ليس مخيفاً كرجل يتنكر بزي وطواط - ففي كثير من الحالات يكون الفلاسفة مضحكين للغاية - إلا أن الفلاسفة مدربون بشكل خاص على الجدال. فعندما تحتاج إلى زرع الخوف في نفس العدو، كن مثل الوطواط، سوداوي، ومتخفٍ، ومرعب. ولكن عندما تحتاج إلى تغيير عقل شخص حول شيء ما، فكن كالفيلسوف - حذر، ومراوغ، وصلب. وبشكل أكثر تحديداً، إذا كنت تحاول إقناع شخص ما بأن شيئاً ما "أفضل من" شيءٍ آخر، فكن مثل منظر القيمة.

إن نظرية القيمة هي مجال الفلسفة الذي يهتم في المقام الأول بدراسة القيمة والتقييم. والتقييم هو عملية تحديد مدى جودة أو سوء شيء ما، أمّا القيمة فهي التي تجعل هذا الشيء جيداً. فعلى سبيل المثال، قد نفترض أن

”كونه رائعاً“ هو أحد الخصائص التي تجعل شيئاً ما جيداً. لذا وبطريقة ما، فإن كونه رائعاً يمثل لنا قيمة من نوع ما. وعندما نقيم شيئاً رائعاً، كالباتمويل، فإننا سنحتسب قيمة الروعة كأحد الأسباب التي تجعل الباتمويل جيدة. ولسوء الحظ، فإن ليس من الواضح ماهية القيم تحديداً. فـ”عامل الروعة“ هو مجرد مثال على ماهية القيم، ولكن من غير المحتمل أن يكون مرشحاً فعلياً للقيمة الحقيقية.

تكرس معظم نظرية القيمة لمعرفة ما الذي يلخص القيمة، ومن بين أمور أخرى، يحاول منظرو القيمة معرفة الفرق بين الشيء القيم وبين الشيء غير القيم. ويهتم منظري القيمة أيضاً بشكل خاص بكيفية أن يكون شيء ما ”أفضل من“ أو ”أسوأ من“ شيء آخر. وفي موضوعنا هنا، نريد أن نكون مثل منظري القيمة، لأننا نريد أن نعرف ما الذي يجعل باتمان أفضل من سوبرمان.

الآن، ومن خلال تقمص شخصيتنا الفلسفية كمنظري قيمة، يمكننا مواصلة سعيها. الخطوة الأولى هي تعزيز ما في جعبتنا ببعض المفردات التي سوف تساعدنا في طريقنا. حين نقول بأن باتمان أفضل من سوبرمان، فإننا نجري مقارنة تقييمية. إذ تعدّ المقارنات شائعة جداً في حياتنا اليومية، ولكن الكثير منها ليس تقييمياً بالضرورة. ففي بعض الأحيان نحاول فقط توضيح كيف أن شيئين متشابهان أو مختلفان دون أن نقول إن أحدهما أفضل من الآخر. وسنسمي هذه المقارنات بالوصفية. وكمثال على المقارنات الوصفية هو الإشارة لإحدى السيارات بالزرقاء والأخرى بالسوداء. حيث إذا ما كان هدفنا الوحيد هو توضيح مدى اختلاف السيارتين، فإننا لا نجري مقارنة تقييمية.

تعتمد المقارنة التقييمية على تقييمنا للعديد من الأشياء، وتُجرى التقييمات أساساً بمدى جودة أو مدى سوء شيء ما. وبالتالي، تحدث مقارنة

تقييمية عندما نأخذ تقييمنا لشيء ما ونقارنه بتقييمنا لشيء آخر. فعلى سبيل المثال، إذا قمنا بتقييم السيارة السوداء وحددنا أنها جيدة حقاً، ثم قمنا بتقييم السيارة الزرقاء وقررنا بأنها سيئة حقاً، فسيمكثنا مقارنة هذه التقييمات مع بعضها والاستنتاج بأن السيارة السوداء أفضل من السيارة الزرقاء. وبالقيام بذلك، سنكون قد أجرينا مقارنة تقييمية.

هذه المفردات المضافة توالاً لحصيلتنا ستساعدنا لوصف مسعانا. حيث تدور رحى المعركة بين محبي باتمان ومحبي سوبرمان والخارقة وهو نزاع حول مقارنة تقييمية. فيعتقد محبو باتمان أن باتمان جيد حقاً وأن سوبرمان ليس جيداً جداً، وبالتالي يستنتجون أن باتمان أفضل من سوبرمان. حيث يقوم محبو باتمان بمقارنة تقييماتهم لهذين البطلين الخارقين. وستتوقف صحة حكمهم بشكل حاسم على ما إذا كانت تقييماتهم الأساسية لهذين البطلين العظمين صحيحة. ومع ذلك، لا يمكننا حل هذا اللغز دون القيام ببعض أعمال التحري عن خلفياتهم.

قصة الأصل: كيف نقوم بمقارنات تقييمية؟

تشبه المقارنة التقييمية بين باتمان وسوبرمان إلى حد كبير أي مقارنة تقييمية أجريناها في حياتنا، ولذلك فهناك شيء يمكن تعلمه عن طريق فحص كيفية إجرائنا لهذه التقييمات في الماضي. على سبيل المثال، فإن المقارنات التقييمية التي أجريناها ذات مرة كأطفال لا تظهر دائماً كما هي عند إجراء المقارنات كبالغين. وإذا كنّا صادقين مع أنفسنا، فعندما كنّا من محبي باتمان كأطفال غير ناضجين، فربما نكون قد أحببنا أيضاً سوبرمان وكل قواه الخارقة. والأكثر من ذلك، هو أننا قد نواجه صعوبة في شرح سبب تغيير آرائنا. وعندما يحارب باتمان الجريمة، فكلنا نعرف لماذا يفعل ذلك. حيث أننا نعلم ما فعله جو تشيل مع والديه. إن قصة أصل باتمان تساعد في

توضيح سبب قيامه بما يفعله كبالغ، وبطريقة مماثلة، فنحن نمتلك قصص أصل أيضاً. لذلك دعونا نتوقف لحظة لاستكشاف قصصنا الأصلية لنرى كيف وصلنا لإجراء مقارنات تقييمية بالطريقة التي نقوم بها. ومن خلال القيام بذلك، فقد نكون قادرين على التركيز على سبب صعوبة تبرير مقارنتنا التقييمية بأن باتمان هو أفضل من سوبرمان.

عندما كان أغلبنا صغاراً، كانت المقارنات التقييمية للآيس كريم تدور حول كمية الآيس كريم التي سنحصل عليها. بعبارة أخرى، كلما كان طبق الآيس كريم أكبر، كان أفضل، وبين طبقين من الآيس كريم، كان الطبق الأكبر هو الأفضل. سنسمي هذه الطريقة المبسطة لوضع المقارنات التقييمية بالطريقة الكمية. حيث أن التقييمات الكمية هي تقييمات تستند إلى مقدار أو عدد شيء ما. فعندما تنتقل إلى مقارنة تلك التقييمات التي تستند فقط إلى الاختلافات في الكمية أو العدد، فنحن نجري مقارنات تقييمية كمية.

ولكن بعدما نشأنا وأصبحنا أكثر تعقيداً في أذواقنا، لم تعد مجرد كمية كبيرة من الآيس كريم كافية لإقناعنا. حيث بدأنا نفضل أشياء كالشوكولاتة على الفانिला، لذلك اتخذت مقارناتنا التقييمية جوانب جديدة أكثر تعقيداً. حيث تأخذنا تقييماتنا الكمية إلى ذلك البعد فقط، لأننا بدأنا الآن ندرك أن الاختلافات النوعية في الأشياء تجعل أحياناً الكميات الأصغر أفضل من الكميات الأكبر. لتفترض بأنك تعتقد أن الشوكولاتة أفضل من الفانिला، فإذا كان عليك تقييم ومقارنة وعاء من الآيس كريم بالشوكولاتة بوعاء من الآيس كريم بالفانिला، فمن المحتمل أن الآيس كريم بالشوكولاتة سيكون أفضل بالنسبة لك. سنطلق على هذا النوع من المقارنة التقييمية بالمقارنة التقييمية النوعية.

ثم تصبح تقييماتنا ومقارناتنا أكثر صعوبة عند مزج الجوانب الكمية والنوعية للأشياء معاً. فعلى سبيل المثال، إذا كنت بحاجة إلى تقييم وعاء

كبير من الآيس كريم بالفانيلا مقابل ملعقة من الشوكولاتة، فإنك تواجه التحدي الصعب المتمثل في تحديد أي خيار منهما هو أفضل من الآخر عن طريق مزج التقييم الكمي والنوعي. فإذا كنت تكره الفانيلا حقاً، فلن تكون أي كمية منه مناسبة لإستمتالك. ولكن ماذا لو كنت تعتقد بأن آيس كريم الفانيلا هو خيار لا بأس به؟ هل سيكون حينها الكثير من الآيس كريم ذي المذاق الذي لا بأس به أفضل من ملعقة صغيرة من الآيس كريم ذي الطعم اللذيذ جداً؟

الآن أظن بأن معظم محبي سوبرمان قد سئموا من القراءة عن التقييم والمقارنة والآيس كريم. فقصص أصول تلك الشخصيات تجعلهم يفكرون كمياً: حيث المزيد من القوة هو أفضل. وربما يفسر هذا سبب تحولهم إلى شيء لا يأخذ الكثير من الشجاعة الفكرية. من ناحية أخرى، فقد تمت مكافأة جهود محبي باتمان من خلال معرفة ما يجعل المقارنة بين باتمان وسوبرمان صعبة للغاية. وإذا كنّا قد تعلمنا أي شيء من باتمان فهو أن معرفة المشكلة وفهمها ضروريان لحلها. (لهذا السبب نعتقد أن الأشرار أغبياء جداً لمشاركة مخططاتهم الشريرة مع الأبطال بمجرد القبض عليهم). يمكننا تلخيص المشكلة بهذا الشكل: إن مقارنة باتمان وسوبرمان تشبه مقارنة طبقين من الآيس كريم فيهما الكثير من الصفات المتنوعة ضمن كميات مختلفة. إن إدراك صعوبة إجراء مقارنة بسيطة بين نوعين للآيس كريم في بعض الأحيان يساعدنا على إدراك الصعوبة الكبيرة في مقارنة اثنين من الأبطال الخارقين. ولكنني واثق من أن محبي باتمان يشبهون بطلهم الشجاع (والذكي)، ولذا فهم على مستوى التحدي. (لا تحذلوني!).

مكمن الشر: التهرب من السؤال

لقد قطعنا شوطاً طويلاً، أيها المحبون، ولكن قبل الانتقال إلى قلب هذا

النقاش، فمن المفيد ملاحظة وجود مغالطة مهمة يميل الناس لارتكابها عند التقييم والمقارنة. وهذه المغالطة هي مكنن الشر في معظم خلافات المقارنة التقييمية مثل خلاف باآمان وسوبرمان، ومن المهم بشكل خاص الانتباه إليها حتى لا نفع فيها بدورنا. والمغالطة التي أشير إليها هي استراتيجية جدلية عامة تسمى بـ«المصادرة على المطلوب»، وهي أسلوب حاذق ومخادع - بعبارة أخرى، مزيف - يمكن استخدامها في أي جدال تقريباً. وهي ذات صلة بخلاف باآمان وسوبرمان لأنها تُستخدم بشكل شائع عندما نضع قوائم من النقاط الإيجابية والسلبية لإجراء مقارنات تقييمية صعبة.

إن «المصادرة على المطلوب» هو مصطلح يساء استخدامه هذه الأيام. فكثيراً ما نسمع الناس يقولون أشياء مثل «إنه يصادر على المطلوب» عندما يكون ما يعنونه حقاً هو «إنه يثير سؤالاً»، وما يعنيه الفلاسفة عندما يقولون بأن شيئاً يصادر على المطلوب هو أن الحجة تتخذ حقيقة الاستنتاج من مقدماته المنطقية، في حين يفترض أن الحجة الجيدة ستدعم نهايتها بالأدلة أو الأسباب التي يمكن للناس الاتفاق عليها بصرف النظر عن الاستنتاج.

فعلى سبيل المثال، لنفترض بأننا أنا وأنت كنا نتجادل حول ما إذا كانت الفانيلا نكهة أفضل من الشوكولاتة أم لا. أنا أعتقد أن الفانيلا أفضل من الشوكولاتة، ولكي أقنعك بأنّي على صواب في اعتقادي بهذا الأمر، سأقوم بصياغة الحجة التالية: «الفانيلا أفضل من الشوكولاتة، لأن الفانيلا هي أفضل نكهة في العالم». إن الاستنتاج هو أن الفانيلا هي أفضل من الشوكولاتة، والسبب وراء هذا الاستنتاج يأتي من حقيقة أن الفانيلا هي أفضل نكهة في العالم. عندما ندرس هذه الحجة، سيمكننا أن نرى أنه إذا كانت الفانيلا هي بالفعل أفضل نكهة في العالم، فيجب أن تكون أفضل من الشوكولاتة. ولكن المشكلة هي أنه إذا كنت لا تعتقد بأن الفانيلا أفضل من الشوكولاتة، فلن تكون مقتنعاً بالسبب الذي يقول بأن الفانيلا هي أفضل

نكهة في العالم. ولكي تكون الفانिला أفضل نكهة في العالم، فيجب أن تكون الفانिला أفضل من الشوكولاتة. ولسوء الحظ، تفترض حجتنا الأصلية بأن الفانिला هي أفضل نكهة في العالم، وبالتالي تفترض أن الاستنتاج الآخر صحيح أيضاً. لذلك، فإنها تصدر على المطلوب.

في الخلاف حول باتمان وسوبرمان، نواجه نفس مشكلة المصادرة على المطلوب. في هذه الحجج، تُتخذ قوى سوبرمان الخارقة مراراً وتكراراً كسبب في كون سوبرمان أفضل من باتمان. ولكن كما هو الحال في خلاف الشوكولاتة والفانिला، ما لم تتفق بالفعل على أن القوى العظمى تصنع أفضل أبطال خارقين، فأنت لن توافق على استنتاج محبي سوبرمان. منذ عقود كثيرة، كان محبي سوبرمان يستخدمون هذه الحجة الزائفة لتقويض أولوية باتمان، وهذا شرٌّ ماكرٌ يجب أن نوقفه عند حده. (هيا إلى مركبة الفلسفة!).

كما نعلم جميعاً عند التصدي لأي شرير، فمن المهم جداً تجنب الانحدار إلى مستوى ذلك الشرير. ويعني ذلك، في هذه الحالة بالذات، تجنب استخدام المصادرة على المطلوب ضد محبي سوبرمان. ولتجنب خطأ محبي سوبرمان ومساعدتهم على رؤية الخطأ في رأيهم، سنحتاج إلى استكشاف مصدر خطئهم مرة أخرى. وعندما كنا نستكشف قصة أصلنا، لاحظنا بأن من الصعب للغاية تبرير مقارنة تقييمية عند مزج التقييمات الكمية والنوعية، وهو ما نقوم به عندما نصرّح بأن باتمان هو أفضل من سوبرمان. وواحدة من أكثر الطرق شيوعاً للتغلب على هذه الصعوبات هي سرد إيجابيات وسلبيات الأشياء التي نقارنها. ومع ذلك، فهذه الطريقة بالذات حول الاختيار بين خيارين جيدين ربما ستجعلنا نصادر على المطلوب.

عندما نضع قائمة بالإيجابيات والسلبيات، فإننا نضع افتراضات حول ما يجب اعتباره إيجابياً أو سلبياً. وهذا يعني أنك لا تقدم سبباً حول وضع شيء ما على الجانب الإيجابي، وشيء آخر على الجانب السلبي. إنك تفترض

ببساطة أن سمات معينة هي إيجابيات بينما الأخرى هي سلبيات. إذا فعلت شيئاً مشابهاً مع باتمان وسوبرمان، فستألف قوائمك لإيجابيات وسلبيات كل بطل خارق من سمات الأبطال الخارقين التي تفترض أنت أنها جيدة أو سيئة. إنها مشكلة، وهذه المشكلة ستوفر أرضاً خصبة لظهور مغالطة المصادرة على المطلوب.

عندما يضع أحد محبي سوبرمان قائمة الإيجابيات الخاصة بهم، فمن المحتمل أن تكون مليئة بأشياء مثل الرؤية بالأشعة السينية، والقوة الخارقة، والقدرة على الطيران. أمّا عندما يضع نفس المحب لسوبرمان قائمة لباتمان، فربما سيشير إلى افتقار باتمان إلى الرؤية بالأشعة السينية، والقوة الخارقة، والقدرة على الطيران كسلبيات لباتمان. لكن من الواضح أن هذا التقييم غير منصف لباتمان، لأن باتمان لا يحتاج إلى تلك القدرات الخارقة ليكون عظيماً. ويتم المصادرة على المطلوب ضد عظمة باتمان حينما يفترض محبو سوبرمان بأن امتلاك باتمان لتلك الخصائص الخارقة هو شرط للعظمة.

من ناحية أخرى، يجب على محبي باتمان أن يتجنبوا وضع قوائم مبنية على افتراض أن الميزات التي يمتلكها باتمان وحده هي الجيدة. حيث أنني أتردد في الإشارة إلى عدد المرات التي قال فيها محبو باتمان بأن باتمان أفضل لكونه أكثر ذكاءً. وعلى الرغم من أن هذا صحيح بالتأكيد، إلا أنه يسقط في نفس مغالطة المصادرة على المطلوب. إذاً، ما الذي يجعلنا نحن محبي باتمان نعتقد بأن كون المرء شديد الذكاء هو شيء عظيم جداً؟ إذ يجب أن يكون لدينا سبب وجيه للتفكير بأن هذا السبب مستقل عن تقييمنا لباتمان، قبل أن نتمكن من استخدامه كسبب لتبرير عظمة باتمان. دعونا نلقي نظرة الآن على حجة مماثلة للتأكيد على الخطأ الذي يتم ارتكابه عندما يفترض محبو باتمان هذا.

لنفترض بأننا قدمنا قائمة بإيجابيات وسلبيات باتمان. حيث لباتمان

الكثير من الأدوات الذكية، وهو يحتاجها. فما هي الخانة التي يجب أن نضع فيها استخدامه للأدوات الذكية، الإيجابية أم السلبية؟ كنت لأضعها في خانة الإيجابيات، كما أظن أن العديد من محبيه الآخرين سيفعلون ذلك. ولكن لأي سبب؟ إليكم أحد الأسباب التي لا نستطيع استخدامها: باتمان عظيم ولذا يجب أن تكون أدواته الذكية إضافة إيجابية له. بالطبع فإن هذا سيعتبر مصادرة على المطلوب، لأننا نحاول معرفة السبب الذي يجعل من باتمان عظيماً للغاية. أمّا إذا كنت تريد تبني هذه الحجة، فيجب أن تكون بالشكل التالي: إن باتمان عظيم لأنه يمتلك أدوات ذكية، ويجب أن تكون أدواته الذكية إضافة إيجابية له لكونه عظيماً. حيث تدور هذه الحجة في دائرة. ولتجنب المصادرة على المطلوب، فسنحتاج إلى تسوية هذه الدائرة. وللقيام بذلك، سنحتاج إلى تبرير عظمة باتمان بشكل مستقل عن شعورنا تجاه باتمان.

إليكم هذا الاختبار كمحبين لباتمان: أشرحوا ما الذي يجعل من باتمان أفضل من سوبرمان دون افتراض أن جميع الأشياء التي لدى باتمان هي أفضل من الخصائص التي يمتلكها سوبرمان بالفعل. لو تبادر لذهننا ما الذي أوصلنا إلى هذه النقطة من النقاش، فيمكننا الرجوع لمعرفة أين انبثقت بعض الإشكالات المنطقية الرئيسية. فعلى وجه الخصوص، فكر في وضع قوائم للإيجابيات والسلبيات. حيث تبدأ هذه القوائم بافتراض أن بعض الأشياء جيدة وبعضها سيئ، على الرغم من أنها لا تخبرنا لماذا نعتقد بأنها جيدة أو سيئة. ولتجنب ارتكاب مغالطة المصادرة على المطلوب عند مقارنة باتمان بسوبرمان، فسنحتاج أولاً إلى تحديد ما الذي يجعل البطل الخارق عظيماً ثم معرفة ما إذا كان لدى باتمان أو سوبرمان تلك الميزات. بمعنى آخر، سيكون عليك اكتشاف أنواع الأشياء التي تنتمي إلى قائمة الإيجابيات والسلبيات قبل تقييم الأبطال الخارقين بشكل فردي.

استعادة العدالة: الأبطال الخارقون والشجاعة

لا شك بأن القسم الأخير قد انتهى بمهمة صعبة، لكن هذا ليس وقت اليأس. فقد اكتشفنا ضعفاً كبيراً في هذه الاستراتيجيات الجدلية الشريرة، والآن قد حان الوقت لتقديمها إلى العدالة. ولإنجاز هذه المهمة الصعبة، سنحتاج إلى اتخاذ قرار بشأن بعض الخصائص الأساسية للأبطال الخارقين. يمكننا بعد ذلك استخدام هذه الخصائص الأساسية لوضع قائمة بإيجابيات وسلبيات كل من باتمان وسوبرمان بحيث لا تكون عرضة لاستخدام مغالطة المصادرة على المطلوب لصالح أحدهما. ثم ستخبرنا تلك القوائم بمن هو البطل الخارق الأفضل بينهما.

يجب أن تكون قائمة الخصائص الأساسية الخاصة بنا مختصرة، لأن الأمر سيستغرق كتاباً كاملاً إذا ما أردنا تغطية هذه المسألة تماماً. وتحفيزك للحصول على فكرة عن كيفية البدء في التفكير في حل هذه المقارنة بين باتمان وسوبرمان. سأقدم حجة واحدة ممكنة. قد لا تكون حجتي محكمة، ولكنها قد تبدأ نقاشاً مثمراً حول ما الذي يعنيه أن تكون بطلاً خارقاً، وما الذي يجعل باتمان يناسب هذا القالب أكثر من سوبرمان.

وقبل أن نغوص في سرد الحجة -لأننا نعلم أن الأمر عادةً ما سيتحول ليكون سيئاً - فهذه هي خطتي للهجوم. إن الأبطال الخارقين الجيدين يجب أن يكونوا بطوليين، ولكي يكون الشخص بطولياً، يجب أن يكون جريئاً أو شجاعاً. وباتمان أكثر جرأة وشجاعة من سوبرمان، لذا فهو أكثر بطولية. وكلما كان البطل الخارق أكثر بطولية، كان ذلك البطل الخارق أفضل، وبما أن باتمان هو أكثر بطولية من سوبرمان، فيمكننا أن نستنتج بأن باتمان هو بطل خارق أفضل من سوبرمان. ولرؤية كيف تعمل هذه الحجة، دعونا نفترض بطلاً خارقاً لنرى كيف يقارن مع هؤلاء العظماء.

تحيل، للحظة، أن يظهر بطل خارق لديه القدرة على صنع الجوارب على أقدام الناس من خلال التصفيق بيديه. وهذه الجوارب مريحة للغاية ودائمة. وفي كل مرة يقوم فيها هذا البطل الخارق بذلك، فهو يصاب بصداع صغير. إنه يحب مساعدة الناس، ولذا فهو يتحمل في كثير من الأحيان الصداع لتوفير الجوارب لمئات الآلاف من الناس في جميع أنحاء العالم. إنه يستطيع فعل شيء لا يمكن للناس العاديين القيام به، ويقدم تضحية شخصية لأجل مساعدة الناس في كل مرة يتحمل فيها الصداع. إنه بطل خارق، ونحن مهتمون، بالطبع، بتحديد مدى أهمية هذا "Argyled Avenger" البطل المزرکش "حقاً.

لقد اقترحت بأن هناك شيئاً واحداً يفصل الأبطال الخارقين العظماء عن الآخرين الأقل عظمة وهي الجرأة والشجاعة. وهناك، بالطبع، عوامل أخرى مثل عظمة أهدافهم، وهذه الحجة سنفترض بأن باتمان وسوبرمان متساويان في هذا الأمر. إن البطل المزرکش هو بطل خارق كذلك، ولكنه ليس رائعاً لأن بطولته تأتي من وضع الجوارب على أقدام الناس مقابل معاناته من صداع صغير. ولو كان يخاطر بحياته بطريقة أو بأخرى للقيام بهذه الخدمة الرائعة، فمن المحتمل أن نتحدث عنه بأكثر من كونه بطلاً خارق، على الرغم من أن أهدافه ليست بدرجة سمو أهداف باتمان وسوبرمان. إن الجرأة والشجاعة، إذن، أمر أساسي لتقييم البطل الخارق. حيث لو كان البطل الخارق ليس بتلك الجرأة والشجاعة، فهو لن يكون بتلك العظمة أيضاً.

ما الذي يتطلبه الأمر لكي تكون جريئاً أو شجاعاً؟ حيث لا يمثل تحمل الصداع شجاعة كبيرة، حتى لو كان تضحية لأجل مساعدة الآخرين. ولكن لماذا لا يمثل هذا الصداع الدائم شجاعة كبيرة؟ أحد الأسباب هو أننا لا نعتقد بأن الألم الدائم مؤهل ليعتبر مخاطرة، ونعتقد أن القيام بأشياء خطيرة يمكن أن تعني بأن الشخص القائم بها شجاع. إذ قد يؤدي الذهاب

إلى العمل إلى إصابة معظم الناس بصداع، لكننا لن نستلم شهادات بسالة لحضورنا الدائم. ومن ناحية أخرى، فعندما يواجه شخص ما خطراً لمساعدة الآخرين، فإننا عادة ما نقول إن هذا الشخص شجاع.

من المهم أيضاً أن يعلم البطل أن ما يفعله هو أمر خطير حتى نفكر بهم كأمثلة للجرأة والشجاعة. فعلى سبيل المثال، هناك فرق كبير بين الشخص الذي يركض في مبنى محترق لإنقاذ الأطفال في الوقت الذي يعلم فيه أنه قد ينهار في أي لحظة، والشخص الذي يركض معتقداً بأن هذه النار صغيرة ومن غير المرجح أن تضربه. فالشخص الشجاع يفهم أن ما يفعله أمر خطير ولكنه يواجهه على أي حال.

والآن لنعد إلى باتمان وسوبرمان. إن لكليهما أهدافاً سامية متمثلة في إنقاذ الأرواح والحفاظ على العدالة، ولكن واحداً منها فقط يواجه الخطر بشكل طبيعي ويعرف ذلك. واحد منهم فقط هو جريء وشجاع باستمرار، في حين أن الآخر يشبه إلى حد كبير البطل المزركش.

لا يمتلك باتمان أي قوى خارقة، فهو ليس مضاد للرصاص، ولا يستطيع الطيران، ولا يستطيع أن ينظر من خلال الجدران لمعرفة ما يحدث ورائها، والأكثر من ذلك، فهو ذكي بما يكفي ليعلم أنه يعرض نفسه باستمرار للخطر لأجل مساعدة الآخرين. لذلك فإن باتمان أكثر جرأة وشجاعة من سوبرمان. بمعنى آخر، فإن باتمان يتحمل مخاطر أكبر لمساعدة الناس أكثر من سوبرمان. وفي هذا الصدد، فإن باتمان أفضل من سوبرمان، مما يعني أنه في قائمة الإيجابيات والسلبيات، باتمان هو بطل خارق أفضل من سوبرمان وبفارق مهم للغاية.

حسب تقديرنا، فقد توصلنا إلى هذا الاستنتاج دون أن نستخدم مغالطة المصادرة على المطلوب ضد سوبرمان. إذ لم يكن علينا النزول إلى مستوى محبي سوبرمان. حيث تم تحقيق هدفنا من خلال التفكير في ما الذي يجعل

الأبطال الخارقين عظماء قبل أن نطبق معاييرنا على تقييمنا، وكان نموذجنا الخيالي - البطل المزرکش - نقيضاً مفيداً لمساعدتنا في تقييم جميع الأبطال الخارقين. (هل رأيت؟ لقد كان مفيداً بعد كل شيء!).

يُتبع..

إن هذا لا ينهي النقاش بالطبع. حيث أظن أن بعض محبي سوبرمان الذين سئموا من تعلم كيفية التفكير بإنصاف اختاروا الانتقال إلى نهاية هذا الفصل لمعرفة الاستنتاج، وذلك منحهم وقتاً للتفكير في العديد من الاعتراضات على حججي ضد شجاعة سوبرمان. صحيح أن سوبرمان، في بعض الأحيان، شجاع، وصحيح أيضاً أن باتمان في بعض الأحيان لا يكون شجاعاً. فبعد كل شيء، ستساعد دروع باتمان في صد الرصاص أو تساعده طائرته على الطيران، ولكن المقارنة الكمية البسيطة هنا هي أنه في أكثر الأحيان، يكون باتمان أكثر بطولية من سوبرمان. المفارقة العظيمة في هذا كله هي أن الأشياء التي يحبها الكثير من محبي سوبرمان حول سوبرمان، كل ما يمثل قواه الخارقة، هي نفسها الأشياء التي تمنعه من أن يكون أفضل من باتمان. فبعد كل شيء، ألا يكون سوبرمان في أوج بطوليته عندما يكون حجر الكريبتونايت أو السحر موجوداً؟ يبدو بأن قلة تواجد الكريبتونايت هو أمر سيء بالنسبة لمحبي سوبرمان!¹

1- أود شكر كل من تشارلز متيفير وجون ريدوي لإلهامهم المؤلف بالكثير من الأفكار الإضافية لهذا الفصل.

مكتبة
t.me/t_pdf

الصديق الأفضل في العالم؟

باتمان، سوبرمان، وطبيعة الصداقة

بقلم: دانيال ب. مالوي

«لن يختار أحد الحياة دون أصدقاء حتى لو امتلك كل عناصر الترف الأخرى».

- أرسطو، الأخلاق النيقوماخية

«لا أعلمكم القريب، بل الصديق أعلمكم. ليكون الصديق حفل الأرض بالنسبة لكم ونكهة أولى تستبق مجيء الإنسان الأعلى».

- نيتشه، هكذا تكلم زرادشت

الأفضل في العالم

من بين جميع الأبطال الخارقين في القصص المصورة، لا يوجد من يرمز للتناقض أكثر من ثنائي باتمان وسوبرمان، الفريق الأفضل في العالم. فأحدهما يمثل ذروة الكمال والإرادة الإنسانية، وهو رجل عادي قطع وعدًا

غير عادي في الليلة التي قُتل فيها والداه أمام عينيهِ وكرس كل لحظة في حياته لتحقيقه منذ ذلك الحين. والآخر هو الابن الأخير لجنس فضائي ميت، أرسل للأرض كمحاولة يائسة، تم تبنيه من قبل زوجين مزارعين لا أطفال لهما، ليربياه على قيمهما التقليدية. ولكنه مبارك بحمض نووي فضائي جعله يتمتع بقوى وقدرات تفوق بكثير قدرات البشر.

إضافةً إلى الاختلافات في أصولهم وقدراتهم، فهناك اختلافات جوهرية في أساليبهم أيضاً. قارن فقط بين ازياثهم: حيث تظهر شخصية باتمان بزي مقنع داكن يتناقض تناقضاً كبيراً مع زي سوبرمان الملون والذي لا يتضمن قناعاً. في حين يلهم سوبرمان الأمل والثقة، يعتمد باتمان على زرع الرعب في قلوب الآخرين ويستغل إيمانهم بالخرافات. إنه لأمر استثنائي وجود هذين النقيضين في عالم واحد، ولكن هناك شيء أكثر روعة حول هذين الكائنين المميزين، وهي صداقتهما.

ما يجعل صداقتهما جديرة بالاهتمام بشكل خاص هو أن باتمان وسوبرمان، اللذين يتفان حول القليل جداً، يختلفان حتى حول طبيعة الصداقة نفسها. قد يبدو هذا غريباً في البداية. فالجميع يعرف ما هي الصداقة، أليس كذلك؟ ويوافق الجميع على طبيعتها، أليس كذلك؟ ولكن كلتا الحالتين خطأ. إذ يناقش الفلاسفة طبيعة الصداقة منذ زمن أفلاطون، وما زالوا غير قادرين على الاتفاق عليها. عندما تفكر في الأمر، فمن الواضح أن هناك درجات وأنواعاً مختلفة من الصداقة. لديك صداقة معينة مع الجار والذي تقول له مرحباً كل صباح، لكن الصداقة التي تشاركها مع الأشخاص الذين نشأت معهم تختلف عن تلك، من حيث الدرجة والنوع.

وبالمثل مع باتمان وسوبرمان، حيث يدعو كل منهما الآخر بالصديق، ولكن كل واحد منهما يعني شيئاً مختلفاً تماماً عندما يقول ذلك. ضع في اعتبارك فقط الأشخاص الآخرين الذين يرتبطون بهم. فلدى سوبرمان لويس لين،

صديقه وزوجته؛ وصديقه جيمي أولسن؛ والعديد من الأبطال الآخرين في عالم DC. أمّا باتمان من ناحية أخرى، فليس لديه أصدقاء آخرين. من المؤكد أن لديه معارفه ورفاقه كالفريد وروبن ونايت وينغ وأوراكل وهانتريس وغيرهم. فـ “عائلة الوطواط”، كما يتم دعوتها بصفقتها حلقة باتمان الداخلية، هي كبيرة حقاً. ولكن، مع استثناء محتمل لكاتومان (حيث أن علاقتها مع باتمان غير واضحة على الإطلاق، فلا أحد منهم هو صديق له. إنهم مزيج غريب من أفراد الأسرة والجنود في حربه، ولكن سوبرمان فقط هو الصديق الحقيقي في عالم باتمان.

وفي حين أن سوبرمان وباتمان هما صديقان بالتأكيد، فإن صداقتهما مع بعضهما البعض لها معان مختلفة. حيث يمكن تتبع مفهوم الصداقة الذي لسوبرمان مع الفيلسوف أرسطو (384 - 322 قبل الميلاد)، في حين أن مفهوم باتمان للصداقة يندرج ضمن أصول فيلسوف مختلف تماماً، وهو نيتشه (1844 - 1900).

ذلك السوبرمان - أي شخص هو!

لذا، هل يعتبر سوبرمان صديق خارق؟ من السهل أن نرى أن كال إيل هو شخص ودود. سواء بشخصيته العادية أو تلك الخارقة التي ينقذ بها العالم مرتدياً الأحمر والأزرق، فإن سوبرمان هو من صنف الرجال الذين نتمنى وجودهم حولنا. قد يكون ساذجاً وقديم الطراز بعض الشيء بالنسبة للبعض، ولكن دعونا نواجه الأمر: هل بإمكانكم التفكير في التوجه لشخص أفضل منه عند احتياجكم للمساعدة؟.

كم هو عظيم أن يكون سوبرمان صديقك؟ هل يمكنك التفكير في أي شخص آخر لمساعدتك على التحرك؟ حيث سينتهي منك في ست ثوانٍ، مع

استراحة لتناول القهوة. أو ماذا عن حفل للشواء في الهواء الطلق؟ إذ أنك ستستفيد من رؤيته الحرارية لإشعال الفحم، ورؤيته المجهرية للتأكد من أن جميع الكائنات المجهرية الضارة في اللحوم ميتة، ومن نفسه خارق البرودة للحفاظ على المشروبات الغازية باردة؟ سيكون حفل شواء لرجل واحد! وتلك لا تمثل سوى ميزاته الجسدية؛ فدعونا لا ننسى الصفات الشخصية لسوبرمان. فلم يطلق عليه «فتى الكشافة» الأقدم في العالم من فراغ، فهو جدير بالثقة ومخلص ومفيد ومهذب ولطيف ومبهج وشجاع. بالتأكيد، قد لا يكون هادئاً، أو ممتعاً بشكل خاص، ولكنه مُعتمد عليه وذو طابع جيدة، وكل مجموعة من الأصدقاء بحاجة إلى شخص واحد على الأقل بمثل إثاره. وليس من المضر أن يكون لديك شخص خارق الإيثار مثل سوبرمان.

لذا، فمن السهل معرفة سبب رغبة أي شخص في اتخاذ سوبرمان كصديق. لكن هذه المراجعة لسِمات سوبرمان الشخصية تثير تساؤلاً معيناً، حيث نظراً للطافته بشكل عام وموقفه الإيجابي المتفائل تجاه العالم وجميع من فيه، لماذا يختار شخص مشرق مثل سوبرمان صداقة شخص مثل باتمان، الكاتبن الحقيقي للإحباط؟ فكر في الأمر: إن أعظم عدو لباتمان هو تجسيد البهجة، بالإضافة للجوكر. بحيث أن في إحدى المرات، وعندما كانت رصاصة من الكريبتونايت تستقر بالقرب من قلبه، طلب سوبرمان من باتمان أن يسديه معروفاً ويظهر روح الدعابة. ¹ إن الوقت الوحيد الذي كان يستمتع فيه باتمان هو عندما كان يؤدي الآخرين، أولئك الذين يستحقون الأذى منهم. يشبه هذا الثنائي كاتبن فريق كرة قدم يحب التسكع مع فتى غريب الأطوار مثير للرعب. إذاً ما الذي يجعل سوبرمان يعتبر باتمان صديقاً، ناهيك عن اعتباره صديقاً مقرباً أيضاً؟.

من ناحية ما، يمكننا أن نقول بأن ذلك يرجع فقط إلى اللطف الذي يتمتع به سوبرمان بشكل عام. فهو من نوعية الرجال الذي سيحاولون تكوين

صداقات مع سمكة قرش، وسينجح بذلك على الأرجح. ولكن هناك عاملاً مهماً آخر في علاقته مع باتمان. فذلك العملاق الأزرق لا يكتفي بصداقة باتمان، بل إنه يثق به حقاً. إنه معجب به حتى، مما يثبت أنه رجل خارق حقاً، لأن حتى الأشخاص الأقرب والأعز على باتمان لم يكونوا معجبين به هكذا. ولكن المهم هنا هو عامل الثقة. فسوبرمان الشهير لا يمكن أن يصيبه الضرر إلا بفعل مادة واحدة: وهي الكريبتونايت. ولسوبرمان عينة صغيرة من الكريبتونايت مسبوكة على شكل خاتم، خاتم كان قد عهد به إلى باتمان. إذن ما الذي يجعل سوبرمان مقرباً جداً من باتمان؟ لماذا يثق به فوق الجميع؟ لماذا لا يترك الخاتم مع أكوامان؟ أو مع وندرومان؟ إن الجواب يكمن في فهم سوبرمان للصداقة، ولماذا هو أقرب إلى باتمان من أي شخص آخر في مجتمع الأبطال الخارقين.

سوبرمان الأرسطي

من الناحية الفلسفية، فإن فهم سوبرمان للصداقة أقرب إلى تصور أرسطو لأعلى أنواع الصداقة. حيث تلعب الصداقة دوراً رئيسياً في النظرية الأخلاقية لأرسطو.² وبطبيعة الحال، ليس لدينا الوقت أو المساحة الكافيتين لتناول كامل تفاصيل نظرية الصداقة لأرسطو. ولكن لحسن الحظ، نحن لا نحتاج إلى ذلك، لأن الكلمة التي تُترجم إلى عبارة "صداقة" من لغة أرسطو اليونانية لها معنى أوسع بكثير. وهذه الكلمة هي *philia*، ويستخدمها أرسطو لتغطية مجموعة أوسع من العلاقات من مجرد "الصداقة"، ولهذا السبب يمكننا التركيز فقط على أعلى نوع من الصداقة لأرسطو.

في كتب الأخلاق النيقوماخية التي تتعامل مع *philia*، يناقش أرسطو غالبية أنواع العلاقات الإنسانية، بداية من الروابط العائلية ووصولاً إلى

العلاقة بين المشتري والبائع. ومن الواضح أن معظم هذه العلاقات لها القليل أو لا تمتلك أي ارتباط بعبارة "الصداقة" كما نفهمها. وإن أرسطو يناقش بإسهاب شيئاً يشبه الفهم الحديث للصداقة. ضع في اعتبارك أن نظرية أرسطو مقترحة كجزء من نظرية أخلاقية شاملة. وبالنظر إلى ذلك، فلا ينبغي أن يكون مفاجئاً بأن أسمى درجات الصداقة، والأكثر استحساناً، هي الصداقة بين رجلين صالحين.

هناك عدة أسباب لذلك. فأولاً، وحدهم الأشخاص الطيبون بإمكانهم أن يجربوا بعضهم البعض بنقاء وبساطة لمن يكونون، لشخصياتهم ذاتها. ولهذا السبب نفسه، فإن هذا النوع من الصداقة يدوم لمدة أطول. فالصديق الحقيقي يحب شخصية صديقه، وهو شيء لا يتغير إلا قليلاً مع مرور الوقت. أما الأصدقاء الآخرون، أصدقاء المتعة أو المنفعة، فهم أصدقاء فقط طالما يمكنهم توفير المتعة أو المنفعة لبعضهم البعض. لقد عانى الكثيرون منا من هذه الأنواع من الصداقة، فتلك الفتاة التي كنت تلعب معها فقط لأنها كانت تمتلك أروع الألعاب، وذلك الشخص الذي كنت تحدثه في الكلية فقط لأنه كان يمتلك سيارة، وهلم جرا. هذه الصداقات، بالطبع، تميل إلى أن تكون قصيرة الأجل. أما أسمى أنواع الصداقة فهي تلك التي لا تميل فقط إلى البقاء لفترة أطول، بل وتشجعنا على أن نكون أفضل.

تميل صداقات سوبرمان لأن تكون من أسمى الأنواع. ببساطة هو ليس لديه أصدقاء مثيرين للريبة. فلويس لين، وجيمي أولسن، وبيري وايت كلهم أناس طيبون. وأصدقاء سوبرمان الخارقون جميعهم أبطال، وهم جميعاً يتطلعون إليه. لقد اعترف سوبرمان ذات مرة لفلاش بأنه يجد بأن كل الشناء الذي يسمعه من صغار الأبطال الخارقين كثيرٌ عليه، وبأنه غير متأكد مما لو كان قادراً على الارتقاء إلى مستوى تلك السمعة.³ (من المثير للاهتمام، أنه في وقت لاحق من نفس القصة، يقف سوبرمان الند للند أمام ملاك!).

وهذا ينطبق أيضاً على صداقة سوبرمان مع باتمان. قد يكون باتمان شخصية مظلمة، وقد يستخدم أساليب مبنية على زرع الخوف، ولكن تحت كل ذلك، فهو رجل صالح في حساب سوبرمان. ومن بين جميع أصدقاء سوبرمان، فباتمان هو الأكثر حرصاً وشراسة. ولو دعت الحاجة، فقد يكون هو الشخص الوحيد القادر على استخدام خاتم الكريبتونايت ضد سوبرمان. ولكن متى استدعو الحاجة لذلك؟ سيتم استخدام خاتم الكريبتونايت، وقد تم استخدامها بالفعل، عندما يضل سوبرمان الطريق. إذًا، بمعنى ما، فإن الخاتم هو شهادة على هذا الجانب من صداقتهم، فقد وجد ليحافظ على سوبرمان كشخص صالح.

ولكن هذا لا يكفي لتفسير الرابطة الوثيقة بين العملاق الأزرق وفارس الظلام. فلتفسير ذلك، يجب أن نتقل إلى أرسطو، الذي يخبرنا بأن صديقك هو نسخة أخرى منك. وهذا يعني، من بين أشياء أخرى، أنك تريد الأشياء نفسها لصديقك التي تريدها لنفسك. ولكن هذا يعني أيضاً أن صديقك هو نوع من المرأة لنفسك. وبهذا فإن لسوبرمان الكثير من المرايا ولكن لا توجد امرأة جيدة مثل باتمان. لماذا؟ بالرغم من كل اختلافاتهم، لكن باتمان وسوبرمان بشكل عام يتشاركان القيم نفسها. كما يمثل كلاهما ذروة النجاح. فمن بين جميع الأبطال في عالم DC، باتمان هو واحد من القلائل الذين لم يلهموا من قبل سوبرمان. وعلى هذا النحو، يمكنه، على عكس الأبطال الخارقين الآخرين، الوقوف على قدم المساواة مع سوبرمان. والمساواة، بعد كل شيء، هي أمر أساسي في هذا النوع من الصداقة. فالأبطال الآخرون غير متساوين حقاً مع سوبرمان. فالكثير منهم يتبعون قيادته. إذ يقول أرسطو بأن على الرغم من أن الصداقة ممكنة بين غير المتكافئين إلا أنها لا تكون في أسمى درجاتها في تلك الحالة.

ألا تعتقد ذلك؟ لنفترض أن لديك رجلاً ثرياً ورجلاً فقيراً يشتركان في

المصالح والقيم والأهداف. هل يمكن أن يكونا أصدقاء؟ سترغب ضمائرنا المنادية بالمساواة بالصراخ بـ "نعم، بالطبع يمكنهم ذلك". ولكنهم لا يستطيعون ذلك، ليس بالدرجة التي ستعتبر سامية. فمخاوفهم واهتماماتهم مختلفة للغاية، وسوف تتدهور الصداقة بسرعة. ينطبق الشيء نفسه، وإن كان بطريقة أقل دراماتيكية، في علاقة سوبرمان مع الأبطال الآخرين. إنه بطلهم، وبسبب ذلك فهو غير مسموح له بالفشل. وبدا ذلك جلياً حين كشف كل من سوبرمان وباتمان عن هوياتهم السرية لزملائهم أعضاء فرقة العدالة الأمريكية، فقد أعلن أحدهم أنه لم يكن يعتقد بأن لسوبرمان هوية أخرى!⁴ فبعد كل شيء، كيف يمكن أن يكون سوبرمان مجرد رجل؟.

أي نوع من الأصدقاء هو باتمان - أوبروس واين؟

الآن وقد رأينا أي نوع من الأصدقاء هو سوبرمان. ولكن ماذا عن باتمان؟ عند طرح هذا السؤال، فنحن نواجه مشكلة لا نحتاج لمناقشتها عند الحديث عن سوبرمان: وهي مسألة الهوية. لأنه وعلى الرغم من وجود مسافة ما بين شخصيتي سوبرمان وكларك كينت، إلا أنها ليست بالكبيرة: فهما يمتلكان نفس القيم والدوافع وما إلى ذلك. الفرق الحقيقي الوحيد هو أن سوبرمان يظهر المزيد من الجمال والثقة - أوه، والقوى الخارقة. ولكن بين باتمان وبديله المغرور، بروس واين، فإن الاختلافات واضحة. لن نذهب إلى أبعد من ذلك في مسألة الهوية، ولكن يجب أن نلاحظ الاختلافات بين وجهي باتمان، لأنك ربما سترغب بأحدهما كصديق ولكنك لن تتمنى الآخر. كان بروس واين ليشكل صديقاً ممتازاً بعدة طرق. فالرجل لديه مال أكثر مما لدى إله، ويقيم الكثير من الحفلات الضخمة، ويجب مشاركة ثروته وتبذيرها، ولديه من الصلات ما سيدفع زعماء العالم للقتل من أجلها. لا تهتم بحقيقة أنه سلس وعصري ووسيم. من الذي لا يريد أن يتخذ بروس

كصديق؟ نعم، بالتأكيد فأن سوبرمان هو الرجل الأنسب لإقامة حفل شواء، لكن باستطاعة بروس توفير اللحوم وأنواع الضيوف الذين لا تمنع في قضاء بعض الوقت معهم. لن تكون أبداً صديقه «المقرب» بالطبع؛ فهو متقلب المزاج عندما يتعلق الأمر بذلك. ولكن إذا كنت تبحث عن صداقة منفعة أو متعة، فلن تجد أفضل من السيد واين.

باتمان، من ناحية أخرى، ليس بمتقلب المزاج كشخصيته المغرورة. فلو تمكنت من الاقتراب منه، فستجده صديقاً مخلصاً. من ناحية أخرى، وعلى عكس شخصيته المغرورة، فإن باتمان ليس صديقاً جيداً للمتعة أو المنفعة. فهو ليس باجتماعي أو محب للحفلات. فما هي المتعة التي يمكنك الحصول عليها مع رجل نشاطه الأساسي هو التفكير بعمق وترويع الشياطين؟ فالمرات الوحيدة التي يتسم فيها هي عندما يتسبب بالألم أو يخطط لإلحاق الألم بالأشرار. وتلك هي مشاكله السطحية فقط! حين يتعلق الأمر بفكرة صداقة منفعة مع فارس الظلام، فستظهر هناك عقبة رئيسية وهي: أنه أذكى منك، ولديه خطته الخاصة. باتمان لديه دافع، ومن بعض النواحي، فهو مكيفيلي تماماً في حربه على الجريمة. إنه يتلاعب بالجميع من حوله، ولا أحد يعرف بالضبط ما الذي يجري في رأسه.

لقد كانت هناك عدة قصص ممتازة في السنوات الأخيرة لاستكشاف هذا الجانب من باتمان. أولاً، في قصة (Tower of Babel 2001) الخاص بفرقة العدالة، فقد تم الكشف عن أن باتمان قد وضع خطأً لهزيمة زملائه الخارقين من فرقة العدالة "أصدقائه"، كما كان يعتبرهم. هل تريد صديقاً يخطط سراً لهزيمتك؟ في قصة أخرى، خلال قصة مصورة ذات صلة بباتمان بعنوان "Bruce Wayne: Fugitive"، تخلى باتمان عن هوية بروس واين وكذلك عن دائرته الداخلية من العلاقات، لأنه شعر بأنهم قد أصبحوا عقبة أمام عمله.⁵ وبذلك، فقد أدار ظهره لأقرب شيء لديه كعائلة منذ مقتل

والديه. أخيراً، وفي الفترة التي سبقت ظهور قصة Infinite Crisis لـ DC، تم الكشف عن أن باتمان قد طور وأطلق قمراً صناعياً يدعى Brother Eye، للتجسس على جميع البشر في الأرض، بما في ذلك زملائه الخارقين.⁶ في كل حالة، فقد اكتشف الأشخاص الأقرب إلى باتمان، الذين عدوه كصديق لهم، أنهم تعرضوا للتلاعب أو للخيانة (أو كليهما) من قبله.

خلال ذلك كله، فقد استمر باتمان في اعتبار سوبرمان صديقه. فعلى سبيل المثال، بعد سرقة خططه المضادة لفرقة العدالة واستخدامها من قبل راس الغول، فقد تم التصويت على فصل باتمان من الفرقة، وكان تصويت سوبرمان هو الصوت الحاسم للقضية. لم يمانع باتمان في تصويت كل أعضاء الفرقة ضده، بما فيهم بلاستيك مان (والذي ضمه باتمان إلى الفرقة بنفسه)، ولكن تصويت سوبرمان ضده أشعره وكأنه قد تعرض للخيانة. ماذا يعني ذلك؟ من المؤكد أن هذا يعني شيئاً مختلفاً وشيئاً أكثر مما هو الحال في قضية سوبرمان، لأن باتمان لا يصنع صداقات بسهولة، ولا يثق بأحد بسهولة. ومثل سوبرمان، فلباتمان دائرة من الأشخاص المقربين، ولكنهم ليسوا أصدقاءه. وهو يرتبط بالأبطال الخارقين، ولكنهم ليسوا أصدقاءه أيضاً.

كان تصويت سوبرمان بمثابة خيانة لصداقتهما، في حين أن أصوات بلاستيك مان، ووندرومان، وأكوامان لم تكن كذلك، لأن الثلاثة الآخرين لا يعتبرهم باتمان بمثابة أصدقاء له. لما لا؟ ما الذي يشترك به باتمان مع سوبرمان ولا يشترك به مع الأبطال الخارقين الآخرين؟ إن العنصر الأهم بالنسبة لنا هو أن باتمان يعتبر سوبرمان نداً له. وهذا هو المفتاح في كل من مفهوم سوبرمان وباتمان للصداقة، ولكنهما يمتلكان أفكاراً مختلفة عن المساواة. فكرة سوبرمان عن المساواة شيء يشبه المساواة الأخلاقية. فجميعنا، بحكم كوننا كائنات تمتلك القدرة على اتخاذ قرارات مبنية على فهمنا للخطأ والصواب (وكلاء أخلاقيين)، فأنا متساوون مع سوبرمان وبالتالي فنحن

نمثل أصدقاء محتملين بالنسبة له. لكن بالنسبة إلى باتمان، فإن كون الشخص وكيلاً أخلاقياً لن يؤهله ليكون ندأً له. فلو كان الأمر كذلك، لكان بإمكان جميع أعضاء دائرته الداخلية أن يكونوا أصدقاء له، بدلاً من كونهم مزيجاً غريباً من أفراد أسرة ومساعدين يقيمون معه، وكذلك الحال مع زملائه في فرقة العدالة. أما سوبرمان فهو صديق لباتمان لأن باتمان يعتبره مساوياً له، ليس من حيث كونه وكيلاً أخلاقياً، ولكن من حيث قدراته وشخصيته. إذ أن قوى سوبرمان التي لا تُحصى، وما يمتلكه من براعة وقيادية، تجعله مساوياً لباتمان. المساواة في صداقات باتمان تعني المساواة في القوة. وتماماً مع ثقافته الأرستقراطية وتربيته، لم يُخلق الناس متساوين من وجهة نظر الوطواط.

باتمان النيتشوي

لكي نفهم صداقة باتمان مع سوبرمان، علينا الانتقال إلى فيلسوف مختلف.⁷ إن مفهوم نيتشه للصداقة يصعب تفسيره أكثر من مفهوم أرسطو، ويعزى ذلك في جزء كبير منه إلى أنه لا بد من تجميعه من بعض التعليقات الناقصة. ومع ذلك، فقد تمت الإشارة من قبل إلى العلاقة العامة بين باتمان ونيتشه، وهي أن باتمان يمثل Übermensch، أو «الإنسان الأعلى».⁸ وهناك علاقة بين الإنسان الأعلى ومفهوم نيتشه للصداقة. ففي هكذا تكلم زرادشت، يقول نيتشه: "يجب أن تحب في صديقك الإنسان الأعلى، وتضعه نصب عينيك كغاية لوجودك".⁹ ومن المثير للاهتمام أنه في الترجمات المبكرة لنيتشه، غالباً ما يتم اعتبار "الإنسان الأعلى" على أنه "سوبرمان". حيث يمثل سوبرمان لباتمان شيئاً يمكن أن يكونه البشر، ليس من حيث قواه وقدراته بالتأكيد، ولكن من حيث قيمه وفضائله. في الحقيقة، فإن سوبرمان هو شيء يتمنى باتمان أن يكونه، ولكن لا يمكنه ذلك.

هذا لا يعني أن باتمان يريد أن يكون سوبرمان، ليس في جميع الجوانب

على الأقل. فباتمان لا يريد قواه الخارقة. في الواقع، وخلال إحدى القصص كان قد وضع وعيه في جسم سوبرمان. ووصف التجربة بأنها مبهجة وخطيرة، فالإغراء، كما قال، هو في عدم الاعتماد على ذكائه، والرجوع إلى القوة الخارقة.¹⁰ لذلك، وعلى عكس أي شخص آخر على هذا الكوكب، فإن باتمان لا يريد قوى سوبرمان. بدلاً من ذلك، فهو يرغب في تقليد صديقه من حيث شخصيته. فباتمان يتمنى أن يثق بالآخرين ومتفائلاً مثل سوبرمان. ليس الشيء "الخارق" هو ما يريده باتمان، بل "الرجل" ذاته. إذ بالنسبة لباتمان، فإن سوبرمان هو المثال الحي لما يمكن للرجل أن يكون عليه.

فكر في الأمر على هذا النحو: سوبرمان هو نصف إله يحاول كسب ثقة الناس. ولذلك فعليه أن يقرب المسافات أثناء تعامله معهم. لذا فهو يتصرف مثل فتى الكشافة، والجميع (مع بعض الاستثناءات المعروفة) يحبه. أما باتمان، من ناحية أخرى، فهو إنسان عادي يحاول القيام بأشياء غير عادية. وعليه أن يخلق أسطورة حوله تعمل كجزء من درعه. نحن نعلم جميعاً أن المجرمين جميعهم جبناء ومؤمنون بالخرافات. ولكن من أجل استخدام تلك الخرافات والجن ضدّهم، يجب على باتمان أن يبعد نفسه عن المواطنين الذين يحميهم. إذ ليس من الكافي بالنسبة للمجرمين فقط أن يروا غموض باتمان، فعلى الجميع أن يفعلوا ذلك أيضاً، أو أن الرقصة ستنتهي. وهذا يخلق، بطبيعة الحال، حياة معزولة وحيدة يفرضها هو بنفسه.

إن هذا التقدير الكبير لا يسير باتجاه واحد. فما لدينا حتى الآن هو نوع من عبادة الأبطال المألوفة، هي نوع العلاقة التي تربط سوبرمان مع معظم الأبطال الخارقين الآخرين في عالم DC. ولأجل أن تكون علاقتهم علاقة صداقة، بالمعنى النيتشوي، يجب أن يكونوا متساوون ويتعاملون بالمثل. فعلى سبيل المثال، يعتبر سوبرمان قدوة بالنسبة لباتمان، ولكن في الوقت نفسه، يعتقد باتمان بأن لدى سوبرمان الكثير لتعلمه، لماذا؟ فعلى الرغم من كل قواه

وفضائله، فإن كال إيل بعيد كل البعد عن الكمال، وبعيد كل البعد عن أن يكون الإنسان الأعلى لنيته. إن قوى العملاق الأزرق تجعله عرضة للخطر، وتحديدًا لاعتقاده هو بأنه غير معرض لأي خطر. لقد نسي - على الرغم من "موته" - أنه لا يزال فانيًا، وأن صورته الوردية للبشر غير دقيقة تمامًا. إن مساهمة باتمان في صداقتها هي محاولة لتعليم سوبرمان جميع الدروس التي تعلمها بقسوة من مقتل والديه، ومن سنوات تدريبه، ووعيه الكامل بضعفه وضعف الآخرين. فباتمان هو مدرس صعب المراس، كما يشهد كل من نايت وينغ وروبين وأوراكل، وأكثر ما يبرع في تعليمه هو القتال، فصداقته لسوبرمان لا تصل لأوجها إلا حينما يضطران للمواجهة.

عندما تهشم الصداقة: باتمان ضد سوبرمان

تصبح الاختلافات في الطريقة التي يتعامل بها دعامتا عالم DC هذان في صداقتها أكثر وضوحاً عندما تتعرض فيها صداقتها إلى تجارب حادة. بداية، فأن المعارك ليست ممتعة، ثم هناك العامل الإضافي المتمثل في قتال صديق. لكن وكما يتعلم معظمنا عاجلاً أم آجلاً، فلا يمكننا دائماً تجنب المواقف غير السارة. ويبدو بأنه لا يمكن للأبطال الخارقين ذلك أيضاً، لأن باتمان وسوبرمان سيجدان نفسيهما في مواجهة بعضهما البعض.

إنها لعبة دائمة بين المهووسين في كل حدث أن يسألوا من سيفوز في معركة بين س و ص. ماذا لو تقاتل سبايدرمان ضد دارث فيدر؟ ماذا لو تصارع هي-مان مع هالك؟ من سيفوز بين غالاكتوس وأنتي مونيتور؟ وواحدة من أقدم هذه الجدالات هي ماذا لو قاتل باتمان سوبرمان، من سيفوز؟ الجواب المنطقي هو سوبرمان. فالقوة الخارقة، والسرعة، والحواس الفائقة، والطيران، والرؤية الحرارية، والرؤية بالأشعة السينية، والنفس البارد؟ لا توجد هنالك مقارنة، أليس كذلك؟ خطأ. إذ سيفوز باتمان.

وبدون بذل الكثير من الجهد. وفي كل مرة، لماذا؟ لأنه باتمان. فهو لا يرحم، وذكي، ودائم الاستعداد. أوه، ولديه إمكانية الوصول إلى الكريبتونايت. وفي كل مرة يتواجه فيها العملاق الأزرق وفارس الظلام ضد بعضهما البعض، يفوز باتمان بالمواجهة.

وترجع سلسلة هزائم سوبرمان أمام باتمان إلى منهاج كل واحد منهما في القتال، إضافة لطريقة مقاربتهم لبعضهم البعض. حيث ينظر سوبرمان إلى باتمان كصديق بالمعنى التقليدي. فهو يثق بباتمان ويعتقد (مخطئاً) أنه لن يؤذي صديقاً له. ولكن كما وصف باتمان الاختلاف بينهما بنفسه ذات مرة قائلاً: "في أعماقه، فإن كلارك شخص جيد أساساً. ولكن في أعماقي، أنا لست كذلك".¹¹ يواجه سوبرمان باتمان بحذر ورفق شديدتين. حيث يمتص لكماته، تاركاً نفسه مفتوحاً أمامه. إنه يحاول قتال باتمان بشرف، وهو ما يفعله إلى حد ما بالفعل. والأهم من ذلك، فإن سوبرمان يفهم ما يمكنه فعله لباتمان إذا أراد ذلك. فالقوة التي يتمتع بها تجعل الأمر الأكثر أهمية بالنسبة له هو كبح جماح نفسه. لذلك فحتى في أوج المعركة، لا يستخدم سوبرمان كل ما يملك من قوى ضد باتمان. حيث لا يستخدم سرعته أو قدرته على الطيران؛ ويحاول ألا يستخدم رؤيته الحرارية أو أنفاسه الباردة. في الحقيقة، فإن سوبرمان يريد الاقتراب من القتال بطريقة عادلة بقدر ما يمكن.

ولهذا السبب فهو يخسر، حيث أن باتمان لا يقاتل بعدالة. إنه لا يقاتل مثل سوبرمان. فهو يعرف جيداً بأن سوبرمان لديه أفضلية كاملة في معركة عادلة، فما الداعي من القتال بعدل؟ ففي جميع معاركهم، سواء في غوثام أو متروبوليس أو في أعماق الفضاء، يستخدم باتمان البيئة لصالحه. ويعني ذلك أحياناً استخدام شبكة الكهرباء في المدينة بأكملها لصعق العملاق الأزرق، كما فعل في Hush. (هذا صحيح: لصعقه. إن التعرض لكهرباء تكفي

لتشغيل مدينة بحجم نيويورك لن يؤدي سوبرمان، ولكنه سيوقفه مؤقتاً). وهذا يعني أحياناً إعداد أفخاخ مقدماً تحضيراً للقتال، كتشيط أشياء مثل صواريخ الصياد ذات الرؤية بالأشعة السينية، أو المتفجرات التي ستسقط تسعين طناً من الصخور على سوبرمان عند تفجيرها. فأي ميزة، مهما كانت صغيرة، ستستحق الاستخدام.

وهذا يعني أيضاً الاستفادة من نقاط ضعف سوبرمان. هذا صحيح: نقاط الضعف (بصيغة الجمع). أوضح نقاط الضعف، والذي يستخدمه باتمان دائماً، هو الكريبتون. ولكن لدى سوبرمان نقطة ضعف أخرى ناتجة عن اختلاف القوة بينه وبين باتمان أو، في الحقيقة، بينه وبين الجميع. في اعتقاد سوبرمان، فهو أقوى بكثير من... حسناً، من الجميع تقريباً، ويجب أن يحرص على عدم التسبب في ضرر دائم. قد يكون باتمان أخطر رجل على هذا الكوكب، كما دعا سوبرمان ذات مرة، ولكنه لا يزال مجرد لحم وعظم، مثل بقية البشر. ومن وجهة نظر باتمان، فسوبرمان مغرور ومتعطر، ويقلل من قدر خصومه بكل حماقة. فإعتماده على قواه يعني أنه لم يتعلم أبداً التفكير الاستراتيجي، وهو فن كان قد أتقنه فارس الظلام منذ فترة طويلة.

ربما تكون أفضل طريقة لشرح كيفية تعامل باتمان مع سوبرمان هي من خلال التفكير في مصطلح "الاحترام". للاحترام العديد من المعاني، وكثير منها مهم أخلاقياً. فعلى سبيل المثال، يمكن للمرء أن يتحدث عن نوع من الاحترام الذي يدين به أي إنسان لإنسان آخر بالإعتماد على حقيقة أن كليهما وكيلان أخلاقيان. ثم هناك أنواع الاحترام الموجهة للأصدقاء والزملاء والأشخاص الذين يود المرء أن يحذو حذوهم. وهذا كله هو جزء من كيفية تعامل باتمان مع العملاق الأزرق. ولكن هناك نوعاً آخر من الاحترام يدخل اللعبة، وهو الاحترام الذي يدين به المرء لنفسه. وهذا هو الفرق الرئيسي بين باتمان وسوبرمان: حيث أن سوبرمان لا ينظر إلى باتمان على أنه منافس،

ولكن باتمان وعلى عكسه يفعل ذلك. إنها في تنافس، سواء إعتقدا ذلك أم لا. وهكذا، فعندما يتم الدفع بهما ضد بعضهما البعض، كما يحدث أحياناً، يكون باتمان مستعداً لذلك دائماً.

أفضل الأصدقاء الخارقين على الإطلاق؟

ما هي الدروس التي يمكن أن نستخلصها من صداقة باتمان وسوبرمان؟ أول الدروس التي سوف تأتي إلى ذهننا، وربما تكون تافهة إلى حد ما، هي أن المعارك لا يجب أن تنهي الصداقات. ولكن معظمنا يعرف ذلك ما إن يصل لسن السادسة، لذا دعونا ننتقل إلى شيء أكثر أهمية وهو: أن الخلافات الأساسية، حتى حول طبيعة الصداقة نفسها، لا يجب أن تنهي الصداقات. وحتى عدم القدرة على فهم بعضنا البعض هي ليست عقبة أمام الصداقة. يعرف سوبرمان أنه لن يفهم تماماً ما يحرك صديقه الأكثر قتامة أبداً، تماماً كما يعترف باتمان (مع بعض الإحباط) بأنه لن يفهم أبداً سداجة سوبرمان الظاهرة. إنها يعلمان أنهما ينظران إلى العالم، وإلى بعضهما البعض، بطرق متباينة، ولكن هذا لا يدمر صداقتهما، بل يجعلها ويجعلها أقوى. إن الاختلافات وسوء الفهم بين باتمان وسوبرمان تعزز من صداقتهما من خلال توفير شيء لهما للعمل عليه. ومن المؤكد بأن هذه العملية مدعومة بالأرض المشتركة التي يتشاركها: فأهدافهما المشتركة، وأساليبهما المتميزة، تبقى هؤلاء الأصدقاء الأكثر روعة في العالم مرتبطين ببعضهم البعض، ويقومون بحماية وتصحيح بعضهم بعضاً. وهذه الاختلافات، إلى جانب رغبتهم وقدرتهم على العمل معاً، تجعل كلا بطلينا أفضل بكثير فيما يفعلون مما هما عليه.

1- قصة Superman /Batman العدد #1 (أغسطس 2003).

2- لقد قضى خمس الأخلاق النيقوماخية خاصته وهو يناقش أنواع وخصائص الصداقة. أرسطو، الأخلاق النيقوماخية، ترجمة تيرينس إيريون (Indianapolis: Hackett 1999)، الصفحات 119-153.

3- العدد #7 من JLA (يوليو 1997).

4- العدد #48 من JLA (يناير 2001).

5- قصة Bruce Wayne: Fugitive المجلد 1-3 (2002-2003).

6- قصة The OMAC Project (2005).

7- للحصول على تحليل ممتاز لعلاقة باتمان من وجهة نظر أرسطية، ولمعرفة لماذا لا يمكن لأسمى أنواع الصداقة أن تكون ممكنة لباتمان، اقرأ فصل "باتمان والأصدقاء: أرسطو وحلقة فارس الظلام الداخلية" لمات موريس، الأبطال الخارقون والفلسفة، تحرير توم موريس ومات موريس (Chicago: Open Court Press 2005)، الصفحات 102-117.

8- فصل "الإنسان الأعلى الحقيقي: باتمان كأسطورة إنسانية"، لسي. ك. روبرتسون، كتاب الإنجيل وفقاً للأبطال الخارقين، تحرير ب. ج. أوروبيزا (New York: Peter Lang 2005).

9- فريدريك نيتشه، هكذا تحدث زرادشت، ترجمة والتر كوفمان (New York: Penguin 1978)، الصفحة 62.

10- قصة JLA: Foreign Bodies (نوفمبر 2000).

11- قصة Batman: Hush المجلد 1 (2004).

الخروج من ظل الوطواط:
أرسطو، كانط، وديك غرايسون في التربية الأخلاقية
بقلم: كارستن فوغ نيلسون

بطل خارق من دون قوى خارقة

يعتبر باتمان بطلاً خارقاً دون امتلاكه لقوى خارقة. حيث أنه شخص مختلف تمام الاختلاف عن سوبرمان مثلاً، والذي تتجاوز قواه وقدراته ما لدى البشر الإعتياديين. فلا يمكن لأي قدر من التدريب أو الإعداد أن يحول إنساناً ما إلى سوبرمان.

ولكن لا يلزم وجود حيل علمية خيالية فائقة أو قوى ما وراءية حتى يكتسب شخص ما قوى باتمان وقدراته. وقد يكون هذا هو السبب في أن باتمان قد ألهم وجذب عدداً من التلاميذ والمتدربين: نايت وينغ وروبين (أو العديد منهم) وأوراكل وهانتريس، على سبيل المثال لا الحصر. ولأسباب مختلفة، فقد كرسّت هذه الشخصيات جميعها حياتها لمواصلة الكفاح ضد الجريمة، واختارت باتمان كمعلم لها، لماذا؟ لأن قوى باتمان، على عكس سوبرمان، أو وندرومان، أو سبايدرمان، هي قوى بشرية معقولة. إذ أن ما

يكونه باتمان، وما أصبح عليه، ليس نتيجة لظاهرة طبيعية غير قابلة للتفسير أو حادث علمي غامض. ولكن بدلاً من ذلك فهي نتيجة لسعي إنساني متفاني (أو يمكن وصفه بالهوس) لتحقيق الكمال الجسدي والعقلي والأخلاقي. قد يكون الأمر بعيد المنال، ولكنه أمر ممكن للإنسان العادي، من ناحية المبدأ على الأقل، أن يكرس حياته للتمارين الجسدية والدراسة بكثافة حتى يكون بإمكانه الوصول لنفس التفوق البدني والعقلي والأخلاقي الذي لباتمان.

أرسطو والتعلم من خلال التجربة

فكرة أنه يمكنك تعلم أن تكون إنساناً جيداً أو فاضلاً من خلال محاكاة أو تقليد قدوة أخلاقية هي فكرة قديمة جداً. حيث ناقش الفيلسوف اليوناني أرسطو (384 - 322 قبل الميلاد) هذه الفكرة بشكل محدد منذ ما يقرب من 2500 عام في كتابه «الأخلاق النيقوماخية». إذ سأل أرسطو سؤالاً أساسياً جداً وبسيطاً للغاية وهو: كيف يمكن لنا أن نصبح بشراً صالحين؟ وكانت إجابته على نفس القدر من البساطة: نصبح بشراً جيدين بنفس الطريقة التي نصبح بها جيدين في معظم الأشياء الأخرى، أي من خلال الممارسة والتكرار. وكما كتب: «أي شيء يتعين علينا أن نتعلم القيام به فنحن نتعلمه من خلال القيام الفعلي به: إذ يصبح الناس بناءً عن طريق البناء وعازفين بالعزف على الآلات الموسيقية. وبالمثل، فنحن نصبح عادلين من خلال القيام بالأفعال العادلة، ومعتدلين عن طريق القيام بالأفعال المعتدلة، وشجعاناً من خلال أداء الأعمال الشجاعة».¹

للوهلة الأولى، قد يبدو هذا شعوراً فطرياً. فكيف يمكن أن نتعلم أي شيء دون فعله، أو على الأقل محاولة القيام به؟ إذ أن هذه هي الطريقة التي نتعلم بها الرياضيات، وقيادة السيارة، ورمي الباترينغ، وهكذا. ولكن يبدو أن هناك مشكلة في فكرة أرسطو. إذ يبدو من السهل بما فيه الكفاية التمييز

بين الأنشطة والإجراءات التي تنطوي عليها، مثل بناء منزل أو العزف على آلة موسيقية، ولكن كيف نجرب الأفعال العادلة والاعتدال والشجاعة؟ وكيف نحدد ما إذا كان أي فعل معين يجسد الفضائل التي نحاول اكتسابها وتطويرها؟.

ولحسن الحظ كان لأرسطو إجابة على هذه المشكلة: إذا كنا نريد أن نعرف ما يعنيه أن تكون عادلاً أو معتدلاً أو شجاعاً، فيجب أن ندرس هؤلاء الأشخاص الذين يتصفون بهذه الفضائل.² فالشخص العادل، بعد كل شيء، هو الشخص الذي يقوم بأفعال عادلة بشكل منتظم وموثوق؛ والشخص المعتدل هو الشخص الذي يمكن الاعتماد عليه في عدم الإفراط في الانغماس؛ والشخص الشجاع هو الشخص الذي يواجه المخاطر دون أن يتراجع. لذا، فإذا أردنا معرفة المزيد عن العدالة أو الاعتدال أو الشجاعة، يجب أن ننظر إلى هؤلاء الأشخاص المثاليين من الناحية الأخلاقية والذين نعتقد أنهم في الحقيقة عادلون أو معتدلون أو شجعاناً.

ومع ذلك، فإذا كنا نريد أن نكون عادلين أو معتدلين أو شجعاناً، فلا ينبغي لنا فقط أن ندرس تصرفات الأشخاص العادلين والمعتدلين والشجعان. بل علينا أيضاً أن نحاول تقليد أفعال هؤلاء الأشخاص، على أمل أن نتمكن خلال العملية من اكتساب صفاتهم الأخلاقية أو فضائلهم المثيرة للإعجاب. فإذا كنا نريد أن نكون شجعاناً، فعلينا القيام بأعمال مشابهة لتلك التي يقوم بها الرجل الشجاع؛ وإذا كنا نريد أن نصبح معتدلين، فيجب علينا القيام بأعمال مشابهة لتلك التي يؤديها رجل معتدل؛ وهلم جرا.

هل يعتبر باتمان مثلاً أخلاقياً نموذجياً بالنسبة لبشري؟

لنتأمل العلاقة بين باتمان وروبين. لا يقتصر دور باتمان على تعليم روبين

مهارات معينة بشكل محدد فقط، مثل كيفية استخدام الباترينغ أو أفضل طريقة لنزع السلاح من يد المجرمين. ولكن من خلال كيفية تصرفه في مواقف محددة، حيث يزود باتمان روبن ببعض المعايير والقواعد الأخلاقية؛ مثل فكرة أنه ينبغي ملاحقة المجرمين بلا هوادة، وأن المخاطر يجب مواجهتها دون توائ، وأن على المرء أن يحاول جعل العالم مكاناً أفضل. من خلال الاقتداء بباتمان، من خلال محاولة التصرف كما يتصرف باتمان، لا يكتسب روبن بعض المهارات والقدرات العملية تدريجياً فقط، ولكنه يكتسب أيضاً نظرة أخلاقية وعدداً من الفضائل (كالشجاعة والشعور بالعدالة) المتعلقة بهذا الأفق.

وبهذا يعتبر باتمان مثلاً جيداً لما كان يفكر فيه أرسطو عندما اقترح أن نتطلع لشخص فاضل للحصول على إرشادات حول كيفية أن نصبح أشخاصاً أفضل أخلاقاً. ففي مدينة غوثام، في عالم DC بشكل عام، وحتى في واقعنا الدنيوي، ينظر الكثير من الناس إلى باتمان كقدوة أخلاقية بشرية. وذلك لأسباب وجيهة: فباتمان شجاع وذكي بلا أدنى شك. حيث أن لديه شعوراً قوياً بالعدالة، وهو قادر على الحفاظ على برودة أعصابه حتى في خضم المعارك، وهو على استعداد للتضحية بحياته وسعادته لجعل العالم مكاناً أفضل. وكلها تمثل صفات مرغوبة وقيمة نتمنى لو يمتلكها المزيد من الناس. لذا، وبناءً على اقتراح أرسطو، ينبغي لنا جميعاً أن نحاول أن نكون أكثر شبيهاً بباتمان، وأن نتصرف كما يتصرف هو، على أمل أن نتمكن تدريجياً من اكتساب بعض الفضائل التي لديه. يبدو بأن نايت وينغ، وروبين، وأوراكل، وغيرهم من الأبطال الذين اختاروا باتمان كنموذج مثالي لنمذجة حياتهم وتبنيها، يتبعون نصائح أرسطو السليمة. فلقد اختاروا محاكاة أفعال وسلوكيات الشخص المثالي من الناحية الأخلاقية من أجل اكتساب وتطوير الصفات المرغوبة أخلاقياً التي يمتلكها.³

ومع ذلك فهناك العديد من المشكلات في تفسير أرسطو. فقد يكون محققاً تماماً في أننا نكتسب فهمنا الأول للصواب والخطأ عن طريق اتباع أمثلة الأشخاص الذين نعتبرهم قدوة أخلاقية. عملياً، فإن الأشخاص الذين يتخذهم الأطفال قدوة أخلاقية، في أكثر الأحيان، هم أشخاص في موقع السلطة، مثل آبائهم ومدرسيهم، وما إلى ذلك. لذا فليس من المستغرب أن ينظر روبن إلى باتمان كشخص يستحق الاتباع والتقليد. فكل من روبن الأول والثاني، ديك غرايسون وجيسون تود، يعتبران باتمان أباً لهما بطريقة ما. حيث تبنى بروس واين ديك غرايسون بوصاية قانونية بعد مقتل والديه، وتبنى جيسون تود بعد أن فاجأه وهو يحاول سرقة إطارات الباتموبييل.⁴

ولكن لا ينبغي اتخاذ الناس كقدوة أخلاقية لمجرد أنهم في مواقع السلطة؛ إذ يجب اعتبارهم مثاليين أخلاقياً لأنهم مثاليين أخلاقياً. فلا ينبغي اعتبار باتمان شخصاً يجسد العديد من الفضائل القيمة لكونه باتمان فقط، ولكن لأنه يجسد هذه الفضائل فعلياً. وعلى الأطفال أن يختاروا الإعجاب بالأشخاص الذين يستحقون فعلاً أن يتم الإعجاب بهم ويحاكوهم، بدلاً من الأشخاص الذين صادف وأنهم شخصيات في موقع السلطة فقط. إذ لا يعد الآباء والمعلمون نماذج أخلاقية مثيرة للإعجاب بالضرورة، وحقيقة أن الأطفال كثيراً ما يعجبون بوالديهم ويقلدونهم لا تعني أن والديهم يستحقان الإعجاب والتقليد بالفعل. تخيل فقط ما كان سيحدث لو أن الجوكر، وليس باتمان، كان قد تبنى ديك غرايسون.

لنسمي هذا بـ«خلاف غوردن - يندل»

إذن كيف نعرف أن الأشخاص الذين نعتبرهم فاضلين أخلاقياً هم

فاضلون أخلاقياً بالفعل؟ قد يعتقد معظم الناس في مدينة غوثام، وكذلك معظمنا في العالم الواقعي هنا، بأن باتمان شجاع، وذكي، وعادل، وقوي، وما إلى ذلك. ولكن لا يعتقد الجميع بهذا بالفعل. حيث يعتقد بعض الناس بأن باتمان هو حارس قانون مستقل خطير، إذ يشكل عدم احترامه المتعمد للقانون تهديداً أكبر بكثير للمجتمع مما تشكله أفعال المجرمين الذين يساهم بإلقاء القبض عليهم.

مسألة ما إذا كان باتمان بطلاً أم شريعراً هو موضوع مهم للغاية في قصة فرانك ميلر⁵. (The Dark Knight Returns (1986) فعندما استقال جيمس غوردون من منصب مفوض الشرطة في مدينة غوثام، كان طلبه الأخير هو أن يطلب من خليفته، إلين يندل، أن تستفيد مما لدى باتمان من معلومات وتتعلم منه. ولكن بدلاً من ذلك، فإن أول إجراء تقوم به يندل كرئيس جديد لقسم الشرطة هو التنديد بباتمان بصفته حارساً مقنعاً خارجاً عن القانون وتوقيع مذكرة توقيف لإلقاء القبض عليه على الفور. لتندم يندل على هذا القرار لاحقاً، وبنهاية القصة، تتحول لدعم تصرفات باتمان بالفعل. ولكن رد فعلها المبدئي، وردود الفعل الأخرى من قبل العديد من الشخصيات التي تظهر في قصة ميلر، هو رفض واضح لفكرة كون باتمان شخصاً يستحق الشناء من الناحية الأخلاقية.

إن الاختلاف حول الوضع الأخلاقي لباتمان يكشف أن مجرد اعتبار شخص ما فاضلاً أخلاقياً ويستحق المحاكاة لا يعني أنه في الحقيقة فاضل أخلاقياً ويستحق المحاكاة. ولكن كيف يجب أن نقرر ما إذا كان شخص ما فاضلاً أخلاقياً بالفعل؟ فنحن ببساطة لا يمكننا الاعتماد على الرأي العام أو نصيحة الآخرين، حيث يمكن للرأي العام أن ينقسم ويمكن للناس أن يختلفوا. فكل من جيمس غوردون وإلين يندل أشخاص أذكاء للغاية ويعيشان في نفس البلد، بل وفي نفس المدينة، ويتقاسمان الكثير من المعتقدات

والقيم الأخلاقية. لكنهما يختلفان بشدة حول الوضع الأخلاقي لباتمان. إذ لا يمكن لكل من غوردون ويندل أن يكونا على صواب في الوقت ذاته، إذاً كيف سنقرر من المحق بينهما؟ والأهم من ذلك، إذا لم يكن لدينا تصور واضح يتفق عليه الجميع حول من الذي يتمتع بالفضيلة الأخلاقية ومن الذي لا يتمتع بها، فكيف يمكننا أن نصبح أشخاصاً أفضل أخلاقياً؟ يبدو بأن مفهوم أرسطو للتعليم الأخلاقي يواجه مشكلة.

وفي الزاوية الأخرى هناك... كانط!

يمكن تتبع هذه الاعتراضات على فلسفة أرسطو للتربية الأخلاقية رجوعاً إلى الفيلسوف الألماني إيمانويل كانط (1724 - 1804). إذ في كتابه المؤثر «أسس غيبيات الأخلاق» (1785)، انتقد كانط فكرة أنه يمكننا استخدام البشر المثاليين أخلاقياً لتحديد ما يجب فعله، وكيفية التصرف، وما إذا كان هناك إجراء معين يعتبر صواباً أو خطأ: «لكل مثال. يتم تقديمه لي يجب أن يُقيّم وفقاً للمبادئ الأخلاقية، ليثبت فيما إذا كان يستحق أن يكون مثلاً أصيلاً، وبالتالي يصلح كنموذج». ⁶ ادعى كانط أن هذا سيكون صحيحاً حتى بالنسبة إلى يسوع، وكان سيقول الشيء نفسه عن باتمان أيضاً كما نفترض. إذ لا يمكن تحديد ما إذا كان باتمان إنساناً مثالياً من الناحية الأخلاقية بالفعل، ويستحق الإعجاب والتقليد، من خلال الاعتماد على ما يعتقدونه الآخرون عنه فقط، أو من خلال سلطته الظاهرية. نحن بحاجة إلى أن نسأل مباشرة ما إذا كان باتمان يجسد المعايير والمتطلبات الأساسية للأخلاق.

بالنسبة لكانط، فإن أهم ميزة للوجود الإنساني، وبالتالي أهم قيمة أخلاقية، هي الحرية. حيث جادل كانط في كتاب أسس غيبيات الأخلاق بأن السمة المميزة للبشر هي قدرتهم على توجيه حياتهم وفقاً للمبادئ أو

القوانين العقلانية والعالمية والتي اختاروها هم أنفسهم. وقد أطلق كانط على هذه القدرة أسم الإستقلالية، وادعى بأن كون المرء مستقلاً، قادراً على توجيه حياته وفقاً للمبادئ العالمية التي يتم اختيارها أو تشريعها ذاتياً، هي ماهية الحرية الإنسانية: "ما الذي تكونه حرية الإرادة إذاً غير الإستقلالية، أي أن تكون ملكية الإرادة قانوناً لذاتها؟".⁷

وفقاً لكانط، فإن كل إنسان لديه القدرة على التصرف بشكل مستقل بقدر ما هو عقلائي.⁸ لكن لا يستخدم كل شخص هذه القدرة أو يدركها فعلياً. فبعض الناس لا يعيشون حياتهم وفقاً للمبادئ التي اختاروها لأنفسهم، ولكن وفقاً للطريقة التي يعتقد الآخرون أنه يجب عليهم العيش بها. ويدعو كانط الظروف التي تحدد حياتك وتصرفاتك بواسطة سلطات أو قوى خارجية بالتبعية.⁹ في "ما هو التنوير؟" يقدم كانط الوصف التالي لما يعنيه أن يكون المرء في موضع التبعية ويشرح لماذا لا يتخلى الكثير من الناس عن هذا الوضع حيث يقول: "من المريح جداً أن تكون قاصراً! فإذا كان لديّ كتاب يفهم لأجلي، ومستشار روعي لديه ضمير لأجلي، وطبيب يقرر نظاماً صحياً لي، وهكذا، فأنا لن أزعج نفسي على الإطلاق. إذ لست بحاجة إلى التفكير فيما لو كان بوسعي الدفع فقط؛ حيث سأعهد للآخرين بالأعمال التي أجدها مزعجة بالنسبة لي بكل سهولة".¹⁰

كانت التبعية على مدار التاريخ، كما يدعي كانط، هي الخيار المتعارف لمعظم الناس. لقد كان الآلهة والكهنة والملوك والأطباء والسياسيون منشغلين في تقرير كيف ينبغي للبشر أن يعيشوا ولم يتركوا إلا القليل من الإستقلالية لهؤلاء الأفراد. ولم يحتاج معظمهم على ذلك، لماذا؟ لأنه من السهل والمريح السماح للآخرين بتحديد ما نفكر فيه وكيف نتصرف. حيث يتمثل الغرض الأساسي من التربية الأخلاقية، بالنسبة لكانط، في نقل الناس من هذا الوضع المريح للتبعية إلى درجة يمكنهم من خلالها

ممارسة قدرتهم على الاستقلالية بشكل فعال. ويعتقد كانط أن هذا يتعارض إلى حد ما مع فكرة أرسطو في التربية الأخلاقية باعتبارها تعتمد على عملية تقليد ومحاكاة الأشخاص الآخرين في المقام الأول. "إن المقلد (في الأمور الأخلاقية) هو من دون شخصية، لأن الشخصية تتحدد من خلال الأصالة في التفكير" على حد تعبير كانط.¹¹ والمشكلة في فكرة أرسطو هي أنه من خلال السماح لتصرفات شخص آخر (شخص كباتمان على سبيل المثال) في تحديد الكيفية التي سأصرف بها، يبدو بأنني أسلم نفسي لسلطة خارجية: أي أحيل المسؤولية عن حياتي إلى شخص آخر رافضاً قبول عبء اتخاذ القرار في كيف أعيش وما الذي يجب أن أكونه بنفسني.

يقدم المسلسل التلفزيوني الشهير Batman (أو ربما غير الشهير) في الستينيات مثلاً متطرفاً لما يدور في خلد كانط. إذ أن واحدة من أكثر السمات إثارة للغضب في هذا المسلسل، حتى بالنسبة للجماهير، هي الطريقة التي يظهر بها روبن (الذي لعب دوره برت وارد) كنسخة رخيصة من باتمان (آدم ويست). فباتمان هو من يخرج بجميع الأفكار اللامعة، أمّا روبن فهو يقوم باتباعه فقط. وكلما نجح شرير الأسبوع في محاصرة باتمان وروبين بشراكه، بحيث أنهم "لن يخرجوا أبداً من هنا على قيد الحياة" من هذا الفخ، كان دائماً باتمان - وليس روبن - هو الذي يجد الطريق الوحيد وغير المعقول غالباً للهروب. وعندما يتوجب على الثنائي اكتشاف بعض الأدلة الغامضة، فإنه دائماً ما يكون باتمان - وليس روبن - هو من يتمكن من فك شفرتها. المشكلة لا تكمن في كون روبن لا يحاول ذلك؛ ولكنها في أنه كلما حاول إظهار المبادرة والتفكير بمفرده، فإنه يفشل لأنه لم يكتسب إطاراً مستقلاً للعقل. إذ أنه قد أكتسب أسلوب باتمان في التفكير بشكل أقل فعالية من النسخة الأصلية.

ديك غرايسون وكيف تصبح إنساناً مستقلاً (أو نرجع لك أموالك!)

إذاً نحن نواجه مشكلة. فمن ناحية، تبدو نظرة أرسطو عن كيفية اكتساب وتطوير البشر نظرة أخلاقية مقنعة للغاية؛ إذ أننا نقلد ونحاكي أولئك الذين نعتبرهم مثاليين من الناحية الأخلاقية، ومن خلال محاولتنا لتتبع نموذجهم، فإننا نكتسب تدريجياً بعض القيم والمعايير والفضائل. ومن ناحية أخرى، يبدو كانط محقاً أيضاً في الإصرار على أن الاستقلالية، أي القدرة على تحديد المبادئ والقواعد التي تشكل مسار حياة المرء ذاتياً، وهي سمة أساسية لما يعنيه أن يكون الإنسان إنساناً. والمشكلة هي أن هاتين الفكرتين تبدوان وكأنهما تسيران في اتجاهات مختلفة. حيث يعتقد أرسطو أن الأمثلة التي وفرها أشخاص آخرون تلعب دوراً مهماً في التربية الأخلاقية؛ بينما يعتقد كانط بأن الاعتماد على تصرفات وسلوك الآخرين لإخبارنا بما يجب فعله يرقى ليكون إنكاراً للاستقلالية. إذاً فمن المحق بينهما؟.

ربما يكون كلاهما على حق جزئياً على الأقل. إذ يبدو واضحاً أن معظم الأطفال غير قادرين على توجيه حياتهم بوعي وفقاً للمبادئ العالمية التي اختاروها هم أنفسهم. إنهم ببساطة لا يملكون القدرة على القيام بذلك. فلو تبيننا رأي كانط جدياً، فإن إحدى أهم مهام التربية الأخلاقية يجب أن تكون في تزويد البشر غير الناضجين بهذه القدرات. ولكن قد تكون إحدى الطرق التي يكتسب بها البشر القدرات اللازمة للاستقلال الكامل هي عن طريق تقليد ومحاكاة الأشخاص الآخرين، ولا سيما الأشخاص الذين يبدو بأنهم يجسدون فضائل أخلاقية مهمة. إذا كان الأمر كذلك، فربما يكون كل من أرسطو وكانط على حق تماماً: حيث يصف أرسطو المراحل الأولية في عملية التربية الأخلاقية، في حين يركز كانط على هدف هذه العملية أو نهايتها. وربما لن يوافق كانط ولا أرسطو على هذا، ولكن

لو أقررنا بأن كلاهما كان لديه شيء صحيح، فقد يكون هذا هو الثمن الذي يتعين علينا دفعه. حيث في الفلسفة، كما هو الحال في الحياة، لا يمكنك افتراض أن كون شخص ما على حق في شيء واحد، يجعله محقاً في كل شيء آخر.

سنتمكن مرة أخرى من استخدام علاقة باتمان وروبين لصقل فهمنا. حيث تمثل أحد الاختلافات بين روبن من المسلسل التلفزيوني في الستينات وروبين الموجود في القصص المصورة في أن الأول لا يتمكن مطلقاً من تطوير شخصية مستقلة وإطار ذهني (لا يزال في حالة من التبعية)، بينما يفعل الآخر ذلك. ففي القصص المصورة، يطور ديك غرايسون، أول من جسد روبن، حياة منفصلة عن باتمان ومستقلة عنها. إذ تخرج من المدرسة الثانوية (وذلك ليس بالأمر الهين حين يكون مترافقاً مع مساعدة باتمان في محاربة الجريمة)، وترك مدينة غوثام للالتحاق بالجامعة، ثم يقوم بقيادة نسخ عديدة من التين تايتنز. وفي اللحظة الحاسمة في حياته المهنية، يتخلى ديك غرايسون عن هويته كروبين، يتبنى شخصية خارقة جديدة يدعوها بنات وينغ. ويؤدي به هذا القرار في بعض القصص القليلة الى مواجهة قوية ضد باتمان والذي يرفض في بداية الأمر تخلي ديك غرايسون/ روبن عنه كمساعد له. ومع ذلك، فإن نايت وينغ يثابر ويمضي ليصبح بطل مدينته، Blüdhaven.

لا يحرر ديك غرايسون نفسه من تأثير باتمان ويصبح مقاتلاً محترماً للجريمة بشكل مستقل فقط، بل وإنه يستخدم القدرات والسمات الشخصية التي اكتسبها وتعلمها من باتمان. فمن الواضح أن نايت وينغ يستخدم مهارات التحقيق التي تعلمها من باتمان، والقدرات البدنية والعقلية التي طورها من خلال التعاون المتبادل معه، في حربه ضد الجريمة. وبنفس الدرجة من الأهمية رغم أنها أقل وضوحاً، هي الطريقة التي يوظف بها

نايتوينغ الشجاعة، الذكاء والنزاهة التي ساعد باتمان في غرسها فيه، لتحرير نفسه من سلطة باتمان. يتطلب الأمر شجاعة للوقوف في وجه باتمان، حيث أن معظم الأشرار (والعديد من الأبطال الخارقين) سيشهدون على ذلك، ولكن نايت وينغ قد تمكن من فعل ذلك لدرجة إقناع باتمان باحترام قراره وتخلي الأخير عنه كروبن. وقد كان قادراً على القيام بذلك إلى حد كبير بسبب الشخصية الأخلاقية التي اكتسبها من خلال علاقته مع باتمان.

يبدو بأن ديك غرايسون قد اكتسب وطور القدرات اللازمة له ليصبح إنساناً مستقلاً، وذلك من خلال تقليد ومحاكاة شخص قدوة أخلاقية بشكل رئيسي، وهو باتمان. إذا كان هذا صحيحاً، فلا يوجد تعارض بين أرسطو وكانط بالضرورة. أو لا يوجد تعارض بالضرورة على الأقل بين الفكرة الأرسطية بأن التربية الأخلاقية تتضمن التعلم من الآخرين ومحاكاتهم والإصرار الكانطي على أهمية الإستقلالية، والقدرة على توجيه حياة الفرد لذاته وفقاً لاختياراته أو تشريعاته الذاتية حسب مبادئ عالمية.

وهذا يجب أيضاً على سؤال آخر، ألا وهو كيف نحدد ما إذا كان الشخص الذي نعتبره مثالياً من الناحية الأخلاقية ويستحق المحاكاة هو في الواقع نموذجاً أخلاقياً مثالياً. تذكر أن كانط كان يعتقد أنه لكي يكون أحد ما مؤهل كشخص مثالي من الناحية الأخلاقية، يجب عليه "أن يُقيّم وفقاً للمبادئ الأخلاقية أولاً".¹² فبالنسبة لكانط، إن الإستقلالية، أو القدرة البشرية على توجيه المرء لحياته وأفعاله وفقاً لمبادئ تقرير المصير، هي القيمة الأخلاقية الأكثر أهمية. وباستخدام المفهوم الكانطي للإستقلالية، يمكننا الآن أن نقول بأن الشخص مثالي من الناحية الأخلاقية إذا كانت محاكاة أفعاله وسلوكه ستساعد الناس على تطوير القدرات والكفاءات اللازمة ليصبحوا بشراً مستقلين. وإذا كان ما قلناه حول نايت وينغ صحيحاً، فيمكن إذاً اعتبار باتمان شخصاً مثالياً من الناحية الأخلاقية حقاً.

الخروج من ظل الوطواط

لقد أظهر التطور الأخلاقي لديك غرايسون بأنه يمكن التوفيق بين أرسطو وكانط. حيث يمكن أن تكون الفضائل والقدرات التي نكتسبها عن طريق محاكاة أشخاص آخرين خطوة (وربما ضرورية) على الطريق لنصبح بشراً مستقلين قادرين على تحمل مسؤولية حياتنا.

وكما أشار كانط، فإن من السهل والمريح أن تكون في حالة من التبعية، أن تكون الشخص الذي حمل مسؤولية حياته إلى الملوك والكهنة والآباء والأمهات. إذ ليس من السهل تحمل مسؤولية حياتنا الشخصية، وتعد القدرة على القيام بذلك إنجازاً، وليس شيئاً يمكن أن يحدث ببساطة. حيث يمكن للآخرين تقديم المساعدة والإرشاد لنا، ويمكن أن تلهمنا حياتهم وأفعالهم لتحسين أنفسنا، لنصبح الشخص الذي يجب أن نكون عليه. ولكن في مرحلة ما يجب أن نتوقف عن الاسترشاد بالآخرين؛ علينا أن نتوقف عن عيش حياتنا من خلال النماذج التي وضعت لنا من قبل أشخاص آخرين، والبدء في اتخاذ قراراتنا لأنفسنا حول ما يجب فعله، وكيف نتصرف، وأي نوع من الأشخاص يجب أن نكون عليه بأنفسنا نحن. بإمكان باتمان أن يلهمنا، ولكن في النهاية، ومثلما حدث مع ديك غرايسون، فأن علينا تولي مسؤولية حياتنا وأن نتخلى عن راحة العيش في ظل الوطواط.

- 1- أرسطو، الأخلاق النيقوماخية، ترجمة وتحرير ج. أ. ك. ثومبسن (London: Penguin Classics 1976) الصفحات 103b2-5 تشير الأرقام إلى أرقام الصفحات الهامشية الموجودة في كل إصدارات هذا العمل.
- 2- المرجع السابق، الصفحات 1140a24 - 25.
- 3- لنقاش أكثر حول فكرة أرسطو عن الأخلاق التربوية، راجع مقالة ديفيد كايل جونسون وريان إندي رودس في الفصل التاسع من هذا الكتاب.
- 4- تيم درايك، روبن الثالث، هو حالة مختلفة إلى حد ما. كان تيم يملك عائلته الخاصة عندما انضم لباتمان؛ اختار طوعية البحث عن باتمان ليصبح معاوناً له؛ ولم يتبناه بروس إلا لاحقاً. اعتمد تيم على باتمان كأب له بدرجة أقل بكثير من تجسيدات روبن الأخرى، وربما يكون هذا هو سبب عدم خوفه من باتمان أبداً كما كان كل من ديك وجيسون.
- 5- بالمناسبة، كانت مشكلة المقتضين خارج إطار القانون مهمة أيضاً في بداية حياة باتمان المهنية. أظهر باتمان في قصصه المبكرة عدم احترام أكبر للقانون مما كان عليه الأمر في وقت لاحق من حياته المهنية، حيث كانت سمة سرعان ما غيرها مؤلفوه. شاهد مناظرة ويل بروكر الثابتة حول أصل أسطورة باتمان، الفصل الأول من باتمان من دون قناع: تحليل أيقونة ثقافية (London: Continuum International Publishing Group 2000).
- 6- إيمانويل كانط، أسس غيبات الأخلاق، ترجمة ماري غريغور، في مجلد الفلسفة العملية لطبعة كامبريدج لأعمال إيمانويل كانط (Cambridge: Cambridge University Press 1999)، الصفحة 408. جميع الإشارات اللاحقة لكتابات كانط هي أرقام الصفحات القياسية الهامشية الموجودة في جميع الطباعات اللاحقة لنصوصه.
- 7- المرجع السابق، الصفحات 446-447.
- 8- المرجع السابق، الصفحة 440.
- 9- المرجع السابق، الصفحات 433-441.
- 10- "ما هو التنوير؟" لكانط، ترجمة ماري غريغور، في مجلد الفلسفة العملية لطبعة

كامبريدج لأعمال إيمانويل كانط (Cambridge: Cambridge University Press 1999)، الصفحة 36.

11 - "الأثروبولوجيا من وجهة نظر براغماتية" لكانط، ترجمة روبرت لودن (Cambridge: Cambridge University Press 2006)، الصفحة 293.

12 - أسس غيبياات الأخلاق لكانط، الصفحة 408.

مكتبة
t.me/t_pdf

طاوية الوطواط

البات - تزو (في مقابلة مع مارك د. وايت)

- السيد وطواط - تزو، شكراً لك على السماح لي بمقابلتك، خاصة أنك لم تتحدث لأحد سابقاً عن علاقتك الفريدة بروس واين، والمعروف للبعض أيضاً بباتمان.

- على الرحب والسعة. إن كانت كلماتي المتواضعة هنا ستنتهي في تقديم الفائدة لأي كان، فأنا سعيد لقيامي بذلك. ونعم، كما قلت، فإنني أعرف بروس منذ كان طفلاً صغيراً. فقد كنت صديقاً لعائلته، ولوالده تحديداً كما تعلم. كان الدكتور واين رجلاً صالحاً، ودائماً ما أفكر فيه هو وزوجته، وصغيرهما بروس بالطبع.

لقد حاولت أن أكون صديقاً لبروس منذ وفاة والديه المبكرة. لقد حاولت إرشاده لطريق أكثر إنسجاماً، ولكنه قد أختار طريقاً مختلفاً، وهو ما دعاه بـ «طريق الوطواط».¹ وعلى الرغم من أنني لم أكن موافقاً على توجهه ذلك، لكنني حاولت تقديم المشورة له قدر المستطاع.

- لماذا لم تكن موافقاً على خياره هذا؟

- لا تسيء فهمي أرجوك، فهو يمتلك قدراً غير محدود من الخير بصفته باتمان. ولكن حياته كباتمان هي حياة خالية من توازن، والتوازن ضروري لكل الأشياء، وللبشر خصوصاً. وأهمية التوازن هي واحدة من التقنيات المركزية لأساتذة الطاوية، مثل لاو - تزو وتشوانغ - تزو، وقد كانوا بمثابة أساتذة لي من خلال ما كتبوا، كما أنا بالنسبة لبروس.²

- أساتذة الطاوية؟

- نعم، الطاوية فلسفة شرقية قديمة، يرجع زمنها لزمان لاو - تزو، وهي تركز على التدفق الطبيعي للكون. يسمي الصينيون هذا طاو، أو «الطريق»، لعدم توفر إسم أفضل لها. في الحقيقة يقول لاو - تزو بأن الطريق هو ما لا يمكن تسميته.³ ويحاول الطاويون مناغمة أنفسهم مع الطريق من خلال موازنة القوى المتضادة ضمن ذواتهم، كالضوء والظلام، الأنوثة والذكورة، النعومة والشدة، وهو ما يطلق عليه الطاويون اسم الين واليانغ.

- هل هو ذلك الرمز الدائري الأبيض والأسود الشهير؟

- صحيح، حيث يمثل الرمز التوازن بين القوى المتضادة والتي تحدد كل شيء في العالم الذي نعيش فيه. إذ تمثل اليانغ (النصف الأبيض من الدائرة) الذكورة، والشدة، والقساوة، بينما تمثل الين (النصف الأسود من الدائرة) الأنوثة والرقّة والحنان. والطريقة التي يظهر بها كلا النصفين كأفّاعٍ يطارد أحدهما ذيل الآخر تبين أن كلا النصفين يتدفق نحو الآخر ويحدد الآخر في نهاية المطاف. وهذا مُبين أيضاً في النقطة البيضاء وسط النصف الأسود والنقطة السوداء وسط النصف الأبيض، حيث نخبرنا ذلك بأن أصول كل جزء تقبع ضمن الجزء الآخر.

ومنذ ذلك اليوم المشؤوم، أخشى أن يكون بروس قد سمح لجانب اليانغ خاصته بأن يهيمن عليه، مؤمناً بأن من الضروري تخليص مدينته

الحبيبة غوثام من المجرمين المنتشرين فيها، متناسياً بأن عليه أن يستمر باحتضان جانب الين فيه.

- هل يعني هذا بأنه يمتلك الين؟

- نعم، فكل شخص يمتلك هذا الجانب، وهو لا يمثل إستثناءً، فبإمكانك أن ترى ذلك الجانب منه في أقل لحظات حياته توتراً، خصوصاً عندما يكون برفقة ديك وتيم. . .

- تقصد بذلك كل من روبن الأول وروبن الحالي؟

- صحيح، إذ كان بروس صارماً ومتطلباً جداً معها، وذلك وفقاً لجانب اليانغ فيه، ولكن كانت لديه لحظات رقيقة معها أيضاً (رغم ندرتها).
- ألم يقيم مؤخراً بنوع من (السعي الروحي) مع ديك وتيم؟ هل تعتقد بأن ذلك يظهر سعيًا ما لتحقيق التوازن؟

- نعم، في العام الذي قضاه مسافراً حول العالم بعد تلك الفوضى الرهيبة مع ليكس لوثر وبرذر آي، عندما كاد ديك أن يُقتل.⁴ أعتقد بأنه أدرك حينها بأن جانب اليانغ فيه قد هيمن لمدة طويلة، وقد أصبح عنيفاً وبارداً ومصاباً بجنون العظمة، حتى بالنسبة لشخصيته كبروس. لقد كتب لاوتزو بأن: «الحكماء ينبذون من أنفسهم التطرف، والعنف، والغطرسة».⁵ وأنا أعتقد بأن ذلك هو ما بدأ بفعله. حيث أنني كنت قد بدأت أرى تغيراً في شخصيته بعد عودته مباشرة بالفعل، حيث قرر بعد فترة وجيزة من عودته تبني تيم. وقد أظهر هذا النوع من الحنان لابنة سلينا كايل الجميلة، هيلينا، وقد سمعت بأنه قد قام بإهدائها دبوباً وهو يرتدي زي باتمان!.

وكان قد سامح الساحرة حتى، تلك التي كان أسمها. . .

- أتعني زاتانا؟ قارئة العقول؟

- نعم، زاتانا، تلك الفتاة اللطيفة، على الرغم من كونها عصية على

الفهم في أغلب الأحيان.

- ها!

- حتى أنا كنت متفاجئاً عند سماعي بذلك، فقد أعتقدت بأن بروس لن يسامحها أبداً بعد إنتهاكها لعقله كما فعلت.⁷ ولكن كما ترى، فجاناب الين الدافئ والرقيق فيه قد تقبل عيوب الآخرين وقد بدأ بالتجلي أكثر منذ عودته. إنه لا يزال بحاجة لجانب اليانغ فيه بالطبع، ليس لأجل أن يكون باتمان فقط، ولكن لأجل أن يكون شخصاً كاملاً، في تناغم مع العالم والطاو. فكل شخص فينا بحاجة إلى ذلك التوازن بين الشدة والرقّة، بين الذكورة والإنوثة.

- لماذا فعل باتمان ذلك؟ إذ أن أحد سماته الرئيسية هي تفانيه وعزمه في محاربة الجريمة.

- ولكن شخصاً من دون توازن لا يملك إنسجاماً، «حيث أن معرفة الإنسجام تدعى بالثبات، ومعرفة الثبات تدعى بالوضوح».⁸ فالعديد من معلمي بروس كانوا قد علموه هذا، ولست أنا فقط.⁹ حيث يتم تعريف العالم من خلال ثنائية القوى المتعارضة التي يجب أن تكون متوازنة لكي تكون فعالة، وهذا هو معنى اختلاط الأبيض والأسود في رمز الين واليانغ. كتب لاوتزو: «إن الوجود والعدم ينتج أحدهما الآخر: فالصعوبة والسهولة يكمل أحدهما الآخر، الطول والقصر يشكّل أحدهما الآخر، الإرتفاع والإنخفاض يتباينان مع بعضهما البعض، الصوت والصدى يؤكد أحدهما الآخر، الماضي والمستقبل يسيران قدماً جنباً لجنب مع بعضهما البعض».¹⁰ إذ أن من دون ما هو مثير للإشمئزاز، لن نميز الجميل؛ ومن دون الظلام، ما كان ليكون ضوءاً. نحن بحاجة لما هو سيء لتمييز ما هو جيد، كيف كنا سنعلم ما هو جيد من دون ذلك؟.

- أنظر لبروس كمثال، فهو مُعرّف من خلال العديد من الثنائيات. فهو يعيش علناً في قصر واين الفخم والفسيح، ولكنه يقضي معظم وقته في كهف مظلم وكئيّب، مغطى بفضلات الخفافيش (أشياء مقرّفة). إنه أحد أغنى الأشخاص في العالم، أحد قادة الصناعة، ولكنه ينفق الكثير من ثروته في القضايا الخيرية، بالإضافة لتمويله لأنشطته المضادة للجريمة. لقد كان بإمكانه أن يعيش حياة مليئة بالرفاهية بكل سهولة، لكن بدلاً من ذلك فقد كرس نفسه لأداء مهمات يعرف أنه لن ينال التقدير عليها، محارباً الجريمة، ومكافحاً الإرهاب والإصابة التي كانت ستسقط أي شخص آخر مكانه. إنه أحد أذكى وأكثر البشر تعلماً في العالم، فضلاً عن كونه نموذجاً للكمال الجسدي، رغم ذلك فهو لا يتفاخر بتلك الميزات التي يملكها، ولكن بدلاً من ذلك فهو يستخدم قدراته تلك لصالح البشرية، غير مطالب للفضل عن إنجازاته..

فكر بهذا، صديقي، إذ بالرغم من كل قواه الجسدية، وزيه المظلم والمخيف، وحجمه وحضوره الهائل، فإن أكثر سمات باتمان تريباً هو ما ليس له وجود حتى، ظله! فكما كتب لاو - تزو: «يستخدم الوعاء حين لا يوجد شيء. عندما نفتح أبواباً ونوافذ غرفة ما، فذلك عندما لا يكون هنالك شيء مادي ثمين في تلك الغرفة». 11 يمكن أن يكون اللا شيء أكثر أهمية من المادة، حيث يستخدمها بروس «لزرع الخوف في قلوب المجرمين»، كما يجب أن يقول هو.

الآن ما الذي كنت أقوله، أوه حسناً، إن بإمكانه أن يكون أحادي التوجه كما تقول. فلو كنت أملك قرشاً مقابل كل مرة طلبت فيها منه أن يأخذ إجازة ويستمتع بصحبة إحدى النساء الجميلات والذكيات اللواتي إلتقاهن على مدى أعوام، فكنت لأستطيع تذويب تلك القروش لسبك عملة شديدة الضخامة، كتلك الإسطوانة الموجودة في كهف الوطواط.

ولكنه لم يكن ليقوم بذلك إلا عندما يخدم فعله هذا الصالح العام في محاربة الجريمة، أي رجل سخيف هو!.

(ضحك) عملة عملاقة، نعم، إن ذلك يذكرني بقصة. هل تعلم بأن في أحد المرات كان بروس شديد الوحدة فطلب من زميله أكوامان - ليس هذا الشاب الجديد، بل ذلك الموجود في النسخة القديمة لفرقة العدالة - أن يساعده في إسترجاع إحدى قطع المتحف الرهيبة والتي سقطت في شق أرضي بعد أن ضرب زلزال مدينة غوثام؟ لم يكن يجراً على أن يطلب من زميله هذا الحضور للقاءه، ولكنه قام بإغرائه للحضور مستخدماً حيلة ما بدلاً من ذلك. إنه رجل لا يطاق، خائف جداً من إظهار مشاعره، والإعتراف بحاجته، حتى مع أولئك المقربين منه.¹²

- هل ورث كل من ديك وتيم عدم إتران بروس؟
- أوه، إنهما لم يرثا ذلك لحسن الحظ. خذ ديك على سبيل المثال، فعلى الرغم من كل بحثه الروحي، فهو رجل شاب يحافظ على الين واليانغ خاصته في حالة من التوازن. منذ أن كان طفلاً صغيراً، حديث العهد برعايتنا له. . .
- هل كنت مشتركاً في تربية ديك؟
- ماذا؟ لا. بالطبع لا، على الرغم من أنني كنت قد رأيته مرات قليلة أثناء زيارته لبروس على مدى أعوام. ومثلما كنت أقول، فعلى الرغم من صدمته بالوفاة المبكرة والعنيفة لوالديه، مثلما حدث مع بروس، فإن ديك قد نجح في الحفاظ على لطافته الأصلية، ضوء ليوازن به الظلام.
- عليه ذلك، إذ لم يكن من الممكن له أن يكون متجهماً تماماً وهو يرتدي ملابس داخلية خضراء ضيقة وأحذية تشبه أحذية الجنيات!.
- أوه! لا تذكرني بذلك. . . (ضحك) آسف، لقد قمت بتشتيتي مرة أخرى، توقف عن ذلك.

أتعلم، سمعت بأن ديك بشخصيته البالغة المعروفة بنایت وینغ، یمثل الجانب الأنثوي لباتمان، وتلك هي وجهة نظري فيه بالضبط. إنه یمهم بأصدقائه حقاً، ليس بالطريقة التي یمهم بها بروس من منطلق المسؤولية، ولكنه یمهم بهم ولهم بحق. تأمل فقط فترة عمله مع الغرباء مؤخراً، والتي كان من المفترض أن تكون مجموعة عمل مكونة أبطالاً خارقین، عوضاً عما يشبه العائلة، كالتايتنز، وهم حلفاءه السابقین. ولكنه أكتشف بأنه لا یمستطیع فعلها، أكتشف استحالة أن لا یمهم بزملائه، والذین أصبحوا أصدقائه حقاً، ولم یعد بإمكانه تحمل قیادتهم نحو المخاطر. وبالطبع، لمن قام بتسليم قیادة هذه المجموعة؟ سلمها لبروس بالطبع، والذي كان سعيداً جداً بتجميع عصبة من الأبطال مستعدين لإتباعه حتی لنیران الجحیم.¹³

- ماذا عن تیم، روبن الحالي؟

- أوه، تیم هو من أخشاه. فلقد خسر الكثير جداً منذ أن بدأ مشواره المهني في محاربة الجريمة جنباً إلى جنب مع بروس، فقد خسر والدته في وقت مبكر من ذلك، ثم خسر والده في وقت لاحق، وحبیبته ستيفاني براون، والتي كانت تحارب الجريمة إلى جانبه بصفتها The Spoiler سبويلر (وكروبن خلال الوقت القصير الذي كان باتمان "متقاعداً" فيه) وإثنين من أعز أصدقائه وهما كونر كينت وبارت آلين.¹⁴ وجميعهم كانوا قد ماتوا على أيدي المجرمين مثلما حصل لوالدي بروس. لو كان لأي أحد الحق في أن یغرق وسط اليأس ویفقد رفته وطبیعته الحنونة لصالح جانبه الشديد والمنتقم فهو تیم. في الحقيقة لقد أخبرني مرة أنه عندما توفيت والدته ورقد والده في المستشفی مشلولاً، فقد بدأ "یمیل إلى جانبه المظلم"، وشعر بـ"أن شياطين الليل بدأت تزحف ساحبة إياي إلى الجحیم الأبدي".¹⁵

ولكني أعتقد بأن تیم في النهاية، قد شعر بدنو هذا الخطر؛ إذ أنه شاب شديد الإدراك لذاته. وكما كتب لاو - تزو: "أولئك الذین یعرفون الآخريین

هم حكماء؛ أمّا أولئك الذين يعرفون أنفسهم فهم متنورون“. ¹⁶ لقد رأى ما فعلت الخسارة لبروس، كما تعلم، عندما جاء تيم إلينا في بداية الأمر. . . - «إلينا»؟

- آسف، لقد فعلت ذلك مرة أخرى، كنت أقصد عندما جاء لبروس، بعد إكتشافه هويته السرية، حيث قال بأن باتمان بحاجة إلى روبن، وبأن باتمان قد غرق كثيراً داخل نفسه بعد وفاة روبن الثاني، جيسون تود. حيث أصبح شديد القسوة والغضب، ساعماً مرة أخرى لليان خاصته بالهيمنة على الين. أنا أعتقد بأن روبن كان يمثل الين لليانغ الخاص بباتمان بطريقة ما دائماً، يمثل الضوء لموازنة ظلامه.

- أنا أعتقد ذلك أيضاً. كما أنني لم أدرك أبداً الدور الذي لعبه الموت في الدائرة الداخلية لباتمان، بمن فيها ديك. . .

- لقد تحمل ديك حصته من الخسارة بالتأكيد، بدءاً من والديه بالتأكيد وانتهاء بالمدينة التي تم تبنيه فيها، بلودافن، ومن ضمنها أصدقاءه المقربون. ولكنه كان يفهم طبيعة الموت على أغلب الظن، وكنا نأمل في أنه قد كان قادراً على مساعدة تيم. (وربما بروس حتى).

- ما الذي تعنيه بـ«طبيعة الموت»؟.

- الموت هو جزء فقط من حلقة طبيعية ويجب أن يتم قبوله كجزء من الطريق الذي نتخذه جميعاً. كتب تشوانغ - تزو بشكل جيد حول هذا الموضوع قائلاً: «إن كنت بسلام في زمنك وتعيش بإنسجام، فإن الحزن والسعادة لن تؤثر عليك». ¹⁷ وقد تساءل عن تفضيل الحياة على الموت حيث كتب: «كيف لي أن أعلم بأن رغبتني في الحياة ليست وهماً؟ كيف لي أن أعلم بأن النفور من الموت لا يشبه سوى متشرد لا يعلم طريق العودة؟. . . كيف لي أن أعلم بأن الموتى ليسوا نادمين على شوقهم للحياة من البداية؟». ¹⁸

- أعتقد بأن قيام جيسون تود من الموت مثال جيد على ذلك، أليس كذلك؟

- نعم، فمن الذي يقول بأنه قد أصبح الآن أكثر سعادة مما كان عليه في حالته السابقة وهو ميت؟.

أوه، جيسون المسكين، لقد كان شديد الغضب والتوحش، وغير قابل للتحكم، كان سيصبح كل شيء بإمكان بروس أن يصبحه لو كان بإستطاعته الحفاظ على غضبه وثورته. كتب لاو - تزو: «عندما تصل الكائنات إلى ذروة قوتها، فهي تتلاشى؛ وهذا يسمى بغير الوجه. ومن هو غير موجه، يموت مبكراً».¹⁹ كان جيسون بحاجة لتعلم التحكم بنفسه؛ وقد حاولنا جميعاً تعليمه ذلك. وللأسف، فلم يبدو بأن عودته قد علمته الكثير عن هذا الأمر. كتب تشوانغ - تزو بأن «كمال الفضيلة هو في أن تهتم بعقلك بطريقة لا يمكن للمشاعر فيها أن تؤثر عليه عندما تكون على علم بالفعل بأن لا شيء سيؤثر عليه أساساً، وتكون بسلام مع نفسك حول ما كتبه لك القدر».²⁰ لكن قدره غير واضح، سننتظر ونرى ما يحدث، وليس باستطاعتي سوى التمني بأن يتمكن من قبول ما لا يستطيع تغييره، وعلى بروس أن يتعلم ذلك أيضاً بكل تأكيد.

- إننا لا نستطيع مناقشة تود دون تناول قاتله الجوكر، بالطبع.

- الجوكر. حسناً، أعتقد بأنه كلما تحدثنا عنه أقل كلما كان ذلك أفضل. فأنا متأكد بأن لدى الآخرين أكثر بكثير ليقولوه عنه مما لدي أنا.²¹ ولكن من المثير للاهتمام بشكل كافٍ أنني أتذكر ما قاله بروس مرة بأن ديك قد قال له: «الجوكر موجود بسببي أنا. كيف لي أن أفرض النظام والذي هو مهم للحياة في غوثام في الوقت الذي يكون فيه الجوكر هو الفوضى التي تقوض هذا النظام؟».²² وهذا هو مثال آخر حول كيف يساند هذان الشريكان أحدهما الآخر. (وحكمة ديك الناشئة، كما أجزؤ على القول).

- لقد لاحظت بأنك لم تذكر ألفريد إلى الآن.
- أوه، ألم أفعل؟ حسناً، لا يوجد الكثير لقوله عن السيد بينيورث كما افترض، عدا كونه خادماً وفيماً، وناصحاً موثقاً، عدا كونه مثلاً للتواضع.
- إذ «يعتني الحكماء بأنفسهم، لكنهم لا يمجدونها».²³
- إنه شبيه بك إلى حد ما أيها المعلم..
- أوه، أعتقد بأن ذلك صحيح. في الحقيقة فإنني دائماً ما اعتبرت ألفريد مثلاً للرجل الحكيم، أوجاحة العقل في الفكر الطاوي. فقد كتب لاو - تزو بعد كل شيء بأن "يقوم الحكماء بخدمات لا تتطلب جهداً ويقدمون إرشادات من دون الحاجة للكلام".²⁴ وهذا ينطبق جداً على ألفريد، كما أعتقد. وبالطبع، فقد قام بتحجيم بروس بمكانته الحقيقية في مناسبات كثيرة، كما أستطيع أن أقول.
- بالفعل.
- عفواً؟
- عذراً، لقد علق شيء في حنجرتي فقط.
- هل ترغب أن آتي لك ببعض الماء؟
- شكراً لك، لا داعي لذلك.
- الآن وبعد أن فكرت في الأمر أكثر، يبدو لي أن ألفريد يجسد مفهوماً مهماً جداً للطاو، وهو مفهوم wei-wu-wei، أو "الفعل من دون الفعل". حيث كتب لاو - تزو: "أفعل اللافعل، وكافح من أجل أن لا تكافح".²⁵ إذ يعرف الرجل الحكيم متى عليه أن لا يفعل شيئاً، وهو بذلك يفعل شيئاً. حيث يقدم ألفريد مساعدة لا تقدر بثمن لباتمان، من خلال رؤية ملاحظة لم يرها بروس، أو احتمالية لم يتخيلها، أو رؤية قيّمة كانت قد فاتته. فعقل ألفريد منفتح، لذا فهو يرى كل شيء في ذات الوقت. وقد

روى تشوانغ - تزو قصة جزار ماهر جداً، لدرجة أنه لم يشحذ شفرته مطلقاً منذ تسعة عشر عاماً. وقال الجزار بأنه عندما يُقَطَّع ثوراً، "تكون للمفاصل مسافات بين بعضها البعض، في حين أن نصل الساطور يكون غير حاد. وعندما يتم وضع ما هو حاد في ذلك الذي يحوي على مسافات بينية، سيكون هناك مجال واسع لتحريك النصل".²⁶ إن ألفريد هو مثل هذا الجزار، فهو قادر على رؤية ما هو موجود، وكذلك ما هو غير موجود، والذي غالباً ما يكون أكثر أهمية.

"لا يقوم الحكماء بأفعال عظيمة؛ وهذا ما يمكنهم من تحقيق عظمتهم".²⁷ ألفريد ليس باتمان، ولكن لم يكن بروس ليكون باتمان لولاه. وقد كتب تشوانغ - تزو: "يوافق الحكماء بين الصواب والخطأ، تاركين الآخرين في توازن طبيعي".²⁸ وعلى ألفريد أن يوافق بين الصواب والخطأ لدى بروس، مراقباً صحته وآلامه، سعادته وحزنه، هدوءه وغضبه، ومحاولاً موافقتها مع التوازن الطبيعي للأشياء، مع الطاو.

إنها مهمة شديدة الصعوبة للقيام بها، ولكن هذا هو طريق ألفريد، وقد اختار السير به، وليس ضده. إنه يذكرني بما كتبه لاو - تزو عن المياه إذ قال: "لا يوجد شيء في العالم أكثر مرونة وليناً من الماء. ومع ذلك، فعندما يهاجم القساة والأقوياء، فلا يمكن أن يصمد أمامه أي شيء، لأنهم لا يملكون طريقة لتغييره. إذ أن المرونة تتغلب على الصلابة، ويتغلب اللين على القوة".²⁹ فالمياه تنساب خلال أصابعك بلطف، ولكن مع مرور الوقت في إمكانها نحت الجبال. إنها صبورة، مثلها مثل ألفريد، وهو درس آخر يمكن أن يتعلمه بروس منه. وكما تعلمون، فإن العديد من فنون الدفاع عن النفس التي اتقنها بروس على مر السنين تستند إلى مبادئ الطاوية الأساسية كالمرونة واللين، فهي مثلاً تعلم الفرد استخدام حجم الخصم وطاقته ضده. ولكن هل أخذ بروس تلك الدروس إلى جوهر الجوانب الأخرى من حياته؟!

كما تعلم، فقد كتب لاو - تزو: "أنا أمتلك ثلاثة كنوز وأحافظ عليها؛ الأول هو الرحمة، والثاني هو الزهد، والثالث هو ألا أكون متغطرساً لدرجة الهوس بالسلطة المطلقة".³⁰ وأنا أتخيل ألفريد وهو يقول ذلك عن نفسه أيضاً.

- هذا يشبه تقريباً ما فعله بالضبط...
- عفواً؟
- لا تعر اهتماماً لذلك...
- هل لديك شيء آخر لتقوله أيها الشاب؟.
- لا يا سيدي، أنا فقط مبهور من الحماسة التي تكلمت بها عن ألفريد، خصوصاً وأنت قد قلت قبل دقائق قليلة بأنك «لا تملك الكثير لتحدث فيه عنه».
- (صمت)
- حسناً، شكراً جزيلاً لك سيدي، لقد كان نقاشاً تنويرياً جداً.
- على الرحب والسعة يا عزيزي. والآن لو تسمح لي فلدي بعض أعمال التنظيف لأقوم بها.

1- قصة Shadow of the Bat الإضافة السنوية #3.

2- التفاصيل الدقيقة لحياة لاو تزو وتشوانغ تزو، بما في ذلك هوياتهم الحقيقية (هل تبدو مألوفة؟)، هي لغز. يعتقد على نطاق واسع بأن الداودينجغ قد تم تجميعه من مصادر مختلفة في حدود العام 500 قبل الميلاد، وتعود كتابات تشوانغ تزو الرئيسية لحوالي العام 300 قبل الميلاد.

3- لاو تزو، داودينجغ، الفصل الأول، الصفحات 25-32. كل الأسئلة من هذه التحفة قد تُرجمت من قبل توماس كليري ويمكن إيجادها في كلاسيكيات الطاوية المجلد الأول (1994 Boston: Shambhala Publications)، الصفحات 12-47.

4- أقرأ العدد #7 من Infinite Crisis (يونيو 2006)؛ حدثت الرحلات السنوية خلال السلسلة 52 (2006-2007)، ولكن تم عرضها بشكل صريح في أحيان قليلة فقط.

5- لاو تزو، داودينجغ، الفصل 29.

6- العدد #53 من Catwoman (مارس 2006)، أعيد طبعها في: Catwoman: The Replacements (2007).

7- تم الكشف عن مسح الذاكرة في فلاش باك في Identity Crisis (2005)؛ ساعها بروس في العدد #834 من Detective Comics (سبتمبر 2007).

8- لاو تزو، داودينجغ، الفصل 55.

9- "في تعاليمه لديه العديد من الأساتذة، كل منهم بفلسفته الخاصة. يتفق أساتذتي على نقطة واحدة فقط: لتكون محارباً عليك أن تحقق التوازن." (باتمان، في العدد #8 Batman Confidential، أكتوبر 2007).

10- لاو تزو، داودينجغ، الفصل 2.

11- المرجع السابق، الفصل 11.

12- ينخر القرش العملاق في Catalysm (1998)؛ حلقة آكوامان الموجودة في العدد #18 من Gotham Knight (أغسطس 2001).

13- أقرأ العدد #49 من Outsiders (سبتمبر 2007).

14- تتوفى والدة تيم في "طقوس المرور" (الأعداد #618-621 من Detective Comics، العام 1990)؛ ووالده في Identity Crisis عام 2005؛ ستيفاني في العدد #633 من Batman (ديسمبر 2004)، والتي أعيدت طباعتها في War Games Act Three عام 2005؛ كونر في Infinite Crisis عام 2006؛ وبارت في The Flash: The Fastest Man Alive العدد #13 (يونيو 2007).

15- العدد #621 من Detective Comics (سبتمبر 1990)؛ راجع أيضاً الصفحات الثلاث الأخيرة من العدد #167 من Robin (ديسمبر 2007) فيما يتعلق بوفاة والد تيم.

16- لاو تزو، داوديجنغ، الفصل 33.

17- تشوانغ تزو، تشوانغ تزو، الفصل 3، الصفحة 68، توجد "الفصول الداخلية" لتشوانغ تزو ضمن كلاسيكيات الطاوية، المجلد الأول، الصفحات 51-100، حيث الترجمات التي أقتبست منها، تُرجمت مرة أخرى من قبل ثوماس كليري. هذه الفصول هي الأكثر شهرة والوحيدة التي تُنسب إلى الأستاذ ذاته. يمكن العثور على تشوانغ تزو الكامل، المتضمن للتعليقات التي وضعها باحثون آخرون، في نصوص من الطاوية، المجلد الأول والثاني (Mineola NY: Dover 1962).

18- تشوانغ تزو، تشوانغ تزو، الفصل 2، الصفحة 64.

19- لاو تزو، داوديجنغ، الفصل 35.

20- تشوانغ تزو، تشوانغ تزو، الفصل 4، الصفحة 73.

21- في الواقع، أقرأ مقالات روبيتشاود ودونوفان وريتشاردسون ضمن هذا الكتاب.

22- العدد #614 من Batman (يونيو 2003)، المضمّن في Hush المجلد الثاني (2003).

23- لاو تزو، داوديجنغ، الفصل 72.

24- المرجع السابق، الفصل 2.

25- المرجع السابق، الفصل 63.

26- تشوانغ تزو، الفصل الثالث، الصفحات 66-67.

27- لاو تزو، داوديجنغ، الفصل 63.

28- تشوانغ تزو، الفصل الثاني، الصفحة 60.

29- لاو تزو، داوديجنغ، الفصل 78.

30- المرجع السابق، الفصل 67.

المساهمون

ماهيش أناناذ: أستاذ مساعد في قسم الفلسفة لجامعة ساوث بيند، أنديانا. مجال دراسته وتدريسه الرئيسي يتضمن الفلسفة الإغريقية القديمة، والأخلاقيات الطبية، وفلسفة البايولوجيا، وفلسفة العقل. وهو مؤلف كتاب «دفاعاً عن المفهوم التطوري للصحة: الطبيعة، المعايير، والبايولوجيا البشرية» (أغسطس 2008) و«قراءة سبوك للأدمغة: مقدمة عن فلسفة العقل»، في ستار تريك والفلسفة (جلسة علنية 2008). يأمل ماهيش سراً أن يكون باتمان بعد تقاعد بروس واين، ولكنه يعلم بأن ذلك لا يمثل سوى أمنية فقط نظراً لشخصيته الحالية والمتطلبات الجسدية لذلك الزي الضيق اللعين!

سام كولينغ: طالب دكتوراه في قسم الفلسفة لجامعة ماساشوستس، أمهرست. عندما لم يكن يكتب رسالته في الدكتوراه في الميتافيزيقيا ونظرية المعرفة، فإنه كان يقضي وقته بلهفة منتظراً صدور كتاب باتمان والفلسفة.

جيمس ديجيوفانا: أستاذ مساعد في الفلسفة في كلية جون جاي للعدالة الجنائية/ جامعة ولاية نيويورك وناقد سينمائي حائز على جوائز من صحيفة توكون الأسبوعية. وقد كتب عن جماليات العوالم الخيالية، وأخلاقيات

تقنية زرع الأعصاب، وإمكانات خلق الذات في الفضاء الافتراضي. وقد نشر أيضًا عددًا من القصص القصيرة، وكان محررًا وكاتبًا مشاركًا لفيلم روائي طويل بعنوان «Forked World».

بين ديكسون: حاصل على كرسي وليام ليون في الأخلاقيات المهنية في أكاديمية القوة الجوية الأمريكية. درّس سابقاً في جامعة ماريلاند، مقاطعة بالتيمور. نشر الأستاذ ديكسون مقالات حول موضوعات التقدم الأخلاقي وفكرة الكرامة الإنسانية.

سارة ك. دونوفان: أستاذ مساعد في قسم الفلسفة والدراسات الدينية في كلية فاغنر. تشمل اهتماماتها التعليمية والبحثية الفلسفة النسوية والاجتماعية والأخلاقية والقارية.

كريستوفر م. دروهان: حاصل على الدكتوراه في فلسفة الإعلام والاتصال في مايو 2007 من كلية الدراسات العليا الأوروبية، ساس-فيي، سويسرا. يشغل الدكتور دروهان حاليًا منصب المدير المساعد للشعبة الكندية في كلية الدراسات العليا الأوروبية، بالإضافة إلى أنه يعمل أحيانًا كأستاذ مساعد في المدرسة. كاتب نشط ومحرر، وقد نشر العديد من الأعمال الدراسية في الفلسفة، وعلم السيميائية، والنظرية الثقافية.

غالين فوريسمان: محاضر في قسم الفلسفة في جامعة نورث كارولينا في غرينزبورو. يدرس دورات في المشاكل الأخلاقية المعاصرة، وعلم الجمال، والمنطق.

ديفيد م. هارت: طالب دراسات عليا في قسم الفلسفة بجامعة ديول في شيكاغو. يركز بحثه على التقاطعات بين الفينومينولوجيا والأخلاق والسياسة، خاصة تلك التي تحدث في فكر مارتن هايدغر وإيمانويل ليفيناس وجان بول سارتر.

جيسون ج. هوارد: أستاذ مساعد في الفلسفة في جامعة فيتربو، يتخصص في الفلسفة والأخلاقيات الأوروبية في القرن التاسع عشر والعشرين. وقد نشر مقالات في مجالات علم النفس الأخلاقي، والفلسفة للأطفال، والفلسفة الاجتماعية/ السياسية.

راندل م. جينسن: أستاذ مساعد في الفلسفة في كلية نورث ويسترن في أورانج سيتي، أيوا. تشمل اهتماماته الفلسفية الأخلاق والفلسفة اليونانية القديمة وفلسفة الدين. وقد ساهم مؤخرًا في فصول من كتب ساوث بارك والفلسفة، 24 والفلسفة، باتل ستار غالكتيكا والفلسفة، وأوفس والفلسفة. ديفيد كايل جونسون: يعمل حاليًا أستاذًا مساعدًا للفلسفة في كلية الملك في ويلكز باري، بنسلفانيا. تشمل تخصصاته الفلسفية فلسفة الدين والمنطق والميتافيزيقيا. وقد كتب أيضًا فصولًا عن ساوث بارك وفاميلي غاي وذخ أوفس وباتل ستار غالكتيكا وكونتين تارنتينو وجوني كاش وسيقوم بتحرير كتاب سلسلة فلسفة بلاكويل والثقافة الشعبية القادمة عن الأبطال. قام بتدريس العديد من الفصول التي تركز على أهمية الفلسفة في الثقافة الشعبية، بما في ذلك دورة مخصصة عن ساوث بارك.

ستيفن كريشنر: أستاذ في قسم الفلسفة في جامعة ولاية نيويورك في كلية فريدونيا. وقد كتب كتابين: الصحراء، القصاص، والتعذيب (University of America Press 2001)، والعدالة من أجل الماضي (SUNY Press 2004)، وعددا من المقالات حول الجنس والعنف والعنصرية.

دانيال ب. مالوي: أستاذ مساعد في الفلسفة في جامعة ولاية أبالاشيان في بون، نورث كارولينا. يركز بحثه على نظرية القرن العشرين النقدية (خاصة نظرية هربرت ماركوز) وتطبيقها على القضايا المعاصرة مثل التكنولوجيا الحيوية والإرهاب.

كارستين فوغ نيلسون: طالب دكتوراه في معهد الفلسفة وتاريخ الأفكار في جامعة آرهوس، الدنمارك. اهتماماته الرئيسية هي فلسفة إيمانويل كانط، والفلسفة الأخلاقية، وفلسفة الثقافة الشعبية، وقد نشر مقالات باللغة الدنماركية حول كل هذه المواضيع.

رون نوفي: يُدرس دورات في الأخلاق والميتافيزيقيا وفلسفة العقل في قسم الفلسفة والدين بجامعة سنترال أركنساس.

بريت تشاندلر باتيرسون: يُدرس اللاهوت والأخلاق في جامعة أندرسون في ساوث كارولينا. وقد كتب مقالات تحلل المسؤولية الأخلاقية في عالم سبايدرمان، والمنطق النفعي في 24، وصور الخلاص في لوست (التي نشرتها أيضا بلاكويل). بحثه الحالي يحلل خيال لويس، تولكين، وولف، وकारد.

كريس راغ: طالب دكتوراه في قسم الفلسفة في جامعة ماساتشوستس - أمهرست.

ريان إندي روديس: محاضر زائر في جامعة ستيفن أوستن الحكومية في ناكوغدوتشس، تكساس، بينما يكمل أطروحته في جامعة أوكلاهوما. تشمل اهتماماته البحثية الأخلاقيات ورموز المحارب والشرف.

نيكولاس ريتشاردسون: أستاذ مساعد في قسم العلوم الفيزيائية في كلية فاغنر في مدينة نيويورك، حيث يُدرس الكيمياء العامة واللاعضوية والطبية المتقدمة.

كريستوفر روبيتشاود: مدرس للسياسة العامة في كلية جون إف كينيدي للعلوم الحكومية بجامعة هارفارد. ينهي حاليًا شهادة الدكتوراه في الفلسفة في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا.

جيسون ساوثرث: يكمل حاليًا درجة الدكتوراه في الفلسفة في جامعة

أوكلاهوما، نورمان، أوكلاهوما، وهو أيضًا مدرس مساعد في جامعة ولاية فورت هايز، هايز، كانساس.

توني سباناكوس: أستاذ مساعد في العلوم السياسية والقانون بجامعة ولاية كليير وأستاذ مساعد في السياسة بجامعة نيويورك. وقد كتب العديد من المقالات وفصول الكتب حول الاقتصاد السياسي والديمقراطية والمواطنة في أمريكا اللاتينية، وألف كتابًا بعنوان «إصلاح البرازيل» (Lexington Books 2004). كان أستاذًا زائرًا في برنامج فولبرايت في جامعة برازيليا (2002)، وهو حاليًا أستاذ زائر في برنامج فولبرايت بمعهد دراسات السياسات المتقدمة في كاراكاس، فنزويلا.

مارك د. وايت: أستاذ مساعد في قسم العلوم السياسية والاقتصاد والفلسفة في كلية جزيرة ستاتن / جامعة ولاية نيويورك، حيث يُدرس دورات دراسية تجمع بين الاقتصاد والفلسفة والقانون. وقد كتب العديد من المقالات وفصول الكتب في هذه المجالات؛ ساهم في فصول الكتب الأخرى في هذه السلسلة التي تناولت ميتاليكا وساوث بارك وفاميلي غاي وذه أوفس؛ وشارك في تحرير كتاب الاقتصاد والعقل (Routledge 2007).

الفهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة: وضع لي ذلك	11
الباب الأول	
هل فارس الظلام دوماً على حق؟	13
هل كان من الصائب صنع روبن؟	31
كراهية باتمان الفاضلة	45
الباب الثاني	
القانون، والعدالة، والنظام الاجتماعي: أي مكان سيناسب باتمان؟	57
إدارة غوثام	75
وحشية الجوكر: هل يجوز تحميل الأمير المهرج مسؤولية أخلاقية؟	93
الباب الثالث	
الأصول والأخلاقيات: أن تصبح باتمان The Caped Crusader	107
هل كان على بروس واين أن يتحول الى باتمان؟	127
ما الذي قد يفعله باتمان؟.. بروس واين كأنموذج أخلاقي	143
الباب الرابع	
من هو باتمان.. (هل هذا سؤال خادع؟)	159
هل كان بإمكان باتمان أن يصبح الجوكر؟	157
أزمة هوية باتمان.. والتشابه مع عائلة فتغنشتاين	193

الباب الخامس

أن تكون الوطواط: تأملات من الوجودية والطاوية 223

الليالي المظلمة ودعوة الضمير 241

مواجهة بائس ضد الموت والفرع والحرية 257

الباب السادس

الصديق، الأب، .. المنافس؟ .. الأدوار الكثيرة التي يقوم بها الوطواط 271

الصديق الأفضل في العالم؟ .. بائس، سوبرمان، وطبيعة الصداقة 287

الخروج من ظل الوطواط: أرسطو، كانط، في التربية الأخلاقية 305

طاوية الوطواط: البات - تزو (في مقابلة مع مارك د. وايت) 321

المساهمون 337

مكتبة
t.me/t_pdf

باتمان والفلسفة الخوض في روح فارس الظلام

ما الذي يدفع شخصاً ما للذهاب الى هذا الحد؟ هل ما يفعله باتمان هو جيد، أو صائبٌ أو فاضل؟ وما الذي يقوله هوسه وتفانيه للـ «مهمة»، عمّن يكون؟ كيف يتعامل مع والديه وأصدقائه وأعدائه؟ وكيف هو الحال حين تكون باتمان؟ كل تلك هي أسئلة فلسفية صميمية، وعندما نقرأ قصص باتمان، فلا يمكننا الإمتناع عن التفكير في هذه الأشياء (ومن ثم كتابة أفكارنا) إن العشرون فصلاً في هذا الكتاب تستكشف قضايا في الأخلاق، والهوية، والصداقة والسياسة، وأكثر من ذلك أيضاً، باستخدام أمثلة مستقاة من قصص باتمان الشهيرة.

«من الكتاب»

هذا كتاب أعده وقدم له كل من مارك د. وايت وروبرت آرب، يتناول باتمان وقصصه الشعبية المصورة لاستنباط أمثلة تناقش وتحاور قضايا معرفية وأخلاقية عديدة، على منوال ما تقوم به الدراسات الثقافية ودراسات ما بعد الحداثة في الغرب اليوم. كتابٌ شيق جدير بالقراءة.

«الناشر»

telegram @t_pdf

أن تبدأ... هذا كل ما لديك



التوزيع خارج العراق
دار التنوير

باني
للنشر والتوزيع